أنيس منصور

لو جاء نوح؟!!

دار الشروق

لو جاء نوح؟!!

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

الطبعة الثانية
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

كلمة أولى

(١)

العبارة التى كتبها الشاعر الإيطالى دانتى على باب جهنم تقول :

(أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة)

بل هناك أمل فى النجاة يا سيدى !

والعبارة التى قالها الفيلسوف الإغريقى هرقليطس :

(لولا الصراع ما كان التقدم)

فقد عرف الإنسان الحب والرحمة والسلام وإرادة الحياة والصبر على المرض والعذاب والظلم والقهر . .

والعبارة التى كان يكتبها الرومان على أبوابهم :

هنا تسكن السعادة !

لأنهم وضعوا إلى جانب هذه العبارة رمزا للجنس . أى إن السعادة جنسية فقط . .

والعبارة التى قالها عالم النفس الألمانى فريتس برلز ، وهو أحد فلاسفة (علم نفس الجشتالت) . قال :

(إننى أعمل ما يخصنى وأنت تعمل ما يخصك . ولست فى هذه الدنيا لكى أعيش على هواك ، ولا أنت لتعيش على هو اى . أنت ما أنت عليـه . وأناما أنا عليه . فإذا التقينا أو تـلاقينا أو توافقنا بالصدفـة ، فهذا شىء جميل . وأما إذا لم يحدث ذلك فما حيلتى ؟ !)

فليس الإنسان وحده فى هذه الدنيـا . وعلى الرغم من أن الإنسان قد استقام ظهره من مليـون سنة . وله حياة عائلية من مـائة ألف سنة . فلا تزال الأسرة هى (الخلايا / الضامة) فى نسيج التاريخ . .

وقال الشاعر الألمانى برشت :

يقولـون لى : تناول طعامك واشرب ، وكـن سعيدا . . ولكن كيف أفعل ذلك وأنا قـد خطفت طعامى مـن أفواه الجائعين ، وشرابى عن شفـاة الظامئين ومع ذلك ما أزال آكل وأشرب ؟ !

فقـد عـاش الإنسـان على جثث الإنسـان وعلى استغـلال الإنسـان وابتزازه ومص دمه وهوائه أيضا . لكى يتمرد على كل ذلك . .

ولا يكتفى أن يتلاعب بالألفاظ فيقول إن مقلوب كلمة Live ومعناها الحياة هى كلمة Evil ومعناها الشر

فلا تـزال الحياة تساوى أن يعيشها الإنسـان . وقد عاشهـا . وجملها لنفسـه . وخـدع نفسـه . وأرضـاه ذلك . . وتمرد على ذلك ليعـاود استئناف الحياة ضد الحياة ومعتمدا عليها . . تماما كالطائرة ترتفع بالهواء ضد الهواء وفوق الهواء . . وكالسفينة تقـاوم الموج ، ولكنها تطفو عليه وضده وبه . .

وكـان أجدادنـا الفراعنـة يضعـون توابيت الموتى إلى جـوارهم وهـم يأكلون لعلهم يتذكرون آن الموت نهايـة كل حى . وأن الحقيقة المؤكدة فى

حياتنا هى موتنا . . وكما يقول الفيلسوف الوجودى سارتر . **إذا وقفت إلى جوار طفل فلن تعرف هل سيعيش طويلا سليما ملكا خادما أو مجرما . . ولكن من المؤكد أنه سوف يموت . .**

ولكن المؤكد أنه إذا عاش سوف يقاوم كل أشكال الموت الجسمى والنفسى والأخلاقى والروحى . .

صحيح أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا . ولكن أدوات الحياة هى التى تغيرت . .

فحواء تغطت بورقة توت . . وليست صناعة الأزياء إلا تطورا مستمرا لورق التوت طولها عرضها مكانها لونها شفافيتها . . أن تتغطى به المرأة وتتعرى فى نفس الوقت . .

وكان الإنسان يقتل الحيوانات بالحجارة . . وتطورت الحجارة فصارت مدافع وصواريخ وقنابل كيماوية وتطورت الحجارة . . . وبقيت الرغبة فى القتل والدفاع عن النفس والسيطرة والجشع كما هى .

وكانت كليوباترا قد جربت سم الأفاعى فى خادماتها قبل أن تلف الأفعى حول عنقها . .

وجربت المخابرات فى أمريكا وروسيا وألمانيا الشرقية كل الأسلحة النووية والعلمية والصدمات الكهربية وغسيل المخ فى المرضى والأسرى والمجانين والمواطنين لتعرف مدى خطورتها إذا استخدمتها ضد العدو . .

وقد سجد سكان هاواى عندما رأوا جيمس كوك . . فأساطيرهم تقول إنه إله طويل أبيض أزرق العينين سوف يجىء فوق جزيرة عائمة وجاء الرجل وسجدوا له . . ولكن عندما قتل منهم الكثير ، قتلوه . فلا يزال الإنسان رافضا للظلم والقهر والعدوان .

والإنسان هو هذا الكائن الغامض الذى ينقل حضارته من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر ، وفى نفس الوقت قادر على أن يحتفظ بكل سلوكه الإنسانى الذى لا يتغير . . روبسون كروزو عاش فى جزيرة وحده . ولكن كانت معه كل صفات الحضارة القديمة . .

والجندى اليابانى الذى عاش فى جوام بعد الحرب العالمية الثانية . لم يضع السلاح ٢٥ عاما . ظل يأكل الحشرات والأسماك ويسرق الدجاج . لا يعلم أن الحرب قد انتهت . ولما قالوا له . لم يصدق . وانتظر أمرا من الإمبراطور . . وجاءوا له بالأمر فاستسلم . . فقد عاش وحده ، ولكن احتفظ فى أعماقه بكل التقاليد العسكرية اليابانية . .

ونيل ارمسترونج أول إنسان نزل على القمر ، تحرسه ألوف العيون والعقول الالكترونية ومحطات المتابعة فى القارات الخمس ، كان يلف حول عنقة إيشاربا هدية من أمه . فهو ابنها الوحيد . وهو يعتقد ، وهى أيضا . أن هذا الإيشارب هو الذى سينجيه من الموت !

(٢)

ولكن ما الذى أصاب الإنسان الآن ؟

من المؤكد أننا نريد الحياة لأنفسنا والموت لغيرنا . ولكن الحياة تنتصر مع إرادة البقاء والسيطرة على الإنسان وعلى البيئة . .

وإذا كان الإنسان يريد الآن أن يهاجر إلى الكواكب الأخرى . . فقد فعل ذلك من قبل عندما هاجر من قارة إلى قارة . وبقى هو هو . فهذه الهجرة لم تغير طبيعة الإنسان . فمجرمو بريطانيا الذين سكنوا استراليا تحولوا إلى مجرمين أيضا .

والأمريكان والروس قد نقلوا حروبهم من الأرض إلى الفضاء . . فقد كانت هناك حرب النجوم . . وإذا كانت الحرب قد بردت والسلام

قد أصبح ساخنا ، فذلك لبعض الوقت . وسوف تقوى روسيا لتكون خطرا جديدا . فلديها كل عناصر القوة والسيطرة . . وسوف تستأنف الدول الصراع بأشكال وأساليب أخرى وفى أماكن أخرى . . ولكن سوف تنتصر الحياة دائما . .

وكما عاشت الإنسانية عصور الإيمان الذهبية . فهى تعيش عصور عدم الإيمان وعدم اليقين أيضا . . وهى قادرة على ذلك . .

فبعض الحشرات تستطيع أن تعيش أياما من غير رؤوسها . . مثل الصرصار Cockroach وكذلك بعض الشعوب دون أن تكون لها نظرية وإذا نحن فتحنا المقبرة بعد يومين أو ثلاثة من دفن أى إنسان فسوف نجد شعر لحيته وشاربه وأظافره قد طالت . . لأن الشعر والأظافر ليست فى حاجة إلى عقل وجهاز عصبى لكى تنمو . . وإنما إلى طبقة رقيقة من الغذاء موجودة فى بشرة الإنسان . . فالشعر والأظافر قد نمت بعد أن مات صاحبها !

(٣)

هناك تقدم ولاشك فى أجهزة الحصول على المعلومات ونقلها فهى أكثر وأسرع . . وهى فى خدمة العلم والأدب والفن . ولكن الجهاز الذى نستخدمه فى تشخيص المرض ، هو نفسه الذى نستخدمه فى الجريمة . . فكما أن هناك مؤسسات علاجية ، هناك مؤسسات إجرامية تستخدم عددا كبيرا من العلماء والأطباء والمحامين والمجرمين أيضا . .

ولكن هناك تقدما . . فالملك سليمان كان يندهش جدا لهذه الظاهرة : وهى أن الأنهار تصب فى البحار ، لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت !

ولكن أى طفل صغير يعرف أنها ظاهرة تبخر الماء حين يتحول سحابا فيسقط على الجبال ويتدفق فى الأنهار إلى البحار . . وإلى الأبد !

والمؤرخ العظيم توينبى أعظم وأروع من هيرودوت . لأنه يعرف أكثر ولأنه رأى طويلا وتأمل أطول . .

والفيلسوف الفرنسى سارتر أعظم من الفيلسوف فولتير

وشكسبير أعظم من يوربيدس . .

ونيوتن أعظم من فيثاغورس .

والعقاد أعظم من أبى حيان التوحيدى وطه حسين أعظم من ابن العميد . .

وإن كان المستشرق الإنجليزى أدوارد لين عندما جاء إلى مصر فى القرن الماضى قال : إن الموسيقى المصرية الشعبية الصافية أروع من كل الموسيقى الغربية !

وأذكر أننى فى بداية حياتى الصحفية ذهبت أزور أحد علماء النفس المصريين وجلست إليه طويلا . . ولكن شيئا باهرا وقفت إلى جواره لكى أظهر فى صورة أنشرها مع مقالى . وكانت الصورة لفرن بوتاجاز . . ونشرنا الصورة . ومعنى ذلك أنى ورئيس التحرير وكل المحررين لم نر مثل هذا الاختراع العظيم . . ولكن عندما ذهبت بعد ذلك إلى قاعدة إطلاق الصواريخ فى أمريكا لم ألتقط صورة . . فهى ليست شيئا جديدا فالملايين قد رأوها ولم تعد تلفت نظر أحد . . والفرق بين البوتاجاز وقاعدة الصواريخ لايزيد عن عشرين عاما !

(٤)

فما الذى حققه الإنسان فى العشرين سنة التى تلت ذلك فى المواصلات والمعلومات . فالإنسان كما يقول فيلسوف التاريخ اشبنجلر هو الحيوان الذى يصنع أدواته . . بفضل أصابعه القادرة على تطوير كل شىء !

وقد رايت فى تايوان كيف استخدموا الهندسة الوراثية فى تحويل ريش الاوز الأسود إلى ريش أبيض . . وزيادة حجم وطول وعرض الأسماك . . وتغيير سلوك الجمبرى الذى كان يخرج إلى المياه الدولية فيلتقطه الصيادون اليابانيون ـ وهذا حقهم . فاستطاع علماء تايوان أن يجعلوا الجمبرى يلف ويدور فى داخل المياه الإقليمية ليدخل الشباك التى أعدوها له !

وعن طريق الهندسة الوراثية سوف يتغير سلوك الإنسان والحيوان والنبات . . وسوف نكتشف الجينات genes التى تؤدى إلى ألوف الأمراض الجسمية . . وإن ما فعله الفرنسيون أخيرا من رسم خريطة لهذه الجينات وترتيبها داخل الخلية يعتبر من أعظم الإنجازات العلمية فى هذا العام . .

وسوف يعيش الإنسان أطول وأصح وسوف يقاوم المرض ويقاوم انعدام الوزن فى المدن الفضائية الجديدة . . التى ستقام قبل نهاية القرن حول الأرض . . وسوف يعيش الإنسان تحت قشرة القمر وقشرة المريخ . .

وسوف تبقى الطبيعة الإنسانية كما هى دون تغيير كبير . .

ومن منا لم يضحك عندما قرأ رحلة الرحالة النرويجى تورهايردال (رع٢) عندما التهبت جلود البحارة بسبب الشمس والملح . فأمر الطبيب الروسى بان يتبول الجميع بعضهم على بعض . فهذا هو العلاج الوحيد . وكان العلاج . . وهى عادة ما تزال مستخدمة بين سكان الصحراء حتى اليوم!

من يدرى ربما استطاع الإنسان أن يتغلب على مشكلة الانتقال من مكان إلى مكان . . فلا تزال سفن الفضاء لكى تتغلب على جاذبية الأرض يجب أن تنطلق بسرعة ثمانية كيلو مترات فى الثانية . . ولا تزال السرعة المطلقة هى سرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . .

ولو استطاع أى انسان وهو احتمال بعيد جدا ــ أن تكون له سرعة الضوء إذن لاستطاع الإنسان أن يحقق المعجزة وهى أن تتحول الطاقة إلى

مـادة . . فنحن لا نعرف الآن إلا أن الماده تتحـول إلى طاقـه حراريـة أو ضـوئيـة . . ونحن نجـرب ذلك فى كـل لحظـة . . عنـدمـا نشعل عـود كبريت . . نحن نحول الماده إلى طـاقة . . ولكن إذا حولنـا نار الكبريت إلى عود كبريت ، فإننـا نستطيع أن نحول جسم الإنسان إلى طاقـة ننقلها فى الفضاء ثـم نعيدها مادة فى مكان آخر من الكون ؟ !

وحتى لـو نجحنا فى ذلـك فالكـون مـا يزال واسعـا شـاسعا عميقـا مجهولا . . فأقرب الكواكب إلى مجموعتنـا يحتاج الوصول اليها إلى ألوف السنين .

وعلى أيام نيـوتن كنـا نرى أن الكـون هندسـة صارمـة . وأن الله هو أعظم مهندس . أو أنه هو الرياضى الأول . .

وفى عصر اينشتين ظهرت النسبية وكاد النـاس يكفرون أو كفروا مع أن هذه النظرية لها عـلاقة فقط بالكون الذى له بعـد رابع هو الزمان . . وإن الزمـان مثل الضوء ينكسر وينحنى . . تمامـا كما تلقى بتفاحـة فوق مخدة . فترى التفاحة فوق تجويف ، هذا التجويف هو انحناء الزمان !

ومن الصعب أن نتصور ذلك ، ولكنها الحقيقة . .

وظهرت نظرية أخرى هى عدم اليقين للفزيائى الألمانى هيزنبرج . . ومعناهـا أن فى الكون قوانين أخرى لا نعـرفها . وأن هناك قـوانين ضد القوانين أو لا تخضع للقوانين . وأن هناك الكثير الذى لا نعلمه .

فما الذى سوف يحققه الإنسان فى مائة سنة أو ألف . .

فلو فرضننا أن عمر الكون سنة ، ٣٦٥ يوما . . وأن الله خلق الكون فى الثانيـة الأولى من الدقيقة الأولى فى الساعـة الأولى من اليوم الأول من ينـاير ، فإن ظهـور الإنسان العـاقل كـان فى الثانيـة الأخيرة من الدقيقـة الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . والإنسان فى هذا الفترة القصيرة جدا قد

حقق الكثير الرائع فى كل فروع المعرفة . . فالكون عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان عمره أربعون ألف سنة . . وقد حقق المعجزات فى الأربعين عاما الماضية . .

(٥)

وكان الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان يتمنى أن يولد عند نهاية العالم ليرى ما الذى حققته البشرية . . مع أنه لم يكن له إلا مشكلة واحدة هى : كيف يستطيع إنسان أن يحب زوجته عامين متواليين ؟ !

مع أن حلها بسيط هو ألا يتزوج . . أو يقتل نفسه أو زوجته من أول يوم أو أول عام . .

ثم إن فى الأدب والفن فى كل الشعوب ما يدل على عمق وصدق هذه المشاعر . .

ورغم أننا نعرف صعوبات العلاقات الإنسانية ، إلا أننا لانهرب منها ولا نهرب من أنفسنا . . تماما كما أننا أصبحنا نعرف أن القمر جسم بارد . ولكن من الذى لا يحب النظر إليه والتغنى به اليوم وغدا . .

ومهما كبر الإنسان واتسعت آلامه ؟ وزادت همومه ، فإن نظرة إلى زهرة وعينى طفلة قادرة على أن تعيده إلى صفاته وبقائه . . لحظة . . لحظتين . . هما كل ما فى الإنسان من عظمة . .

يقول الشاعر العظيم برتولت بريشت :

(٦)

وإن البحث الآن عن سفينة نوح فوق جبل أرارات لدليل على أن الإنسان يحلم بالنجاة . . بسفينة . . برسول عنده نظرية تنقذنا من أنفسنا على هذه الأرض أو على الكواكب الأخرى !

ولكن سوف تبقى مشكلة هامة : زيادة عدد السكان .

والهندسة الوراثية هى القادرة وحدها على الحل . ما دام الإنسان عاجزا عن ضبط نفسه . .

وكانت الأساطير الافريقية ترى أن الحل الوحيد : هو أن يعيش الرجال فى جزيرة والنساء فى جزيرة . .

أو أن يقطع النساء أثداءهن حتى إذا اضطررن إلى الحمل والولادة لم يجد الأطفال لبنا تعيش عليه . .

وكانت عند الإغريق جزيرة اسمها ديلوسى قد حرمت فيها الموت والولادة . فلا يولد فيها طفل ولا يموت فيها أحد . . فالذين يولدون كالذين يموتون يذهبون إلى جزيرة بعيدة . والطريق إليها قاتل أيضا . .

أو تلجأ الهندسة الوراثية إلى نقل صفات بعض الحشرات إلى الإنسان فأنثى العنكبوت تأكل الذكر أثناء اللقاح . . . وتستطيع أن تفعل ذلك ٢٥ مرة من كل يوم ؟ !

وهكذا تقضى على معظم الذكور . .

ثم تنتقل هذه الصفات إلى الرجال ليأكلوا النساء . . وهكذا تختصر الإنسانية نفسها . . لبعض الوقت ليعاود التكاثر فى كوكب والاختصار فى كوكب . . وتستمر الحياة أفضل وأعلى وأسمى . . ولابد أن تستمر .

ويزداد يقين الإنسان وإيمانه وتواضعه أمام عظمة هذا الكون الذى هو صورة متواضعة جداً جداً لعظمة الله !

(٧)

فلما كانت الليلة الخامسة عشرة من (ألف ليلة وليلة) رأينا صورة مفزعة لمطاردة الشر ومطاردة الموت . . وإصرار الحياة على أن تستمر .

وإصرار الانتقام على أن يمضى حتى النهاية . . ثم هذه الثورة الكيميائية الهائلة عندما تتحول الأشياء والناس والحيوانات بعضها إلى بعض . . وهى تلك القدرة التى يحلم بها الإنسان . . فتكون المادة طيعة بين أصابعه . . تماما كما صورتها أساطير الإغريق ، فقد كان الآلهة يتحولون إلى حيوانات ونباتات كما يشاءون وكان آلهة الإغريق يفعلون ذلك بسبب الملل : الحياة الأبدية الهادئة المستمرة التى ليس فيها تغيير ، لأن التغير من صفات الذين يولدون ويموتون . . أى من صفات البشر . . وكانوا يحسدون البشر على هذه النعمة : نعمة أن يولدوا وأن يموتوا . .

ففى هذه الليلة الخامسة عشرة من (ألف ليلة وليلة) نجد العفريت وقد اتخذ شكل الأسد يحاول أن يلتهم بنت الملك . . ولكن هذه الأميرة التى لها قدرات العفريت وأكثر ، تنزع شعرة من رأسها فتكون الشعرة سيفا وضربت به الأسد فانقسم نصفين . وانقلب أحد النصفين عقرباً . فتحولت الأميرة إلى أفعى تطارد العقرب . . فانقلب العقرب صقرا . فانقلبت الأميرة نسرا . . ثم صار الصقر قطا أسود ، فانقلب النسر ذئبا . وانقلب القط الأسود وصار رمانة حمراء فى بحيرة ماء ، فاقترب منها الذئب فطارت فى الهواء ووقعت على الأرض فانفرطت ، وانقلب الذئب ديكا يلتقط حب الرمان . . وراح الديك يصرخ ويقفز فى كل مكان حتى وجد الحبة فانقض عليها فسقطت الحبة فى الماء فتحول الديك حوتا وانقض عليها وغابا تحت الماء ثم تحولت الحبة عفريتا كما كان ثم شعلة من النار التى تخرج من فمه ومن عينيه ومن أنفه . . وتحولت الأميرة هى الأخرى إلى نار . . ثم صار العفريت كومة تراب ، وتحولت الفتاة هى الأخرى إلى كومة تراب !

ففى هذه القصة كل صور الدمار والخراب وأشكال الموت . . والنهاية الواحدة لهذه الحرب انه ليس هناك غالب ولا مغلوب . .

والقـرآن الكريـم أكـد لنـا أن العلماء أعظم قوة من العفـاريت . . كما جـاء فى حكـاية الملك سليمان وبلقيس ملكـة سبأ . عنـدمـا طلب الملك سليمان من العفريت أن يأتى له بعرشها . قال تعالى :

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك)

وقال تعالى :

(وقـال الـذى عنده علـم من الكتاب أنـا آتيك بـه قبل أن يـرتـد إلى طرفك)

فصاحب العلم أقـوى من العفريت . والعلم الحديث والـذى يزداد قوة أصبح يتجاوز بقدراته كل خيال للإنسان فى كل العصور . .

(ومؤلفو ألف ليلة) لم يدركوا روعـة هذه القصة التى ألفوها ، وإنما انشغلوا بتلفيـق أبيات من الشعـر لها دلالة أخـلاقية . . فالشعـر ركيك المعنى والمبنى . . اما الحكاية فتحفة فلسفية . . أما الابيات التى حشروها حشراً فتقول :

تحيرت والـرحمن لاشـك فى أمـرى
وحلت بى الأحزان من حيث لا أدرى

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى
وأصبر حتى يقضى اللـه من أمـرى

سأصبر مغلـوبـا بغير تـوجع
كما يصبر الظمآن فى الـزمـن الحر

ومـا أحسـن الصبر الجميل مع التقى
ومـا قـدر المولى على خلقـه يجرى

سرائر سرى تـــرجمان سريـــرتى

إذا كـــان سر السر سرك فى سرى

ومن قـال إن الـدهـر فيـه حـلاوة

فـلابـد من يـوم أمـر من المر

ولكن المأساة أكبر من هذا التلاعب بالألفاظ ومن مجرد الحزن على ما كان والخوف مما سيكون . .

فالعلم هو وحده الذى يجدد أشكال الألم والمرض ، وهو وحده الذى يجدد أشكال العلاج والصحة . . والعلم هو الذى يجدد أسلحة الدمار وهو وحده الذى يجدد أسلحة الوقاية منها . . والذى يبذر الأرض بالألغام، والذى يجعل الألغام تزهر وتثمر سلاما وحبا بين الناس . .

ولو خرج رفاعة الطهطاوى اليوم من قبره وسار فى شوارع باريس مرة أخرى لبهره الذى يرى . . وربما بهره شىء آخر غير المرايا التى بهرته عندما كان طالباً فى باريس وغير فساتين السيدات . . فقد كان الطهطاوى يمر على المقاهى ويندهش كيف أن صور المشاة فى الشارع قد انعكست على المرايا . . فبدت المقاهى واسعة كأنها ميادين . . وكان الطهطاوى يضع يده إلى جوار المرايا فيجد أن صورة يده ولونها لا يختلفان عن شكلها ولونها الحقيقى . . وكان يقارن بينها وبين مرايا مصر التى تجعل الإنسان مرة مقعرا ومرة محدبا وتجعل لونه أصفر أخضر ! .

فماذا لو رأى التليفزيون وسفن الفضاء وأرض القمر وأجواء المريخ والهالات الغازية حول كوكب المشترى الذى هو أكبر من الأرض ١٥٠٠ مرة . . ثم رأى الإنسان يهبط على القمر ويصعد منه ليعود سالما إلى الأرض؟ ! .

إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع أدواته . . إن الإنسان قد وجد لكل مشكلة حلا ، كما أنه وجد لكل حل مشكلة ثم وجد لها

حلا . . وكل خطوة نخطوهـا لها ثمن من دمنا ومن راحتنا . . ولا يتردد الإنسـان لحظة واحـدة فى أن يفعل ذلك . وسوف يفعل دائما حتى لـو لم يكن هناك أمل فى الذى يفعله . .

الـرسول عليـه الصلاة والسـلام قال لنـا ما معنـاه : حتى لو قـامت القيامة يجب أن تزرع شجرة .

المهم أن تزرع الحياة فى وجه الدمار . أن تزرع الحياة فى وجه الموت . . أن تغرس الـدنيا فى يوم القيـامة . . أن تـزرع فى أى أرض . . المهـم ألا تتوقف عن العمل وعن الأمل وعن إضافة شىء إلى شىء آخر . .

والإغريق عباقرة العذاب حدثونا عن أسطورة الفتى سيزيف . . فقد كان محكوما عليه بأن يدفع أمامه حجرا إلى أعلى جبل ، ويتدحرج الحجر إلى السفح فيعود سيـزيف يدفعه إلى الأبـد . . وكان يفعل ذلك بمنتهى الهمـة والحماس . . كأن لهذا العذاب نهايـة . . والحقيقة أنـه عذاب بـلا نهاية . .

وإذا كان آلهة الإغـريق يريـدون أن يعذبـوا سيزيف بـالتعب المستمر والملل الأبدى واليأس المطلق فإنه يعمل كأنه لا يمل وكأن هناك نهاية . . وبعدها يجىء الخلاص من هذا العذاب . .

ولكن سيزيف كان يغيظ الآلهة ، فلا هو قد تعب كما أرادوا ، ولا هو قد مل كما شاءوا ، ولا هـو قد أحس بالعبث والضياع والـلامعنى الذى فرضوه عليه . . فهو لأنه كان يعمل كان لكل شىء معنى وقيمة وهدف ونهاية !

والفـلاح المصرى كان يبنى الجسـور التى يهدمهـا الفيضان ثم يعـود يقيمها ليهدمها . . ويعود إلى ذلك ألوف السنين . .

وأهل بيروت رغـم قنـابل الحرب الأهليـــة والمدافع التـى حطمت واجهـات محلاتهم الـزجاجيـة كـانـوا يصلحونها ويجعلـونها من زجـاج

أيضا . . إنهم أحفـاد (سيزيف) لأنهم لم يعـرفوا القـرف والملل واليأس الذى هو درجة من درجات الموت !

وكذلك الإنسـانية لم يدفعهـا ما صنعت يداهـا من دمار إلى أن تقطع يديها وذراعيها وساقيها ولسانها وتنسف عقلها . . وإنما الإنسانية بكامل قواها العقلية تحطم قواها العقلية . . تماما كالذى يدخل إحدى الحانات بكامل قواه العقليـة ويشرب ويشرب ليفقد قواه العقلية ويعـود ليفقدها كل يوم وبمنتهى الوعى والحرص على ذلك . .

فالإنسـان المخمور بالحرب والـدمار هو نفسـه الذى يحرص على أن يكـون مخمـورا بـالسـلام والحب . . فـإذا كـان الإنسـان حـريصـا على الانطلاق لكى تتسع الدنيا أمامـه وتحت قدميه وفوق رأسه وتحت جلده وفى خـلاياه ، فإن هـذا الإنسان سيظل دائما سجينـا فى جلده ، حبيسـا بقيـود طبيعية . . وسـوف يجلس دائما كالكـانجرو على ذيلـه . . وذيل الإنسان هو تاريخه . .

هات أعظم العلماء وأعظم الأبطال وحاول أن تغرس فى جلده دبوسا سوف يصرخ كأنه طفل . . مع أنه هو الذى استوعب الدنيا فى دماغه . . وهو الـذى احتوى الكـون . . ولكنه رغم هـذه العظمة العقليـة ، فإنه ضعيف صغير . . محدود الأمل والأجل . . محدود الطاقة . . والإنسان إذا ألقى طـوبة بكل قـوته فسـوف تبعد عنه عشرات الأمتـار . . ولكن بعلمه بعث بسفن الفضـاء إلى مئات الأميال . . وعن طريق مـراصده ، الفضائية رحل إلى ألوف ملايين السنين الضوئية . .

هذا هـو الإنسان كان وسـوف يبقى صغيرا بجسمه ، جبارا بخيـاله وقدراته . .

وليست الأدوات التى صنعهـا الإنسان إلا تطـويراً عبقـريا لأطـرافه هـو : لعينيـه ويديـه وسـاقيـه وعقلـه وأذنيه . . فكل تطبيقـات علـوم التكنولوجيا ليست إلا أطرافاً صناعية للإنسان . وتطويرا لانهائيا لها . .

ولاتزال حكاية المفكر الأمريكى امرسون درسا وموعظة ورمزا لكل ذلك . . فقد كانت له مزرعة . وفى المزرعة حظيرة للأبقار وحاول أن يرغم عجلا صغيرا على أن يخرج من الحظيرة وعاونه أولاده ولم يستطيعوا . فطلبوا من خادمة لهم أن تحاول لعلها تفلح فى الذى عجز عنه المفكر الكبير وأولاده . واستطاعت . . فقد دخلت الحظيرة ووضعت أصابعها فى فم العجل الصغير . . فأحس كأنها أثداء أمه ، وخرج طائعا ذلولا ذليلا . .

ووقف امرسون مبهورا ونظر إلى مكتبته قائلا : لم تفلح كل هذه الكتب فى أن تعلمنى كيف أخرج عجلا صغيرا من حظيرته . . إننى أعجب للذين يجدون حلا !

فالكتب هى العلم العظيم ، وعدم خروج العجل هو التحدى لقدرة الإنسان فما أصغر الإنسان أمام العجل ، وما أروعه وأعظمه أمام الميكروب والذرة وتحويل المعادن بعضها إلى بعضها . . وتوليد وتخليق ما لانهاية له من الأدوات والمعلومات والطموحات من أجل الحياة . . الحياة الأصح والأقوى والأوسع والأعمق والأشمل على هذا الكوكب أو على الكواكب الأخرى . بين المجرات . .

وإذا كنا فى خمسين عاما قد وصلنا إلى بلوتو أبعد كواكب المجموعة الشمسية . . فما الذى سوف نفعله عند نهاية القرن القادم وعشرة آلاف قرن آخر ؟ . .

ذلك مالا يستطيع عقل أن يتخيله أو يستوعبه !

رغم أن الإنسانية لم تعرف السلام إلا سنوات قليلة والحروب معظم الوقت ، فإن الإنسان مازال حيا يتقدم ويتطور ويبنى الأرض ويهدمها ويصعد إلى الكواكب الأخرى بكل عيوبه على الأرض وبكل صفاته العبقرية . .

والمؤرخ الأمريكى ول ديورانت قال لنا فى سنة ١٩٥٨ انه فى الـ ٣٤٢١ عاما التى مضت لم نعرف فيها السلام الا ٢٦٨ عاما فقط ! !

ولكن عرفنا السلام ، وتذوقنا الحياة وحرصنا عليها . . وطورناها وسوف نحرص على كل خطوة إلى الأمام

وسوف نمضى مهما كان الثمن للسيطرة على ما حولنا من القوى الطبيعية . . لا السيطره التامة ولكن بعض السيطرة التى تجعلنا قادرين على أن نتقدم ونتوقف ثم نقفز مرة أخرى وهكذا . . فما أبعد الزمن الذى اكتشف فيه الإنسان النار ـ وكان ذلك الاكتشاف انقلابا عظيما . . لأنه خلق النار والنور معا . . خلق الطاقة وأطال الليل . . وتطورت أشكال النار وحجمها وقدراتها الهائلة . وفى نفس الوقت تطورت أدوات وأجهزة التحكم فى النار والنور .

وآخر أشكال النور هى التى اخترعها الروس العام الماضى حين وضعوا مرايا فى سفن فضاء تدور حول الأرض وعكست ضوء الشمس على مدن أوروبا فأضاءتها وكان ذلك حدثا جليلا مضى دون حفاوة من أحد . .

فالروس الذين لايجدون ما يأكلونه الآن ، قفزوا بهذا الاختراع إلى السماء . . إنها العقول العبقرية رغم المعدات الخاوية . .

ربما كانت المسافة بين أول نار ونور اخترعهما الإنسان ، وبين هذه المرايا العاكسة من مدار حول الأرض أربعين ألف سنة . . أو حتى مائة ألف . . ولكن هذه المسافة الزمنية ليست إلا لحظة صغيرة فى تاريخ الإنسان على الأرض الذى عمره أربعة آلاف مليون سنة . . وفى الكون الذى عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان الذى ظهر متأخرا جدا على سطح الأرض !

ولا نهاية لما سوف يحلم به ويحققه الإنسان !

أنيس منصور

لماذا يكرهون اليابان ؟

العالم كله يتفرج على عجائب الصناعات اليابانية ويريد أن يفهم . . أو أن يعرف سر هذه العظمة العلمية والصناعية . . ولكن اليابانيين يضحكون دائما ولا يقولون شيئا . ويكون هذا السكوت دافعا قويا لأن يحاول العالم أن يفك طلاسم التقدم العلمى الباهر لشعب فى المائة سنة الماضية . .

فما هى المعجزة اليابانية ؟

بالضبط ما هذا الذى حققته اليابان / ألمانيا الآسيوية ؟

كيف أن شعبا بدأ تطوره وحركة تنويره معنا ، نحن المصريين ، ثم هو يتقدمنا وغيرنا من شعوب العالم مئات السنين . . كيف فعلها ؟ ولا يزال يتقدم الشعوب الأوروبية والأمريكية . . إن اليابانيين لا يقولون شيئا . ولا يعترضون على أى شىء يقال عنهم . .

يقال إن المعجزة اليابانية : هى الصبر . .

ويقال : إنه التماسك العائلى . . فالشركة أو المصنع هو عائلة يعيش فيها كل واحد ويموت ولايخرج منها ولا يخرج عنها . . فالعامل الذى يعمل فى إحدى الشركات ، لم يحدث أن تركها أو فصلوه منها . . وإذا

حدث فإنه لا يذهب مطلقا إلى شركة منافسة . . ولم يحدث أيضا أن قبلت شركة منافسة عاملا أو مهندسا كان يعمل فى شركة أخرى . . فهو ـ إذن ـ يولد ويعيش ويموت فى شركة واحدة : هى التى تعلمه وتزوجه وتعالجه وتزوج أولاده وأحفاده . .

ولايستطيع أى إنسان فى العالم أن يكون له مثل هذا السلوك اليابانى . . ولا يطيق أحد هذه (التبعية) المطلقة لشركة أو لمصنع . ولكنهم فى اليابان يقبلون ذلك ولا يرون غيره . فهل هذا هو سر العظمة اليابانية ؟ . . إذن فما سر العظمة الألمانية . . ماسر الشعب الذى مسح به الحلفاء الأرض وما تحت الأرض فقام جبارا قويا عنيفا . . أعظم وأروع من الروس والأمريكان والإنجليز والفرنسيين الذين احتلوه وأهانوه وأذلوه !

لقد احتج ١٤ ألف أستاذ فى علم النفس الاجتماعى والصناعى فى العام الماضى . والتفتوا إلى الدنيا من حولهم . واتخذوا قرارا . القرار : إن العالم كله يكره الشعب اليابانى . هذه حقيقة . يعجب به ولكن لا يحبه . السؤال : لماذا يكرهنا العالم كله ؟

هذه هى القضية التى التف حولها كل أساتذة علمى النفس والاجتماع وخبراء الصناعة والزراعة والتجارة والإعلان . .

والمطلوب هو معرفة : لماذا ؟ !

يتساءلون هل لهذه الكراهية مايبررها ؟ وإذا كانت الكراهية لأسباب حقيقية ، فكيف نكسب العالم الذى خسرناه . . وهل يستطيع الشعب اليابانى الذى أكد عبقريته فى إبهار الناس وغزو الأسواق وخراب بيوت كثير من المصانع المنافسة لليابان . . هل هذا الشعب يستطيع أن يكون عبقريا فى محبة الناس ـ أى فى جعل الناس يحبونه . . هل تستطيع اليابان أن تخلق الحب لها فى العالم . . هل يمكن (تخليق) الحب . . هل يمكن تصنيع الحب لكل ماهو يابانى . . وكم يتكلف الحب ؟

أما الكراهية فقد كلفت الشعب اليابانى عرقا ودموعا ودما وموتا مائة عام وزيادة . . فهل اليابان فى حاجة إلى مائة سنة أخرى لكى يكون حبها عالميا كما أن الإعجاب بها عالمى أيضا ؟!

فاليابان أرض ضيقة وأناس كثيرون . . وليست فى بلاد اليابان موارد طبيعية . . ربما كان الماء المحيطات ، وقد استخرجوا منه السمك واللؤلؤ . . أما اللؤلؤ فقد اخترعوا له حلا سريعا لنموه . . فبدلا من أن ينتظروا قواقع اللؤلؤ تنمو فيها حبات اللؤلؤ سنة بعد سنة . . إلى خمس سنوات . . فإنهم وضعوا فى داخل محارة اللؤلؤ نوعا من الكرات الصغيرة المصنوعة من محارات أسماك أمريكية . هذه الحبات الصغيرة يجىء حيوان اللؤلؤ ويفرز حولها المادة الفضية فى سنة . . أو أقل . . وهذا هو اللؤلؤ المزروع . . وقد كنت أول عربى يرى مزارع ومصانع اللؤلؤ سنة ١٩٥٩ فى مدينة توبا . . وقد تطورت زراعة اللؤلؤ فهم الآن يتحكمون فى حجمه وفى لونه . . ودرجة شفافيته . . ولايملك حيوان اللؤلؤ إلا أن يطيع . . وقد ابتكر هذه الطريقة البسيطة العبقرية رجل اسمه ميكو موتو . . وهو اسم على أكبر محلات ومزارع اللؤلؤ فى العالم . .

أذكر أننى قابلت أحد أحفاده فى طوكيو وأبديت إعجاباً ساذجا بزراعة اللؤلؤ ، فكان الحفيد ينحنى ويتراجع ويشير بيده إلى الوراء . . ولم أفهم معنى الانحناء مع الإشارة . أما الانحناء فهو الأدب اليابانى التقليدى فى الشارع وفى البيت وأنت تتناول العشاء مع أى أحد . . أما الإشارة باليد فهى إلى تمثال مصنوع من حبات اللؤلؤ لجده السيد ميكوموتو . .

وقد برع اليابانيون فى كل شىء كما برعوا فى زراعة اللؤلؤ . . أخذوا من أوروبا وأمريكا وطوروا وأضافوا وأبدعوا . . ونافسوا كل الدول التى سبقت اليابان فى كل هذه الصناعات . .

فالأمريكان ـ مثلا ـ اخترعوا الترانزستور واليابانيون طوروه وجعلوا سعره أرخص ولا نهاية لأشكاله وألوانه . . وقاموا بغزو شامل كاسح لكل أمريكا وأوروبا . . وكذلك التليفزيون والمسجلات والساعات والكاميرات والعدسات والسيارات . . والآن سفن الفضاء والصواريخ . . وأدوات التجميل والموضات وكل الأجهزة الطبية والألكترونية . . الخ .

ولايزال علماء النفس يبحثون ويتساءلون إن كان هذا هو السبب في كراهية الناس لهم . . أى كراهية الناس لمن يعيش معهم تحت نفس السماء وفى نفس المحيط وفجأة يسبق الجميع سرا ودون أن يدرى أحد كيف حدث ذلك ؟

فكيف كانت البداية ؟

البداية كانت معنا . . فعندما كان رفاعة الطهطاوى ومن بعده على مبارك يدرسان فى فرنسا ويترجمان الدستور الفرنسى والنظريات الاجتماعية والسياسية ويقارنان بين حضارة الإسلام وحضارة المسيحية وينقلان كل ذلك إلى مصر وفى حالة انبهار أدبى وفكرى ، كان اليابانيون يرتادون أوروبا وأمريكا بحثا عن سر تقدم الغرب لكى يتقدموا مثل الغرب ويتقدموا على الغرب أيضا . . لقد كانت ثورة !

والثورة اليابانية هى الثورة الوحيدة فى تاريخ الإنسان فى كل العصور التى قامت وتحققت دون إراقة دماء . . الثورة الفرنسية كان فيها إعدام وإحراق ودم . . والثورة الأمريكية عرفت الدماء والنار والدخان . . والثورة الروسية أعدمت عشرات الملايين . إلا ثورة اليابان ، فلا قطرة دم واحدة . . ثم إنها ثورة بمعنى الكلمة : تغيير جذرى للنظر إلى الحياة . وأدوات الحياة . . وتعديل نهائى فى مسار علاقات الإنتاج وشكل الإنتاج وقفزة بعيدة جدا باليابان إلى بداية خط السباق مع الغرب وبمنتهى الجدية

والتركيز الشديد والتضحية اللانهائيـة . . كثير من العرق والدموع ولا نقطة دم واحدة !

وقد بـدا كل شيء يتغير فى اليـابان من حادثـة واحدة . فوجـىء أبناء طوكيو بسفينة حـربية كبيرة . السفينة نزل منها رجل طـويل أبيض أحمر . يـرفع العلـم الأمـريكى ويـريـد أن يتحدث مـع أى أحـد مسئول . فلـم يتحدث إليه أحد . فهم لايفهمون كيـف جرؤ هذا الأجنبى على أن يلوث المياه المقدسة لليابان . ولما لم يجد القائد الأمريكى أحداً غادر المياه اليابانية ليعود إليها بعد عام ـ أى سنـة ١٨٥٤ . ولم تكن سفينة واحدة وإنما أربع سفن وعلى ظهـرها ٥٦٠ بحارا . . يريـد مسئولا يتحدث إليـه . . ويقدم إليـه هذه الهدايـا الكثيرة مـن فساتين السيـدات والمجـوهـرات والأحذيـة والأطعمة الأمريكية . . ويريد أن تسمح اليـابان للأسطول الأمريكى بأن يتزود بالماء . وإذا مرض أحد من البحارة ، فلتسمح له اليابان بالعلاج . . وهو فى نفـس الوقت يطلب التبـادل التجارى بين البلدين . . يبيـع سلع أمريكـا ويشترى سلع اليابـان . . ومن حق الأسطول اليـابانى ــ إن كان هناك ــ أن يذهب إلى الشـواطئ الأمريكيـة ويتمتع بنفس المزايـا . ووجد أحدا . واتفق معه . وغادر المياه المقدسة .

ولكن دهشـة الشعب اليـابانى لم تنتـه : السفينة وحجـم السفينة . . وأجهزة السفينـة وملابـس الجنود والضبـاط وطعامهـم . . وأدوات الأكل والشرب . . كل ذلـك لم يكن قد رآه الشعب اليـابانى . . ولايعـرف كيف الحصول عليه . . ولا كيـف يصنعه لو تخيل لحظة أنـه قادر على ذلك . . ولم تنته الدهشة . . ولم تنته الصدمة الحضارية . . كأن السفينة الأمريكية مليون لغم عائم انفجر فانفتحت رؤوس الناس وعيونهم وانطلق خيالهم إلى بعيد . ما هذا ؟ كيف هذا ؟ لماذا ؟ أين نحن وأين هم ؟ وكيف السبيل إلى هذه الحضارة الجديدة !

ولايزال علماء النفس يتساءلون إن كان هذا الحادث العابر هو الذى جعل العالم كله يحقد على الشعب اليابانى وحسه المرهف وخياله اللانهائى الذى تأثر بحادث عارض فثار على القديم كله وابتدع الجديد ؟

ودخل الأمريكان والأوروبيون إلى بلاد اليابان وطلبوا معاملات ممتازة وذاق اليابانيون المر أشكالا وألوانا بسبب هذه الامتيازات ــ التى تجرعناها نحن أيضا فى مصر وفى نفس الوقت . .

وبسرعة أوفدت اليابان عدداً من المثقفين إلى أوروبا وأمريكا : ليروا ويفهموا ويعودوا لكى يعلموا الشعب اليابانى . . ذهبوا إلى أوروبا وعاشوا . ورأوا وكتبوا وفهموا وناقشوا وقرروا . . أما الذين ذهبوا إلى أمريكا فلم يبهرهم شىء هناك . فقط عندما حضروا إحدى الحفلات وجدوا الرجال يقفون أمام النساء . . ثم تنهض المرأة والرجل يلف يده حول خصرها وترقص هى وهو على أطراف الأصابع مع الموسيقى . . ساعة وراء ساعة . كان ذلك أعجب ما شاهدوا فى الدنيا . . كيف يتقارب الرجل والمراة هكذا علنا ؟! كيف يعانقها علنا ويراقصها علنا ويتلامسان أثناء الرقص ؟ هذا ما لايمكن أن يحدث فى اليابان . فالمسافة بين الرجل والمراة كبيرة جدا . والكلفة لايمكن أن تزول هكذا . . ولا المسافات . . أما كل الذى رآه فى أمريكا فيمكن تقليده وتنفيذه . . إلا هذا الرقص فيحتاج إلى عشرات السنين لتغيير سلوكيات وتقاليد اليابان . .

ولم يشغلهم الرقص كثيرا . .

ولكنهم عادوا ببرنامج عمل بسيط جدا . هو الثورة الحقيقية . . بل الثورة الوحيدة البيضاء الباهرة فى تاريخ الإنسان . لأنها غيرت كل شىء حتى وصلت باليابان إلى ماهى عليه الآن . . فماذا فعل هؤلاء المثقفون . .

أولا : استدعوا عددا من الإنجليز لكى يعلموهم صناعة السكك الحديدية والتليفونات .

ثانيا : وعددا من الفرنسيين ليصنعوا لهم دستورا جديدا .

ثالثا : طلبوا من الألمان أن يعلموهم بناء المستشفيات وصناعة الدواء .

رابعا : من الأمريكان أن يقيموا لهم المدارس ويضعوا لهم البرامج التعليمية . .

خامسا : طلبوا من الإيطاليين أن يعلموهم الرسم والنحت والموسيقى .

وجاء هؤلاء الخبراء إلى اليابان وأقاموا سنة وسنة أخرى . . وعلموا مئات اليابانيين . وودعهم اليابانيون بانحناءة عميقة وامتنان عظيم . . ثم أقفلوا على أنفسهم المصانع والورش والمدارس . . وبدأت اليابان تغير حياتها وأسلوبها وموقعها على خريطة الدنيا . . ويكفى أن نعلم أن اليابان هى أول دولة استخدمت اللاسلكى فى الحرب سنة ١٩٠٤ ـ اللاسلكى الذى تعلمته من بريطانيا . . فقد رصدت اليابان حركات الأسطول الروسى الذى اتجه يضرب اليابان فى مياهها . . فرصدوا تحركات الأسطول الروسى والتقوا به حيث لم يكن يتوقع أحد . . وذلك بمتابعة الأسطول الروسى باللاسلكى . . أحرقوا ٢٧ سفينة روسية . وكان ذلك أعظم إعلان عن اليابان الجديدة . .

هذه هى كل أسرار النهضة اليابانية . . التنوير اليابانى . . لا أسرار ولا ألغاز . . وإنما هم أناس رأوا الغرب . ودرسوا وحللوا . وقرروا . وصمموا فكانت ثورتهم على أنفسهم فى كل شىء !

فهل هذا معقول ؟

نعم هذا هو المعقول فى الفكر اليابانى والثورة الجبارة الهادئة التى دفعت اليابان إلى الأمام فى كل المجالات . فى السلام وفى الحرب . . وفى الأرض

وفى الفضاء . . فغزوا كل الأسواق بلا منافس . . ولم ينافسها أحد إلا تغلبت عليه . .

أليس من الطبيعى أن يكرهها العالم ؟ !

فكيف يكون طبيعياً أن يحبها العالم . هذا ما يبحثه منذ العام الماضى ألوف علماء النفس والصناعة والزراعة والطب فى كل الجامعات اليابانية لعلهم يخرجون بوصفة جديدة للحب . . يمكن تطبيقها وتشريعها . . أى المطلوب هو أن يضعوا (حجاب المحبة والقبول) للشعب اليابانى عند العالم كله . فهل هذا ممكن ؟ اليابانيون يقولون إنه ممكن . ولابد أن نصدقهم . فالذى فعلوه فى كل المجالات يقنعنا بقدرتهم الفذة على صنع المعجزات . . وإذا كانوا قد صنعوا المعجزات التى أوغرت عليهم قلوب الدنيا ، فليس بعيدا أن يصنعوا ما يجعل القلوب تحبهم .

ممكن ؟ إنهم يؤكدون أن هذا ممكن !

كيف تكره حفيدك وأنت لا تعرفه ؟!

سألت توفيق الحكيم : ماهو الفرق بين إسماعيل ابنك وبينك ؟

فأجاب الحكيم : إسماعيل ابنى عاش فى زمن غير زمنى . . لا هو أحسن ولا أنا أسوأ . . نحن مختلفان . . عندما كانوا يسألون الواحد منا : ماهو الشىء أو الحيوان إذا عبر البحر فإنه لا يبتل . . وكان جيلى يجيب : إنه العجل فى بطن أمه . . ولكن جيل إسماعيل ابنى يقول : إنها الطائرة !

والإجابتان صحيحتان . . فلا راكب الطائرة ولا الطائرة يبتلان إذا عبرا المحيط . . وكذلك العجل فى بطن أمه لا يبتل إذا أمه خاضت إحدى الترع أو أحد المصارف . . ولا الحوت فى بطن أمه وهى تعبر به المحيطات . .

المعنى واحد . . ولكن الأسلوب مختلف . . والاختلاف جاء من تطور الصورة أمام الإنسان . .

وقد حدث أن عقد لنا طه حسين اجتماعاً فى مؤسسة فرانكلين عندما قرر طه حسين أن يصدر كتابا عن الأدب الأمريكى فكان من نصيبى أن أكتب الفصل الخاص بالمسرح الأمريكى . . وأن يوزع بقية الفصول على

أدباء ومفكرين آخرين . فقد قرر طه حسين أن يترجم مسرحيات شكسبير إلى اللغة العربية الحديثة . ووزع علينا المسرحيات . وكان من نصيبى مسرحية (روميو وجولييت) وكان من نصيب ابنه د . مؤنس طه حسين أن يترجم مسرحية (هاملت) . . ولم يجرؤ أحد أن يسأل طه حسين إن كانت لغة ابنه مؤنس تساعده على الترجمة إلى العربية . . وأدرك طه حسين أن أحداً يريد أن يسأله عن ذلك . وكان لابد أن يجيب . . فقال طه حسين : مؤنس ابنى لن تكون لغته مثل لغة خليل مطران ولا لغة أنيس منصور . ولكن حساسيته الشديدة للغة الفرنسية والمسرح وحركات الأدب العالمى فى فرنسا تؤهله لأن يساعد من يتصدى للترجمة الحديثة لهذا الأدب القديم . . وأنا أرى فى مؤنس مايراه الحكيم فى ولده إسماعيل . . إننا مختلفان متعايشان وأنا أقرب إلى الماضى فى لغتى ، وهو أقرب إلى الحاضر فى فكره . . فأنا أستطيع مالا يستطيع وهو يقدر على ما لا أقدر عليه . . ولكننا نعيش معا تحت سقف واحد وفى زمن واحد ونتعايش مختلفين لامتعارضين ونتقاسم كل شىء دون استخدام السيف أو السكين . .

بالضبط ما قاله طه حسين هو ما يحدث فى كل جيل . . أو بين جيل وجيل . .

هناك فجوة . . مسافة . . ولكنها ليست هوة نزاع ولا هاوية صراع . . ويحدث دائما أن ينسى الآباء أنهم كانوا صغاراً . . وينسى الصغار أنهم سوف يكونون كبارا يستنكرهم أبناؤهم . .

مثل موج البحر . . هذه الموجة تطغى وتكتسح الأمواج الصغيرة التى سبقتها إلى الشاطىء ، وفى نفس الوقت تطاردها موجة أكبر وهكذا إلى ما لانهاية . . وهذا هو الزمن . . هو التاريخ . . موجات بعد موجات . . تضرب الشاطىء ولا تزحزحه . . فلا الشاطىء تحرك ولا الموج سكن . .

وإن كان هناك خلاف بين الأجيال . . فلأن كل جيل يرى أنه على صواب . . وما دام هو على صواب ، فهو وحده . . أما الجيل الآخر فهو خاطىء . . الصغار يقولون إن الكبار خاطئون . . وإنهم لايفهمون . . والكبار يرون أن الصغار لم يدركوا ولم يفهموا بعد . .

وبدلا من أن يقول الصغار إن تجاربهم أقل ومعارفهم لا ترقى إلى مستوى اليقين العلمى ، فهم يفسرون ذلك بشىء آخر . . وهو أن الكبار يكرهون الصغار . . ويحقدون على شبابهم وعلى أن المستقبل لهم . . أما الكبار فقد راحت عليهم . . وهم حريصون على ذلك ولا يطيقون أن يروا الذين لهم مستقبل . . الذين هم قادمون . . بينما هم ذاهبون . .

ولذلك يصبح التفاهم صعبا بين جيلين . . أى جيلين . . أى أب وابن وأية أم وابنة . . فى كل بيت وفى كل زمن . . وقصة نوح عليه السلام وولده . . هى قصة الأجيال الأزلية الأبدية . . الخلاف بين نوح وبين ابنه . . الأب يطلب منه أن يركب السفينة معه . . لأن نوحا قد علم من الله لماذا صنع السفنية . . وإنها لنجاة نوح وأولاده . . ولأن الله يريد خلقا جديدا . . وإن نوحا هو (آدم الثانى) . . أى أبو البشرية الجديدة . . ولكن ابن نوح لا يعلم . . وإنما هو مخالف لوالده . . عنيد ولايصدق . . لأن الاب أى الجيل القديم يكره الجيل الجديد . . فسوء الظن والشك والغرور دفع الابن إلى أن يلقى بنفسه فى الماء وأن يسبح إلى جبل يحميه من الطوفان . . ولم يصدق والده عندما قال له إنه لا توجد جبال . . ولن يعصمه شىء من الغرق إلا سفينة نوح . . ولكن الابن فضل أن يموت غرقا باختياره على أن يعيش بفضل والده . . على أن يعيش ويمتن لوالده على ذلك . . فغرق ابن نوح . . ويغرق كل يوم ألوف الأبناء لأنهم لايريدون اعتمادا على آبائهم ، ولايريدون الامتنان لهم أيضا . .

حتى الـذين لا ينفصلون عـن آبائهـم ويعيشون على أموال آبـائهم وفى بيوت آبائهم يؤكدون لأنفسهم : إنه رغم اعتمادهم ماديا على آبائهم ، فإن لهم أفكارا مستقلة . . ولهم حرية رأى . .

أى أنه يجلس فى حجر والديه وفى نفس الوقت يقول : وإيـه يعنى ؟ فمن الـواجب على والدى أن يقدم لى الطعـام والشراب والمسكن . . وإلا مامعنى أن أتى بـى إلى هذه الدنيا . . هل يكون سببـا فى وجودى ثم يلقى بى فى الشارع . . إننى لم أطلب إلى أبى وأمى أن يأتيا بى إلى هذه الحياة . . ثم إنه ليس معنى ذلـك أن يشتريانى بفلوسهما . . وأن يحكما ويتحكما . . فأنا حر . . وفى نفس الوقت فـإننى على خـلاف مع أبى وأمى . . لسبب لا دخل لى فيه . . فالأم لاتريد أن تكـف عن (الأمومة) . . والأب لايريد أن ينهى دوره كأب . . ولذلك فهما يتدخلان فى حياتى . . ويوصيان مالا أحب ولا أطيق . . وأنا لا أحب ذلك .

ومعنى ذلـك أن الأبناء يـرون أن الاب والام مرغمان على أن يقـدما كـل شىء . . بشرط ألا يتـدخلا فى حيـاة الابن . . يعنى يقـدمان لـه الفلوس ويجب ألا يسألاه أين ينفـق هذه الأموال . . فهذا تدخل . وهـذا التدخل اعتـداء على الحريـة . . ومعنـاه أن الطعـام والشراب والمسكـن والفلـوس ليسـت إلا رشـوة يقـدمهـا الأب والام لكـى يتحكما فى الابـن . . ولكـى يسكت . .

والأب والأم يقولان : إن الأبنـاء يبتزونهما . . فالأبناء يستغلـون ضعف الأب والأم وحبهما للأولاد أسـوأ استغلال ويرون فى هـذا الحب ضعفا وإذا أراد الأب والأم أن يمارسا الحب والعطف وأن يقبل الأبنـاء ذلك ، فليدفعوا الثمن . .

كان الشاعر كامل الشناوى يقول :

اشترى الحب بالعذاب

اشتريه فمن يبيع ؟!

فالآباء والامهات على استعداد دائم أن يشتروا الحب بالعذاب وبالطعام والشراب والمسكن والاستسلام لعناد الأبناء . .

ثم يستغل الأبناء الخلاف بين الأب والأم . .

والمثل يقول : إن الأم تعشش والأب يطفش . .

أى أن الأم تحتضن الأطفال مهما فعلوا لكى يبقوا فى البيت أو فى حضانة الأم . . أما الأب فلا صبر له وليس ضعيفا كالأم . . إنه قوى باطش . . ولذلك فالأبناء يهربون منه . . والأم هى التى تجمعهم . .

ولكن هذا الرأى ليس صحيحا . ربما كان الأب منطقيا ويريد أن يربى أولاده بشدة وصلابة . . ولكن الأم لأنها رقيقة القلب ، ولأنها لا تقوى على غياب الأبناء أو على مجرد زعلهم ، فإن الذى يرفضه الآباء علنا ، تنفذه الأمهات سرا . . فالأب إذا أعطى قرشا علنا ، فإن الأم تعطى قرشين سرا . . وهكذا تبدو الأم أرحم ، بينما يبدو الأب أعنف . .

ويختلف الأب والأم على تربية الأولاد . . وعلى المبادئ التى يجب التمسك بها . .

وتوفيق الحكيم له حكاية . . فقد طلب منه ابنه إسماعيل أن يشترى له جيتارا بدلا من الذى تحطم . . وكان ثمن الجيتار فى ذلك الوقت خمسة آلاف جنيه . . دفعها توفيق الحكيم . وكانت له شروط وهو أن يدفعها إسماعيل على شهور ، كل شهر مائتى جنيه . . واشترط الحكيم أن يأخذ على ابنه كمبيالات . . إذا دفع المبلغ أعطاه الكمبيالة . وكان يجلس فى مقعد عند أول كل شهر أمام غرفة إسماعيل . . ولا يذهب الحكيم إلى مكتبه ، إلا إذا دفع إسماعيل المبلغ وتسلم الكمبيالة . كل شهر . وفى يوم

سألت الحكيم فقال : إن إسماعيل يدفع بانتظام . ولابد أن يفعل ذلك . . أن يعتمد على نفسه . . ويأخذ ويعطى . ولم يحدث أن تهرب من ذلك .

وكان الحكيم سعيدا بهذا الانضباط والحق والواجب . وكان يروى ذلك على أن هذه هى التربية وإلا فلا . .

وسألت إسماعيل فقال ضاحكا : إن والدى ينتظرنى حتى أدفع . . ولكن لو نظر والدى إلى الفلوس التى أعيدها إليه بشىء من العناية لوجد أن هذه الفلوس هى هى لم تتغير من شهور . . فأنا أعطى الفلوس لأبى . وهو يعطيها لأمى ، وأمى تضعها فى جيبى . . إنه نفس المبلغ . . هاها . . هاها . . ومات إسماعيل يرحمه الله . . وفى جنازته سألت توفيق الحكيم : كيف حالك ؟

ـ حالى . . إننى كواحد أصيب بعاهة لا علاج لها ، وسوف أعيش بها !!

ولكن توفيق الحكيم أراد أن يرسى قواعد الواجب والحق . . الابن له حقوق وعليه واجبات . . ولكن المسافة بين ضعف الأم وقوة الأب ينفذ منها الأبناء ويوسعونها حتى تكون فجوة . . وجفوة . . وقد يؤدى كل ذلك إلى طلاق . . إلى انهيار الأسرة فوق رؤوس الأبناء . . وتتفرق بهم الطرق إلى الحاضر والمستقبل . .

وإذا كانت الأم لا تعمل فهى وحدها التى تنفرد بالأولاد وتأمر وتنهى : فهى المدرس والطبيب ورجل الدين . . وهؤلاء الثلاثة ليست لهم شعبية عند الأطفال صغارا وكبارا . . وهؤلاء الثلاثة تقوم الأم بوظيفتهم ليلا ونهارا . وهكذا تصبح الأم مكروهة . . بعبعا عند معظم الأطفال . .

اما الأب الذى يعمل فهو يجىء إلى البيت بعد العمل . وكلها ساعة أو ساعتان يـأكل فيهما ويشرب ويتحدث إلى أولاده خفيفا لطيفـا . . لا يأمر ولا ينهى ولا يعـاقب . . فيحب الأبنـاء الأب ولا يحبون الأم . . لأن الأب ليس عنـده وقت . . والأم لا تتوقف عـن النصائح والتحذير والـوعيد . . فهم يرون فى الأم كل السلطات التى تمسك العصا . . بينما الأب هو رسول السلام والرحمة يعطى ولا يعاقب ولا يهدد ولا يحذر ولا ينذر . .

حتى جـاء دور المرأة فعملت . . فأصبحـت هى والأب بعيديـن عن الأولاد . . لا وقـت عنـد احـدهما لـلأبنـاء . . مـع زيـادة فى إرهـاق الأم العـاملة . . فهـى تعمـل كرجـل خارج البيـت . فـإذا جاءت إلى البيـت استـأنفت كـل العمل : تطبـخ وتغسل وتكنـس وتـربى وتعلـم وتعالـج وتنصـح . . بينما الأب يتمدد فى فراشه . . وإلى جواره وحوله الأبناء الذين لا يساهمون فى أى عمل . . تماماكالأب . .

وعندمـا دخلت المرأة دنيا العمـل إلى جوار الـرجل أصبح الأبنـاء أبناء شوارع أو سـلالم . . أو أبناء الخدم . . أو أبنـاء الحتة . . فـلا وقت عنـد الأب ولا وقت عنـد الأم . . ولن تعـود المرأة إلى البيت . . ولـذلك سـوف يبقى الابن بلا رعاية ولا حماية ولا وقاية . . إنه يعيش على هامش حب الأم ورعاية الأب . . وكل الأطفال كذلك . .

قال لى طفل فى إحدى دور الحضانة : إن الأطفال معى فى الفصل كل أمهاتهم مطلقات . . وكل واحد يقول لى : إنه لا يرى أباه إلا نادرا ؟ !

وأصبح مـألوفا جدا أن تعيـش الأم مع أطفالها أو بعض أطفـالها وبقية الأطفال مع الأب . .

ورأينا شيئا جديدا الآن وهو أن الأم لا تريد جميع أطفالها وتتركهم للأب عقابا له . . وفى نفس الوقت لأن الأم قررت أن تتزوج رجلا آخر ولا معنى لأن تعاقب الرجل الثانى بأولاد الرجل الأول . . وهى دوخة للأب الذى لا يفهم فى التربية . . والعقوبة لا تصيب الأب وحده ، وإنما الأولاد . .

ولم يعد قلب الأم يتفتت على غياب أولادها . . ولم يعد قلب الأب حديدا ، وإنما هو قلب يتمزق ويذوب دما على أولاده الذين هجرتهم الأم من أجل رجل آخر وأولاد آخرين . .

والضحية : الأطفال . . الذين سوف يكونون آباء جددا . . والذين سوف يحلمون بحياة عائلية أفضل . . ولذلك يتعجلون الزواج . ثم يجدون أنفسهم غير قادرين على الحياة الزوجية والأبوة . . وهى مشكلة جديدة تصيب الأطفال بسبب عذاب آبائهم عندما كانوا أطفالا . . فالأجيال تصب عذابها على نفسها . . جيلا بعد جيل بعد جيل !

فأنت لا تكره ابنك . . وابنك لا يكره ابنه . .

وأنت لا تكره حفيدك الذى لا تعرفه . .

وإنما هى أجيال تضغط على بعضها البعض . . وكل جيل له ظروفه الضاغطة والقاهرة أيضا . .

وكما يحدث فى سباق التتابع . . أن تعطى الشعلة للذى بعدك . . والذى بعدك يعطيها للذى بعده . . فإذا تعثرت أنت فى البداية ، وأدى ذلك إلى أن تأخر ابنك ، وفشل حفيدك . فأنت لا تقصد ذلك . . وإذا قال حفيدك إنك إنسان فاشل وأنت الذى فرضت عليه العذاب والهوان . فهو معذور إذا قال . . ولكنه ليس محقاً . وهو ليس على استعداد لأن يجد لك عذرا . . إنه يرى الذى بين يديه . . والذى بين يديه . . إنه لم

يصل . . بينما وصل الآخرون . . ولذلك فهو غاضب على حظه الأسود . . وأنت الأسود فى هذا الحظ . .

ولكن الأجيـال يجب أن تعرف العدل . وإذا عـرفت العـدل أن تعرف الرحمة . وإذا عرفت الرحمة ، عرفت الامتنان . . امتنان جيل إلى جيل . . وهذا مالا يحدث عادة . ومن هنا كانت كلمة الكراهية هى أكثر الكلمات شعبية . . والكراهية تولـد الحقد . . والحقدأبو الحرب والحرب أم الخراب والـدمار فى هـذه الـدنيا . . والحرب أم لحروب أخـرى وبـأشكال أخـرى وبأسلحة أخرى !

لاهم مجانين دائمًا
ولا نحن عقلاء أبدًا !

الإنسان يحاول دائما أن يتوافق مع الدنيا حوله . . مع الكون . . مع نفسه وغيره من الناس . . بين القديم والجديد . . بين الأمل واليأس . . الصحة والمرض . .

يحاول الإنسان أن يواجه العواطف والزلازل والمحيطات ويحاول أن يتوافق وأن يتغلب . . وأن يسيطر

أن يسيطر على البيئة وعلى الكواكب الأخرى . . وقد هبط الإنسان إلى القمر وهبطت الأقمار الصناعية على كل كواكب المجموعة الشمسية . . وأطلق سفناً إلى ما وراء المجموعة الشمسية . هذه السفن تحمل رسائل إلى كائنات أخرى عاقلة سوف تبلغها بعد ألوف السنين لعل أحدا أن يدرى بنا وأن يحدثنا وأن يساعدنا على معرفة الكون وحل مشاكلنا . . أى أننا نريد أن نستفيد من تجاربه هو . .

وعلى الرغم من أن الإنسان هو الذى اخترع العقول الألكترونية ونقل إليها كل المعلومات والعمليات الحسابية المعقدة ، فإن العقل الإنسانى

يعتمد تماما على هذه العقول . . فهو أسير لها مربوط بها . . مع أنه هو الذى أبدعها . . ولا يوجد مكان ليس به عقل ألكترونى . . ولا سفينة ولا مكوك ليس به عشرات العقول الألكترونية . . وكل هذه العقول تعتمد على مئات العقول التى يتابعها وتوجهها من سطح الأرض . .

وهذه الحيرة التى تصيب الإنسان سببها الصعوبات الجديدة فى مواجهة الدنيا . . والمجتمع والكون . . وهذا القلق وهذا الخوف من الموت النووى . . قد أصابا الناس جميعا . .

والشبان أكثر الناس إحساسا بالحاضر وقلقا على المستقبل . . كل الشباب فى كل الدنيا . . والعالم لأنه أصبح قريبا بعضه من بعض . . فالذى يحدث فى أمريكا يخيف الذين فى الصين والذين فى الصين يزلزلون الذين فى أوروبا . . وأوروبا تزعزع الشرق .

وقد عايشت الشباب طوال عمرى . .

فعندما كنت مدرسا فى الجامعة كان الطلبة فى مثل سنى . . وبعضهم كان أكبر . . بل تصادف أن كان من تلامذتى واحد من أقاربى هو الذى علمنى حروف الهجاء وأنا طفل . .

وعندما اشتغلت بالصحافة كنت شابا . . وعندما رأست تحرير مجلة (الجيل) كان المحررون صغارا فى مثل سنى . . فكانوا مادتى العلمية . فمنهم وعنهم أكتب وإليهم أيضا . .

وكنت دائما وسط الشباب . . وما زلت . . فهم مداد قلمى وألوان فرشاتى . . وهم رؤيتى الفلسفية وهم عناصرى السياسية وجذورى الأدبية . . وعندما كنت رئيسا لتحرير (آخر ساعة) سنة ١٩٧٠ كان من بين المحررين تلامذتى فى الجامعة . . وكانوا شبابا أيضا . . وعندما أنشات مجلة (أكتوبر) كان أكثر المحررين شبابا لم يعملوا بالصحافة من

قبل . . فكانوا زهورا يانعة لامعة شبابا يريد ويحاول ويصر على أن يصل وأن ينجح . . ونجحت مجلة (أكتوبر) بحيوية شبابها وطموحهم وأحلامهم وعنادهم . .

وأصدرت عددا كبيرا من الكتب عن الشباب وإليه . .

ولحسن حظ مصر فإن أكثر من نصف أبنائها من الشباب الكبار والصغار . . تصور أن بلدنا بها ثلاثون مليونا من الشباب . . أعظم ثروة بشرية . . أروع قوة دافعة . .

والشباب من أهم صفاته : النزاهة والطموح . . فهو على خلق . . ويريد أن ينجح . . وأن تنجح به بلاده . . وليس شباب مصر وحدها الذى يريد أن يفعل شيئا وأن يحقق الكثير وأن يلحق بالدول الأخرى . . وإنما هذه هى أحلام الشباب فى كل الدنيا . . ولأنه شباب فهو يتعجل . ولأنه يتعجل فهو يغلط . . ولأنه يغلط فإنه يقع تحت ظلم الكبار . . فهم يرون أنه مادام قد أخطأ فى الحساب ، فهو لا يعرف الصواب . . فالخطأ احتكار للشباب ، والصواب احتكار للكبار . وهذا ظلم . فالذى يعمل لابد أن يخطئ وأن يصيب . وأن يتعلم من خطئه . والتاريخ الإنسانى كله أخطاء الشعوب وهى تحاول أن تكون ثابتة الخطوات . . وإذا لم يقع الطفل وهو يحاول أن ينتقل من مرحلة الزحف على أربع إلى السير على ساقين . فلن يتعلم المشى والجرى والرقص . لن تقوى عضلاته لن ينضج جهازه العصبى . . لن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة . . من الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة . وهذا حال الأطفال والرجال فى كل الدنيا . .

سواء كانوا يعيشون فى مجتمع زراعى أو صناعى . . أو مجتمع زراعى يتحول إلى مجتمع صناعى . . فالطفل ينمو وفقا لبرنامج فى داخله ويتحرك وفقا لبرنامج فى خارجه . . ينمو من الداخل لكى يواجه النمو فى الخارج . . ويتوافق أو يتفوق عليه . . وهذا هو التاريخ الإنسانى كله . .

فمـن أجل أى شـىء يعيـش الإنسـان، الإنسان الشبـاب والإنسـان الرجل؟

إن هناك أهدافا كثيرة تختلف من شخـص إلى شخص . . وفقا لثقافته وتقاليد بلاده وقدرته وسيطرة دولته عليه . .

ولكـن من الممكـن أن تقول إن هنـاك ثلاثـة عوامـل تتحكم فى حيـاة الإنسان . . أى إنسان هى :

الحب والفهم والإبداع . .

ومن أجـل هذه الأهـداف أو بسببها يعمـل الإنسان مـن مولـده حتى مماته . . بهذا الترتيـب أو أى ترتيب آخر . . ولكنها لاتنفصـل بعضها عن بعض . .

فكـل شىء لـه قيمـة يستحق مـن الإنسـان أن يعيـش من أجلـه وأن يضحى فى سبيلـه . وتاريـخ الإنسان طـريق وهـدف وتضحية مـن أجل الذى يحب كثيرا أو مـن أجل الذى يقـدس . . وتكون التضحية بـأغلى ما عند الإنسان ، أو بحياة الإنسان نفسه . .

والحب هـو الذى يجعـل لحيـاة الإنسان قيمـة . حتـى حبه للحيـوان والنبات .

والحب يأتى بالحب أيضا . .

فـأنـت تحب فتـاة وحبـك لها يجعلهـا هـى أيضـا تحبـك . . فـالحب استثمار . . أنت تستثمره عندها ويكون لهذا الحب مردود . . حب آخر . . أو حب أكثر . أو عـلاقة قوية تـربط بينكما . وقد يؤدى حبـك للفتاة أو حبها لـك . أن تتولد عـداوة لك . . أو حقـد عليك . . وهذا هـو الذى يجعلك تتمسك وتصر وتضحى . .

والحب هـو القوة الـوحيـدة التى تتغلـب على أنـانية الإنسـان . . أى تتغلب على انشغالك بنفسك والعمل مـن أجل كل ما يجعلك أكبر وأغنى وأقوى . . لأن الأنـانى هو الذى امتـلأ بنفسه حتى لم يعد فى نفسـه مكان لشىء آخر . أو لإنسان آخر . . ولكن الحب هو القوة الوحيدة التى تفتح قلبك أكثر ، وعقلك أوسع ، وتفسح مكـانا فى قلبك لإنسان آخر ، وفى عقلـك لهمـوم أخـرى وفى حيـاتك مكـانـا لإنسـان آخـر . . وتنظـر إلى مستقبلك بأربع عيون .

إن الحب قد حطم أنانيتك . . وهزم غـرورك وانغلاقك على طموحك وعدائك للآخرين . .

والحب : رغبة . .

وهناك نوعان من الرغبات : رغبة أن تعطى للآخرين .

ورغبة أن تأخد من الآخرين . .

أمـا أن تعطى لـلآخريـن ، أو تبذل مـن أجلهم فهـى أن تشعر أنـك أسمى . . أنبل . . وأن العطـاء واجب . وأن تعطى بلا مقـابل . . لأنك لواحد من الناس . . أو لكل النـاس . هذا هو الحب الحقيقى لأنه يجردك من أن تكون أنت وحدك مركز الدنيا . .

الحب الحقيقى هو الذى يدفعك إلى معانقة الآخرين والانشغال بهم . وأن تجد فى ذلك سعادة غامرة . .

وأن تضحى أيضا من أجل الآخرين . .

وهذه الصفة الكبرى عند الأنبياء والمصلحين . . وأساس التضحية هو الارتباط بالآخرين لصالح الآخرين مهما كان العذاب بهم والشقاءمعهم . .

فالحب هكذا علاقة شاملة . . حـب الناس جميعا . . حب الدنيا . . حب كل ما خلق الله . . حب الكون . . حب الله . .

أما الرغبة الأخرى فهى أن يكـون كل شىء من أجلى أنا . . وفى سبيلى أنا . . وفى مصلحتى وفى خـدمتى . . فأنا أحـب نفسى . وأرى أن حب النفـس هو أهـم ألـوان الحب . . وأن كـل شىء يجب أن يكـون مسخـرا لمتعتـى . . وراحتـى . . وأن الناس جميعـا أدوات . . أدواتـى . . كـأنهم أصابعى . . كأنهم أسنانى . . أتناول بهم الأشياء . .

فهذا الحب يجعل من الإنسان أداة للإنسان . .

وهو أدنـى درجات الحب . . بـل إنه أقـرب إلى الكراهيـة . . كراهيـة الناس إلا إذا كانوا فى خدمتى . . فى مصلحتى . . إلا إذا كانوا متعتى .

وهذه الرغبة تجعل كل شىء طعاما وشرابا أتناوله . . فإذا أحب الواحد منا فتـاة هذه الفتاة ، (شـىء) . . أداة . . وسيلة وليسـت بشرا مثله . . وإنما هى (شىء) يجب أن يكون جميلا . . ومهما كـان تقديره لجمالها ، فإنه يقدرها كشىء جميل . . تمثال . . لوحة ولكن ليست بشرا !

وهناك حـب جنسى بين الحبيبين . وهذا طبيعـى . ولكن هناك فـارقا كبيرا جدا بين أن يكون جنسا فقط . . وأن يكون حبا يكمله الجنس . . أو حب الجنس لأنه حب للشخص الآخر . .

وهناك حب بـلا جنس أيضا . . كحب جمال الطبيعـة والأعمال الفنية من شعر وموسيقى . . وحب لجمال الكون . .

ولكن الحب المتبـادل بين رجل وامـرأة يلهم الإنسـان القوة والشجـاعة والتضحية والتقدم والبناء والإبداع . .

بل إن الإنسان من الممكن أن يعمل ويعيش ويموت من أجل أناس لا وجود لهم . . كالذى يعمل من أجل أن يكون أطفال المستقبل سعداء . . إنه يكد ويـدرس ويتعب من أجل أناس لا وجود لهم ولايعـرفهم . ولكنه يعمل ويجىء عمله كأنه يراهم . .

وهـذا النوع مـن الحب هو : فـائض الحب . . أى أنه حـب كثير . . أكثر من احتياجه . . فهو أحب ثم فاض الحب من أعماقه فشمل الآخرين الذين لانهاية لعددهم . .

ومن الممكن أن يحب الإنسان شخصا ليس موجودا . . كأن يحب أحد العلماء القـدامى . . و الشعـراء . . أو رجال الـديـن . . أو الخلفـاء أو القديسين . . فقد رأينا عددا كبيرا من الباحثين يفنون أعمارهم بحثا ودراسة لشخصيـات ماتـت منـذ مئات السنين . . لقـد أضـاع هـؤلاء البـاحثـون أعمارهم وأفنـوها حبا لأناس لا وجـود لهم . . ووجد هؤلاء البـاحثون أنهم حققوا دواتهم بهذا الحب . وأن حبهم قـد تحقق بالبحث عـن حياة وأفكار أناس عشقوهم ، كأنهم ما يزالون أحياء . .

فما أكثر القصائد واللوحات الفنية التى بقيت لنا بسبب أن رجالا أحبوا ومـاتت المحبـوبة . . إنها مـاتـت لكل النـاس ، ولكنها لم تمت للمحـب العاشق فكتبوا وبكوا ونظموا ورسموا دمـوعا بالألوان والنغمات . . وماتت المحبوبة ، وعاش حب العاشق الفنان . .

الشاعـر العظيم الإيطـالى دانتى أحب اثنتين : الفتـاة بياتـرينشه . . وأحب مـدينة فلـورنسة التى طـردوه منها . . ومن أجـل بياتـرينشه ؟ وفى سبيلها كتب الشاعر (الكوميديا المقدسة) وجعل الفتاة بياترينشه هى التى تقوده من النار إلى الجنة . .

وعندمـا كان يبعث بخطـاباته إلى أصـدقائه كان يـوقع خطابـاته بهذه العبارة : دانتى ابن مدينة فلورنسة . .

وما الـذى قاله قيـس ليلى فى ليلى وكذلـك جميل وبثينه والشـاعر كثير وعزة . . وما قاله الشاعر الألمانى نوفلتس فى محبوبته صوفيا . .

وما قاله الشاعر الألمانى ريلكه ومحبوبته نعمت علوى . .

وما قاله الفيلسوف الدانمركى كيه كحور فى محبوبته رجينا .

وما قـاله الفيلسوف الألمانـى نيتشه وعالم النفس فـرويد والشاعـر رلكه عندما أحب الثلاثة واحدة هى سالومى .

وماذا قال العقاد فى ساره . .

ومصطفى صادق الرافعى فى مى . .

ومحمود حسن إسماعيل فى نانا . .

إنهم الأنبيـاء والقديسـون هـم الذيـن يحبون النـاس ويعتـزلون الحيـاة ويتأملون ويتعـذبون من أجل الجميـع . . كذلك فعل بـوذا وفعل المسيح عليه السلام . .

ومن أروع الصـور الإنسانية للحـب الشامل لكـل ما خلق اللـه حب القديـس الإيطالى فـرانشيسكو ابـن مدينـة اسيزى . . إنـه أحب الحيـوان ورسمـه على جدران الكنيسـة . . ودخلت الطيـور والحيـوانات الكنيسـة أيضا . . لأنها مخلوقـات الله . . وأحب الشمس والقمـر والهواء والماء لأنه يشعر بـأخوة نحـوها . . ومعهـا . . يشعر بـأنه عضـو فى أسرة لانهائية . والقديس فرانشيسكو من أعظم وأروع مخلوقات الله .

والفيلسـوف الصوفى محى الـدين بـن عربـى يتحدث عـن (وحــدة الوجود) . . إن الوجود واحد . . إن اللـه فى كل شىء . . وإن كل شىء هو مظهر من مظاهر الله . . فالكون بكل ما فيه هو صورة الله وقد رايناها ولمسناها . .

ولكن فلسفة ابـن عربى لاتجعل للإنسان دوراً عظيما هـاما . وإنما هو كالأحجار والأنهار والأزهـار لافرق . . فكلها تفيض مـن الله لتكون بهذه الأشكال والألـوان . . ولكن القديس فـرانشيسكو ، يرى أن الإنسـان هو كل شىء . . وأنه بحسه وذوبانه فى كـل شىء . . قد أصبح الإنسان هو

كل الكون . . فـالكون عيناه ويداه وقلبـه وعقله . . فالإنسان عـن طريق الحب قد اتسع قلبه لكل الكون . . فهـو الذى يحب وهو الذى يذوب . . وهو الذى باختياره لايكون شيئا لأنه قد ذاب فى المحبوب . . والكون كله هو المحبوب . .

ومن الممكـن أن أنشغل كثيرا جـدا بهذا القديـس . . كأن عمـرى من عمره . . مع أنه مات من ٧٥٠ عاماً . . فهذا الحب منزه عن الغرض . . وهو فائض حبى . . أى مـا فاض من حبى عن احتياجـى . . بل إن هذا الحب من الممكن أن يطغى على كل حب فى حياتى . . فتصبح الحياة كلها من أجـل شخص لا وجود لـه . . ولكنى أنـا الذى أحببته فى حيـاتى . . فكان حياتى !

ومن أمنياتى ـ فليساعدنى الله عليها ـ أن أؤلف كتابا عن الرسول عليه الصلاة والسـلام . . ولكنى فى حـالة مـن الخوف والفزع . . فـالشخص عظيم جدا . والإحاطة به صعبة جدا . . وما أكثر الذين كتبوا وأبدعوا . . فما الذى من الممكن أن أضيفه . . أو أهتدى إليه ولم يقله أحد من قبل . . ولكنى مصمم . والرغبة قوية جدا . وأنا أحاول أن أوضح ما أحسست به وما فهمتـه . . ولن يكون أحسـن من كل مـاكتبه الآخرون . ولكنـه سوف يكون أحسن ما كتبت وأعمق ما درسـت وأصدق ما عايشت ، وأحب من عرفت . . فقد هزتنى حياته . . وهـزتنى صفاته . . والله يعلم كم أرتعد وأرتجف عندما أقترب من مسجده ومـن قبره . . ومن مجرد الحديث عنه . . وتخيلى جـالسا أحيـط به أو أحـاول . . أن ألمس شخصـه الكريـم ، وأن أحاول . .

وقد سألت الاستاذ العقاد مرة هل حدث له ذلك ؟

فكان جـوابه : إننى جـربت قدرتـى العقلية فألفـت كتابا عـن الله . وعرفت قـدراتى الفلسفية . . وبعد ذلـك كان من السهل أن أؤلـف كتابا

عن (عبقرية محمد) أى عبقريته كـإنسان . . وعن غيره من العباقرة وعن (عبقرية المسيح) الإنسان أيضا .

فقلت لـه ولم يكن قـد خطر على بالى أن أؤلـف كتابـا عن محمـد عليه الصلاة والسلام فقد كنت مشغولا بنفسى وبـالفلسفة الوجودية التى كنت أدعو إليها : إذن لابد أن يؤلف الإنســان عن الله أولا . . وبعد ذلك عن الرسول . . وهل ترى أن الكتابة عن الله أسهل من الكتابة عن الرسول .

فأجاب العقاد بسرعة : نعم . فأنت عندما تكتب عن الله تكتب عن الخلـق والخلود وأمـامك الكـون من أولـه لآخره . . فـأنت تـرسم شكـلا هندسيا . . ولكن عندما تكتب عن الرسول فأنت تصنع تمثالا لإنسان . . ولكنه إنسان رفيع المستوى . . فالجوانب التى ستتحدث عنها فى شخصية الرسول متعددة . . والذى قاله والذى قيل عنه كثير جدا . . فأنت ترسم الهرم بقلم رصاص ويكون رفيعا جدا . . ولكن لا تستطيع أن تصنع تمثالا للملك خوفوبقلم رصاص . .

فقلت : لم أفهم يا أستاذ .

فأجاب : إن الكون فكر هندسى . . تحكمه قوانين صارمة والله وراء كل ذلك اليـوم والأمس وغدا . . ولكن عنـدما تتحدث عن الـرسول . . فأنت أمام شخص كان طفلا وكان شابا وكان رجلا . . زوجا وأبا ورسولا وقائدا ومشرعا وكـان هدفا لأعدائه . . وهـاجر من بلده إلى بلـد آخر . . وعاد وكل ما فعله وما قاله هو تشريع للآخرين . . ففى حياته وبعد حياته الكثير جدا من الفوارق اللونية الهادئة والصارمة . . وكل ذلك مادة لا أول لها ولا آخـر . . وهى دراسـة صعبة . ولكـن تستـأهل مـا تبذلـه فيها من جهد . .

ولم أستـوعب بعـض الذى قـالـه العقاد ، ولكـن بعد ذلـك بعشرات السنين بدات أستوعـب وأفكر وأقلق وأخاف وأرهـب وأتهيب . . وأتهرب أيضا . .

ونحن فى الشرق أكثر إحساسا بالحب الصافى أو فائض الحب بين الناس من إحساس الغرب بذلك . . ففى الشرق شعوب لا تقتل الحيوان . . أى حيوان حتى لو كان ضارا ففى الهند لايقتلون الأفاعى ولا الفئران ولا النمل . . بل إن بعض الديانات الهندية تدعو إلى وضع السكر للنمل فى أركان البيت . . بل إنهم يضعون الكمامات على أنوفهم وأفواههم حتى لا يؤدى التنفس إلى قتل الميكروبات . .

ولأن حب الاستطلاع عند الإنسان غريزة وهذا هو الهدف الثانى . . فهو يريد أن يعرف . وأن يفهم وأن يحلل وأن ينظر ـ أى يضع نظرية لما لاحظ وفكر . .

فالعلم هو أداة فى يد الإنسان يغير به ما حوله ويطوره . .

فالعلم قال لنا إن الشمس هى مصدر النور والنار . . ولذلك يجب أن يتقيها الإنسان بالهروب إلى الكهف . . ثم بناء البيت . . ثم بصناعة التهوية . . وعندما تغيب الشمس يكون ظلام ، فاخترع الإنسان المصباح المضىء لكى يصبح النهار أطول . .

ولما كانت الأرض واسعة ووعرة والمسافات بعيدة اخترع الإنسان وسائل المواصلات برا وبحرا وجوا . . والاتصالات السلكية واللاسلكية . .

وبدلا من أن يعيش الإنسان على الحيوانات والنباتات . . عاش على بعض الحيوانات وبعض النباتات وراح يصنع الطعام أشكالا وألوانا . .

فهذا هو الإبداع وهو الهدف الثالث . . أى أنه من أشياء موجودة صنع لنفسه أشياء لم تكن موجوده . . أى من المواد الموجودة حوله صنع أشكالا وأحجاما وألوانا من أدوات الحياة . . أما المادة كلها فموجودة . وأما الشكل فهو الذى لم يكن موجودا . . ومن أجل أن تكون هناك طائرة ،

كـان لابد أن يبـدع مـالانهاية لـه مـن المعادن والـزجـاج والجلد والخشـب والأسلاك والعقول الألكترونية .

والعقل هـو سيد حياة الإنسان . . ولابـد أن يكون العقل يقظـا لتكون عندنا قدرة على الاختيار . . اختيار النافع وترك الضار . . اختيار الجميل وترك القبيح . . اختيار السهل وترك الوعر . .

ومهما كان العقل مسيطـرا ، فليست كل سلوكيات الإنسـان عاقلة أو واعية . . فهناك الغرائز . . هناك الـلاشعور الذى يدفعنا دون تفكير . . هذا اللاشعور هو الذى يجعلنا أقرب إلى الحيوان . .

والإنسـان فى حـالـة صراع دائم بين شعـوره ولاشعـوره . . بين عقلـه وغرائزه . . بين المنطق والأهواء .

والأكبر سنا وثقافة وتجربة أكثر قدرة على التحكم فى غرائزهم . .

فالحضارة الإنسانية هى عبارة عن وضع (فرامل) على كل هذه القوى اللاشعوريـة . . فالطفل الصغير يضع كل شىء فى فمـه . . ونحن نتركه أول الأمر . . وبعـد ذلك نحـذره ونعلمه خوفـا عليه . . فهـو لايعرف إلا الطعام . . وإلا الرضاعة . . وإلا البكـاء وإلا التبول لاشعوريا . . ونظل نضع له الضـوابط على سلوكياتـه . . حتى ينتقل من المرحلـة الحيوانية إلى المرحلـة الإنسـانيـة . . والإنسـان هـو صـاحـب أطـول طفـولـة بين كـل الحيوانات . . وفى عـالم الحيوان نجد الصغير لايكاد يولـد حتى يقف على أرجله . . ويبدأ فى الجرى . . وفى الرضاعة . . بينما الإنسان يعتمد طويلا وكثيرا على والديه . .

ولايـزال الشباب أكثر إحسـاسا وحسـاسيـة بكـل هذه الفـوارق . . والمتناقضات فى حياتنا . . وأكثر تعرضا للصراع . . وأكثر استجابة لها . .

ولـذلـك كانـت ردود الفعـل سريعـة . . والقبول والـرفـض سريعين . . والوقوف مع أو ضد أى شىء أو أى أو نظرية سريعاً . .

ولذلك كانت الفوارق بين الأجيال أكثر حدة وشدة . .

وهـذا يقربنـا مـن أن نقترب وأن نفهم وأن نتفـاهـم وأن نحاور ونعلـم ونستمع فى نفـس الوقت . . وألا نعرف الملـل ، فمستقبل بلادنا وأبنـائها يستأهل الكثير من الصبر والعناء والتضحية والتسديد والتصويب وتعديل المسار . .

شىء واحـد يهون علينا كـل شىء : الحب . . حـب الحياة . . حـب السـلام بين الأجيال . . حـب الرخـاء والرفـاهية لـلأجيال القـادمة التـى لانعرفهـا ولم نرها . . ولكـن هذا هـو الهدف الأسمى من أجـل الانسجام الاجتماعى والتوافق النفسـى والأبهة الطبقية . . وكلها شروط الانطلاق إلى المستقبل . .

وليس بين شبـابنا عمـوماً مـا يجعلنا نشعـر لحظة واحـدة ، أنهم شواذ أخلاقيـا وعقليا . . فكل مـا عندنا مـوجود فى كل المجتمعـات الأخرى فى العالم الأول والثانى والثالث . . والرابع إن كان موجودا . .

فلا الشبان مرضى دائما .

ولانحن العقلاء أبدا . .

وإنما نحن الكبـار كنا شبـابا ونسينـا ، وهؤلاء الشبـان سوف يكـونون شيوخا وسخرية لشباب آخر ، . . وهـم ينسون أيضا !

أطول مسافة التى بينى وبينك !
فى الحيرة والقلق والخوف يولد الإنسان !

وفى داخله رغبة قوية فى أن يعرف لماذا هذا الذى حدث ؟ لماذا هو على الأرض ؟ لماذا هو لايعرف هذا الكون ؟ وكيف يعرفه . . إن أحدا لم يسأله إن كان يحب أن يعيش على هذه الأرض . .

إنه وقع . . سقط . . ألقى به من مكان إلى هذه الأرض . .

كأنه ألقى بمظلة واقية دون أن تكون لديه خريطة ليعرف أين هو . . وكيف الخروج والدخول والحياة . .

ومعنى ذلك أنه سجن فى هذا الكون .. وأنه محاط بما لايفهم وما لايقدر على زحزحته . . فلا كان قادرا على أن يسبح كالسمك فى الماء . وأن ينطلق كالصقور فى الهواء .. إنه على الأرض مشدود لها . .

إن خمسة آلاف سنة قد مرت فى حياة الإنسان لم يتطور تطورا كبيرا . . فلم يستطع الإنسان أن يجعل الحياة أسهل والحركة أقل . . تكلفة للطاقة . . ولكنه فى عشرات السنين الماضية استطاع أن يحقق المعجزات فى كل المجالات .. فى المواصلات بين القارات وبين الكواكب وأن يحقق المعجزات فى الطب . . وفى الجراحة . . واستطاع أن يحقق المعجزات فى

المعلومات وكيف ننقلها بالأقمار الصناعية وبالعقول الألكترونية . . وكيف أصبح العالم كله جزيرة صغيرة . . أو سفينة فضاء . . أو سفينة نوح الفضائية . . أو أصبح العالم كله طبقاً طائرا . . فكل شىء أصبح قريبا فى متناول كل الناس . .

تتفرج على مباريات كرة القدم فى البرازيل وترى أعشاب الملعب واحدة واحدة والشعر فى سيقان اللاعبين . . والدموع فى عيونهم . .

وأحس الإنسان بشىء كثير من الغرور . . فالعلم أعطانا شيئين : القوة والوفرة . . فبدلا من أن تمشى فإنك تركب طائرة ، وبدلا من أن تصرخ تهمس بالتليفون المتحرك . . وبدلا من أن تقرقش الطعام بأسنانك ومخالبك ، جعله مسحوقا غنيا بالفيتامينات . .

وكان الإنسان يعتقد أن الأرض مركز الكون . وأنه سيد الأرض إذن هو سيد الكون . .

وظهرت النظريات تقول إن الإنسان لامركز الكون ولاحاجة . . وإنما الأرض تدور حول الشمس . . وكذلك كل الكواكب . . فالشمس هى مركز الكون . .

أى أن المجموعة الشمسية التى نعيش فى جانب منها هى مركز الكون . .

وجاءت نظريات تقول إن المجموعة الشمسية ليست مركز الكون . . وإنما هى مجموعة ضئيلة جدا ضمن مجموعة بها ألف مليون نجم مثل الشمس . . هذه المجموعة اسمها (الطريق اللبنى) . .

وجاءت نظرية تقول إن هذه المجموعة ليست إلا واحدة من ألف مليون مجموعة أخرى .

وجاءت نظرية تقول إن هذا الكون كله ليس هو الكون الوحيد . . فهناك أكوان أخرى بألوف الملايين ولا نعرفها . .

وجاءت نظرية تقول : بل إن هذا الكون كله لم يكن موجودا قبل ١٥ ألف مليون سنة . . وإنه ليس إلا واحدا مما لانهاية له من الأكوان التى ظهرت ثم اختفت . .

يعنى أن الإنسان ولاحاجة فى هذا الكون . . ولاشىء !

أو هو شىء متواضع جدا

ولكن جاءت نظرية تقول صح إن الإنسان ليس شيئا ماديا هاما . . ولكنه الشىء المادى الوحيد الذى يعرف نفسه ويعرف هذا الكون . . إن الشمس لاتعرف . . وكل النجوم لاتعرف أن لها بداية وأن لها نهاية . . ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يعرف وأنه ولد ليموت . . وأنه شديد القلق والحزن على ذلك . . وأنه فى نفس الوقت يحاول أن يسخر البيئة والظروف لصالحه . . أى أنه يحاول أن يجعل نفسه مركزا للاهتمام فى هذا الكون .

ورغم أن الإنسان قد حقق الكثير جدا ، فإنه لايزال يشعر أن أكثر من ذلك هو الذى يحلم به . .

ورغم أن أمامه الكثير من الوقت لكى يحل مشاكل الحياة ومشاكل العلوم فإنه فى نفس الوقت يشعر بالاعتزاز بنفسه فقد استطاع فى نصف القرن الماضى أن يحقق المعجزات التى لم يستطعها فى ألوف السنين قبل ذلك . .

فالإنسان كائن غير متوازن . .

الذى حققه كثير جدا . .

والذى يحلم به كثير جدا . .

وهو غير متوازن لأن العلم لم يحقق له صلحا مع نفسه . . لم يحقق له علاقة قوية مع جاره . . مع زملائه فى البيت فى الدولة فى الكرة الأرضية . . إن المواصلات ربطت بينه وبين الكواكب الأخرى . . ولكن هذا العلم لم يحقق له الأمان والوئام مع غيره من البشر . .

إن الأجهزة الحديثة لم تمكن الإنسان من أن يقضى على الحقد والكراهية والحسد والانتقام . . والحرب التى يموت فيها الملايين . والملايين تموت بأسلحة فتاكة اخترعها الإنسان بعقله العبقرى .

ومعنى ذلك أن العقل الإنسانى يعمل فى القضاء على الإنسان نفسه . . والعلم يقوم بتطوير أسلحة الموت . .

ثم إنه يرتفع بمستوى المعارك . . فبدلا من أن كانت المعارك فى البر والبحر والجو . . أصبحت الآن (حرب النجوم) . . أى الحرب التى تستخدم فيها سفن الفضاء على أعلى المستويات فالإنسان قد ارتفع بأسلحته ومعاركه وميادين القتل ، ولكنه انحط بأسباب هذه الحرب . . فأسباب الحرب هى الطمع والجشع والسيطرة والقهر . .

وهذا هو موقف أخلاقى . . أو موقف روحى . .

وهناك فجوة هائلة بين ماحققه العلم ، وما عجزت القيم الروحية عن تحقيقه . . العلم ساعدنا على قتل الملايين فى كل العصور . . ولم يساعدنا على حب الآخرين . .

وفى الخمسة آلاف سنة الماضية ، لم تعرف الإنسانية السلام إلا ١٢٣ سنة . . فمن الذى نلوم ؟

لانلوم التقدم العلمى . فمادام هناك عدد كبير جدا من العلماء يعملون معا ، وكل واحد منهم يكمل ما قام به الآخرون ، فلا نهاية لتقدم العلم والأدوات المتطورة التى يبتدعها . .

ولو حدث أن عكف ألوف المصلحين ـ تماما كالعلماء فى كل مكان ـ على تطور القيم الروحية والحب والرحمة بين الناس لتغيرت الدنيا . .

ولكن (القوة) لاهى خير ولا هى شر . . إنها محايدة . ولكن الإنسان هو الذى يجعلها للخير ويجعلها للشر . . فالسكين مثلا ، لا هى خير ولا هى شر . . ولكن الإنسان هو الذى يقشر بها خيارة وهو الذى يقتل بها بريئا .

والإنسان فى الخمسة عشر قرنا (من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد) حاول كل أشكال التنظير الأخلاقى والروحى والدينى والفلسفى . . ففى القرن السادس قبل الميلاد كان المصلحون الهندى بوذا والصينى كونفوشيوس واليابانى لاوتسى والفارسى زرادشت . . وكان الفيلسوف سقراط وكان الفيلسوف زينون . .

وكان النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى القرن السابع الميلادى . .

وهم جميعا قد دعوا لسيطرة الروح على المادة ، لسيطرة القيم الأخلاقية والروحية على الرغبات المادية الفانية .

ومهما اختلفت الأديان فى مبادئها فإن بينها شيئا واحدا مشتركا هو : الدعوة إلى الحب . .

ولاشىء يجعل الإنسان يخرج من أنانيته الشديدة إلا الحب . . أن تحب غيرك من الناس . وأن تضحى من أجله . . فالحب هو العاطفة الوحيدة العظيمة التى تشغلك عن نفسك وعن أن تكون مركز الكون . . وأن تحب شخصا وأن تحب فكرة وأن تحب رمزا . . وأن يكون هذا الحب بلا مقابل . .

ولاشـىء قد أدى إلى ظهـور الديـن وحاجـة الإنسان إليـه : إلا الحب والاحترام والخوف . . والإنسان بطبعه كـائن روحانى . . كائن مـؤمن . . فى كل العصور كان الإنسان مؤمنا بشىء ما . . بقوة ما . ولايزال .

فأنت تنحنى إجلالًا أمام قطعة قماش ، هى علم الدولة . .

وتقف احتراما لعلامات المرور لأنها رمز القانون . .

والـلاعبون يتحـركون بين العـلامات البيضـاء . . التى هـى القواعـد والأصول . .

والإنسـان كـائن يكن احترامـا وتـوقيرا وتقـديسا لما هـو أكبر ولمن هـو أعظم . . ومـن ألوف السنين ونحـن من الـواجب أن نـذكر دائما أستـاذنا العظيم سقـراط . . إنه لم يشغـل باله بـالبحث فى الطبيعـة ولافى الفلك . وإنما شغل نفسه بالإنسان . والذى شغلـه فى الإنسان هو أن هذا الإنسان يعرف الخير ومع ذلك لايفعل إلا الشر . كيف ؟ ولماذا ؟

وكان هـدف سقراط هو إيقاظ الإنسـان ليفعل الخير ما دام يعـرفه . . وهو بذلك يصلح الإنسانية كلها . . وهذا ما نحتاج إليه اليوم . .

وكلما تقدم العلم زادت الفجوة بين الديـن والعلم أوبين القيم الروحية والفوائد المادية للتطور العلمى . .

فـالإنسـان اخترع الآلـة ، ثـم صـار عبـدا لها . . اخترع الآلـة وراح يقلدها . . فيكـون منضبطا مثلها . . ويكون لا إنسانيا . . فـالناس جميعا مسامير فى جهاز واحد . . ويجب أن يكونوا . . والإنسان ما دام مسمارا فى جهاز فيبقـى فى الجهاز ما بقى صـالحا ، فإذا انكسر كان لابد مـن الإتيان بقطعة غيار أخرى . . لا أكثر ولا أقل !

فالإنسـان يطور المادة التى فى يـديه . . ويجعـل منها أشياء جـديدة . والحياة المادية هى التى صنعها الإنسان وطورها وانحنى ساجدا لها . .

واستطاع العلم أن يجيب عن تساؤلات كثيرة للإنسان . وكانت إجابات الأديان القديمة عنها غير دقيقة . وهناك خطأ وقعنا فيه . وهو أننا نطلب من العلم ما نطلبه من الدين . . فنطلب من الدين أن يقول لنا كم طول الكون وكم عرضه والعلم يقول بالتقريب والدين لا يقول لأن الدين ليس كتابا علميا . والعلوم يغير بعضها البعض فهى لاتثبت على حال . بينما القيم الأخلاقية قد اكتسبت طابع الخلود لأن أساسها الصدق . والحب والرحمة والسلام . .

وإذا أحس الإنسان بكارثة رفع رأسه إلى السماء وقال : يارب !

وقد يضحك أحد العلماء لهذا المنظر ويقول : ولماذا ينظر إلى فوق . . يمكنك أن تنظر إلى تحت فالأرض معلقة فى الفضاء . . فلا فوق ولا تحت!

علميا صحيح . ولكن هذا الإحساس الذى نحس به هو العجز . . ونتطلع إلى فوق ويريحنا ذلك . وليس له تفسير علمى . . إنه شىء فى القلب . لانعرف ما هو . ولا ما طوله ولا عرضه ولا وزنه . . يارب . . ولايهمنا كثيرا أن يضحك العلماء على هذا المنظر . .

وكان يقال إن بين آدم وموسى عليهما السلام ٤٠٠٤ سنوات . . وقيل بل خمسة آلاف . . وقيل بين آدم ومحمد صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف سنة . .

وجاء البحث التاريخى يؤكد غير ذلك . فالإنسان على هذه الأرض من مليون سنة . . أى الإنسان الذى يمشى على قدميه مستقيم الظهر . . ولكن مرت على الإنسان ملايين أخرى لم يكن مستقيم الظهر . .

وقد كانت على الأرض حياة بأشكال مختلفة قبل ظهور الإنسان بمائة مليون سنة . الديناصور كان يعيش على هذه الأرض حوالى أربعين مليون سنة . . ولكنه انقرض من خمسين مليون سنة لان أحد الأجرام السماوية قد

سقط على الأرض أو مر بالقرب منها فارتفعت درجة الحرارة وانعدمت الحياتان الحيوانية والنباتية ـ وفى مقدمتها الديناصور . .

بعبارة أخرى نحن تطورنا على هذه الأرض علميا ولم نتطور اجتماعيا . فإذا كان الإنسان حيوانا اجتماعيا ، لابد أن يعيش فى أسرة وأن يكون له أولاد وأقارب وقبائل وعائلات فليس الإنسان هو الحيوان الوحيد الاجتماعى . . هناك الذئاب حيوانات اجتماعية . . تغزو وتصيد معا وتأكل معا وتثأر لبعضها البعض . فالإنسان تطور علميا ماديا ، ولم يتطور كثيرا اجتماعيا أو روحيا . .

والإنسان لايستطيع أن يحقق المعانى الروحية إلا عن طريق المادة ـ فالإنسان يجب أن يكون حيا يأكل ويشرب لكى يكون قادرا على أن يحقق القيم الروحية وأن ينشرها وأن يتمسك بها ويدعو إليها . . ونحن نلمس عالم الروح بأصابع مادية . . فلا قيم روحية إلا أننا موجودون . . وإذا لم يكن هناك إنسان فلا قيم روحية . .

والشمس والقمر والكواكب الأخرى ـ لا فيها حياة ولا إنسانية . . ولاموت !

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف أنه سوف يموت . . وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان على أنه يولد ويموت . . أما هم فقد ملوا حياة الخلود . . روتين الأبدية . .

ولو استطاع الطب أن يجعل الإنسان يعيش إلى مائتى سنة ، لكان من أهم آمال الإنسان أن يموت أى لأصبح الموت أملا . . لأن الشيخوخة وكثرة الأمراض واليأس من العلاج تجعل الحياة عذابا . . ويكون الموت هو الأمل . أما الانتحار فقد حرمته كل الأديان لأن معنى الانتحار أن الإنسان

يرفض الحياة التى وهبها الله له . فالله وحده هو الذى يعطى وهو الذى يأخذ . .

وإذا كان قد حدث فى عصور الرومانسية والوجدانية والمثالية أن انتحر كثيرون ، فتلك حالة نفسية مرضية . . فلسفة أزمة . . وقد اتخذ العصر الرومانسى عبارة لمؤلف إغريقى كتبها على باب بيته :

إذا كنا لم نستطع أن نرفض الحياة ونحن صغار ، فلنرفضها ونحن كبار!

ولكن أحدا لم يفعل ذلك كثيرا . وإن كانت الحروب هى الموت الجماعى الذى تفرضه الشعوب على نفسها وعلى الشعوب الأخرى . . وتسمى الانتحار الجماعى بطولة . وتسمى الأهداف المعلنة القائمة على السيطرة والجشع مبادئ مقدسة !

ومن علامات هذا الزمان ما قاله أول إنسان صعد إلى سفينة الفضاء ودار بها حول الأرض . ففى سنة ١٩٦١ أطلق الروس الرائد جاجارين ليرتفع عن الأرض مائتى كيلو متر ولينطلق بسرعة ٢٨ ألف كيلو متر فى الساعة ليدور حول الأرض كل ٨٩ دقيقة . . هذا السائق البسيط لسفينة فضاء كل أجهزة إدارتها على الأرض . . ليس إلا سائق تاكسى بلا دركسيون . . هذا السائق البسيط قال ثم منعوه بعد ذلك أن يردد هذه العبارة : إنه صعد إلى السماء فلم يجد الله !

الغرور والجهل هما معنى هذه العبارة . فما الذى حققه حتى ينطق بمثل هذه العبارة الكبيرة جدا . . إنه ارتفع فى سيارة صغيرة إلى مسافة صغيرة . . تماما مثل ذبابة تدور حول كوب . . إنه إنجاز علمى كبير . . ولكن هذا الإنجاز لايجعل أحدا يقول مثل هذه العبارة إلا إذا كان جاهلا جدا . .

ولذلك فى مثل هذه الذروة من الغرور والجهل يتدخل الدين . . ويقول لنا : قليلا من التواضع فما أو تيتم من العلم إلا قليلا . . والذى صنعتموه مهما بلغ من عظمته فهو أقل فى الإعجاز عـن جناح ذبابة . . بل إن جناح ذبابـة شىء كثير جداجـدا . . بل إنه أقـل إعجازا من شكـل خلية تحت الميكروسكـوب . . ففى هـذه الخلية ما لانهايـة له مـن الجسيمات البسيطة كهربياً ومغناطيسيا

فقط الـدين هو الـذى يستطيع أن يسد هـذه (الفجوة الروحيـة) التى يقفز منهـا الغرور كما تقفز الضفادع مـن أحد المستنقعات وهى تحلـم بأن تصدم برأسها النجوم !

الفضاء : مشكلة (فوق)
الفراغ : مشكلة (تحت) !

الـذين يـريدون أن يـذهبوا إلى الجنـة ، يجب أن يكون عنـدهم وقـت لدراسة الطريق إليها !

إذا كان الـدين لايغير أسلوبك فى الحيـاة ، أفضل أن تبحث لـك عن دين آخر !

كثير مـن النـاس يقـومـون (بتفصيـل) القيـم الـروحيـة على قـدر احتياجاتهم !

أسهـل للناس أن يـدافعوا عـن الديـن وأن يموتـوا فى سبيله ، مـن أن يعيشوا وفقا لمبادئه !

كيف تطلـب من النـاس أن يتفقوا على قيم أخـلاقية واحـدة ، وأنت تعلم أنهم لايتفقون على أى شىء آخر !

الديـن كالموسيقى : أنـت لاتدافع عنهـا ، وإنما أنت تعزفهـا وتسبح سعيدا فى معانيها !

إن القيم الروحيـة التى لاتستحق أن تصدرهـا إلى الخارج ، لاتستحق أيضا أن تعيش بها فى الداخل !

بعض الناس ينظـرون إلى الدين على أنه (مظلة واقية) يلجـأ إليها عند الهبوط الاضطرارى !

أعظم حركة انتقال : هى أن تنقل الدين من لسانك إلى يديك !

الدين ليس مصباحا تحمله فى يدك ، وإنما هو نور فى قلبك !

الفرفشة تجعلك تنسى الهموم ، الدين هو الذى يجعلك تتغلب عليها!

الـدين كـالبنوك : لا تحصـل منها على فـوائد إلا إذا كانـت لك أمـوال مودعة فيها !

فما الذى نعلمه للصغار والشباب ؟

نعلمهـم دينهم . . نعلمهـم تجارب الشعوب حـرصها على أن تكـون أفضل . . على أن تتمسك بما هـو أبقى وأقوى وأسمى . فـالدين يجب أن يكون تاريخ المؤمنين . . وبطولاتهم . . وليس الدين وحده هو المادة الأولى والأخيرة فى كل بـرامج التربية والتعليم . . فلـم يكن تاريـخ الشعوب أن نصلى ونصـوم . . وإنما أن نصلى ونصـوم ونعمـل ونبـدع ونغير ونكـافـح ونجعل للحياة معنى وطعما . .

وقـد تطـور الإنســان فى الماديـات أضعــاف أضعــاف تطــوره فى الروحانيات . . وفى الأخلاقيات . .

شـىء غــريـب حــدث فى أعقـاب الهزات الكبرى أو الصــدمـات الثقـافيـة . . فبعـد الصـدمات الثقـافيـة . . تفيـق الشعـوب على شـىء جديد . . هذا الشـىء هو أن تشعر فجأة ومرة واحدة أن هنـاك مسافة . . أن هناك فجوة . وأن هذه الفجوة لم نكـن نشعر بها . . وهذه الفجوة يجب أن نعرفها . . أن نملأها . .

فعنـدما أطلـق الروس أول قمـر صناعـى إلى الفضاء وأول كلبـة وأول إنسان أحـس العالم الغربى كلـه بأن هناك خطأ خطيرا فى التربيـة والتعليم

وأن روسيا سبقت الغرب وسوف تسبقه لأنها تنبهت إلى هذا الخطأ وعالجته سرا . وكانت نتائج هذا الإصلاح تفوقها فى عالم الفضاء . .

فذهب العلماء الأمريكان يدرسون برامج التعليم فى روسيا . وكل واحد اهتدى إلى سبب . ولكن أهم ما اهتدى إليه الأمريكان هو أن الروس تقدموا جدا فى الرياضيات . . وأن الطفل الصغير يدرس الهندسة والجبر وحساب المثلثات وبعد ذلك بسنة واحدة يدرس حساب التفاضل والتكامل . هذا كل ماهناك . فغير الأمريكان برامجهم . .

ولكن عرفنا فيما بعد أن السبب الحقيقى غير ذلك . . فالعلماء الألمان الذين استولى عليهم الأمريكان وشحنوهم إلى امريكا . . قد اخترعوا صواريخ لنقل الأقمار الصناعية من سنوات . . وأن هذه المشاريع جاهزة . ولكن الكونجرس الأمريكى لم يعتمد الأموال الضرورية لذلك . . فلقد رأوا فى سفن الفضاء لعب أطفال يتسلى بها العلماء . . لعبة دقيقة معقدة لافائدة لها . .

ثم إنهم الألمان الذين اخترعوها وليسوا أمريكانا . .

والحقيقية أن الألمان فى روسيا والألمان فى أمريكا قد وصلوا إلى هذه الاختراعات فى قت واحد . وكان الروس أسبق فى إطلاقها إلى الفضاء حول الأرض وبعد ذلك حول القمر وفوق الكواكب الأخرى . .

ولكن الأمريكان أعادوا النظر إلى برامجهم فى التربية والتعليم . .

وقد أيقظتهم هذه الصدمة العنيفة . . وانطلق الأمريكان إلى الفضاء بسفن أكثر تطورا وأسرع من الروس . .

والصدمة الثانية : عندما اكتشف الأمريكان أنه ليس الروس وحدهم الأسبق فى مجال الفضاء . . ولكن اليابانيين والألمان أسبق فى تطور كل

وسائل الحياة . . فاليابان دولة ضربها الأمريكان بالقنابل الذرية وألمانيا احتلها الحلفاء ومسحوا بها الأرض . . وفجأة وبصبر واستمرار تقدمت وتفوقت على كل الدول التى احتلتها وفى مقدمتها أمريكا . .

والصدمة الثالثة أن أمريكا ذهبت تحارب فى فيتنام ولم تخرج منها إلا مهزومة لأول مرة فى تاريخها . . ويكون ضحاياها سبعين أو ثمانين ألفا . . وأثر هذه الهزيمة كان عميقا على الشباب الأمريكى الذى وقف ضد حكومته وقرارها المزيف حين ادعت أنها ذهبت تحارب من أجل الديموقراطية والحرية . . فأهلكت الإنسان والحيوان ولم تحقق الديموقراطية وإنما الكراهية لكل ماهو أمريكى . . وأحس الشباب الأمريكى أنه غريب فى بلاده . وأن حكومته كاذبة وماضية فى الكذب . .

حتى أن الرئيس كلينتون عندما كان طالبا فى بريطانيا فإنه اشترك فى تظاهرة ضد الحرب فى فيتنام . . وحاول خصومه السياسيون أن يصوروا أنه هرب من الجندية . . وأنه تظاهر ضد الاشتراك فى الحرب . . ولكن ثبت أنه لم يكن ضد بلاده . . ولكن ضد قرار الحرب فى فيتنام . . وأنه لم يشترك فى الحرب لأنه كان يدرس فى الخارج والدستور يعفيه من الخدمة العسكرية لهذا السبب . .

ولكن الشباب الأمريكى تمزق وتزلزل بسبب حرب فيتنام . وهرب من الحياة الاجتماعية ومن البيت ومن المدرسة . وأدمن المخدرات والخمور. . وتكوم فى الاصطبلات وفى الخرائب ، ووجد أنها خير من البيوت والمؤسسات . . بل إن ألوف الشبان آمنوا بديانات مزيفة هربا من دينهم . . ثم إن عددا منهم سار وراء نبى كاذب . . وانتحروا جماعيا حتى لا يعيشوا فى أمريكا المنافقة الكاذبة . .

إن أثر فيتنام على معنويات الشباب فى أمريكا شىء فظيع !

وظهرت اتجاهات منحرفة فى الأدب والفن وسلوكيات الشباب . .

ولذلك قرر عدد من رؤساء أمريكا الواحد بعد الآخر أن يواجهوا الكارثة . والكارثة هى التمزق الأخلاقى والانهيار الروحى والتخلف العلمى . .

وعكف عدد من العلماء على دراسة التربية والتعليم فى أمريكا .

وظهر بحث عظيم رائع اسمه (أمة فى خطر) . . ولقد حملت هذا التقرير البديع إلى الرئيس حسنى مبارك فى بيته . وسمعت من الرئيس أنه قرأه . وأنه كلف د . مصطفى كمال حلمى وزير التعليم فى ذلك الوقت بالدراسة والبحث والاستفادة منه . وكتب د . مصطفى كمال حلمى عن التقرير عدة مقالات نشرتها مجلة (أكتوبر) . . والمقالات جميلة . . والاستفادة من التقرير ضرورية . وعندما تقدم . د . فتحى سرور بمشروع لإصلاح التعليم أشار إلى أنه قرأ هذا التقرير الأمريكى واستفاد منه . .

ولكن أهم من التقرير وقراءته هو : لماذا صدر ؟

صدر فى أمريكا بعد دراسة دقيقة عميقة لحال الشباب هناك . .

وقد لاحظ الباحثون الأمريكان أن الشبان فى أمريكا يرون (السندوتش) هو المثل الأعلى لكل غذاء . . فالأكل يجب أن يكون مختصرا فى رغيف . وإن هذا الرغيف من الممكن أن يأكله الإنسان جالسا وواقفا ونائما وفى الزحام فى الأتوبيس أو المترو . والشاب يريد أن يكون كل شىء مثل السندوتش . . فالكتب يجب أن تكون مختصرة . . معلومات من هنا ومن هناك . . وبسرعة تقرأ وبسرعة يلقى بها . .

ومثل هذه المعلومات السريعة ليست هى التى تؤدى إلى التفكير والتأمل والمعايشة والإبداع بعد ذلك . . فكما أن الشاب يأكل وهو يتفرج على التليفزيون أو على مباريات كرة القدم . . فالكتب السندوتش يجب أن تكون كذلك . . يمكن تناولها فى أى وقت . . وفى أى وضع !

ولاحظ الباحثون الأمريكان أن (الكافتريا) قد غلبت على سلوك الشبان . . فهم يفضلونها على قاعات البحث والمعامل . . فهم طوال الوقت يضحكون ويغنون ويشربون الكوكا أو القهوة . . ساعات وساعات ولاحظوا أيضا أن الرياضة تستولى على وقت كثير فى حياتهم . .

وسيطرة الجنس عليهم جعلتهم يهربون من الرياضة ومن القراءة ومن الدراسة . . ولاحظ الباحثون أن المدرس لايلقى احتراما عظيما فى أمريكا . . فلا هو قد درس وتدرب ، ولا هو يتقاضى أجرا يجعله يعيش حياة كريمة . . فكيف يحمل المدرس مشاعل النور للطلبة وهو كاره لما يقوم به . . حاقد على الطلبة الذين هم أحسن حظا منه . . فالمدرس وعلمه وتجاربه وحياته يجب أن يتناولها البحث بالتعديل والتصحيح . . وكذلك فعلت ألمانيا وبريطانيا وفرنسا . . كلها اتجهت إلى إصلاح التعليم . . أى وضع البرامج التى تشجع الطالب على أن يتفرغ للدراسة والبحث أملا فى إصلاح كل الناس ، وإتاحة لظهور المواهب الفريدة بين الشبان . .

فما الذى يجب أن يتعلمه أو يدرسه الطفل والشاب !

يجب ندرس لهم تجارب الشعوب . . والأمل فى أن تكون هذه المعلومات أو هذه التجارب مفيدة . . أو تكون عبرة لنا . . فليس المهم حشر المعلومات . . وإنما المعلومات مهمة ، والعبرة مهمة أكثر . .

والشعوب النامية تعتمد على الصورة أكثر من اعتمادها على الحروف . . أى على التليفزيون أكثر من اعتمادها على الإذاعة والكتب . . ولذلك فالصورة أقوى وأعمق . .

ولكن التليفزيون خطير وإن كان ضرورة لا مفر منها . لأنه لغة العصر . إننا فى الريف المصرى نجد الفلاح يسكن بيتا من الطين ومن

شبابيك هذا البيت تطل أبقاره وجواميسه . ولكن أمام الباب يوجد تليفزيون ملون قد استقر فوق ثلاجة !

فمن الممكن أن يبيع الفلاح جاموسة ليشترى بثمنها تليفزيونا وثلاجة وغسالة ومروحة . . وقد يستدين وترتبك حياته . ولكن لابد من التليفزيون الذى هو مصدر معلوماته وإطلاله على الدنيا . . ورمز للحضارة أو المعايشة لها وعدم التخلف عن مسايرتها . .

والتليفزيون خطير لأن المتفرج عليه لايستطيع أن يفرق بين أفلام عن الحرب وأفلام حربية . . ففى الحالتين ضرب وقتل ودماء . . والخطورة هى أن الطفل إذا نظر إلى الحرب ، فهو لايعرف أيها التمثيل وأيها الحقيقى . . فإما إن يرى أن كل الذى يراه تمثيل فى تمثيل فلا حرب ولا ضرب . . وكل ما يقال عن الدماء والوحشية تمثيل فى تمثيل . . وإما إن يرى أن الحروب حقيقة ودماء . . وأن الدنيا متوحشة شرسة . . وأن هذا هو القدر وأن هذا هو أسلوب الحياة . وأن أحدا لايستنكر ذلك . وإنما تعرض كل يوم مع عظيم الاحترام لقتل الأبرياء وإراقة دمائهم فى كل مكان !

ومشاهدة التليفزيون عمل سلبى . . فأنت جالس والمعلومات تدخل دماغك بلا مقاومة منك . بل إن التليفزيون ساحر بالألوان والموسيقى ولذلك فأنت لاتستطيع أن تقاومه . . إنه (شهر زاد) التى تحكى فى اليوم الواحد ألف ليلة وليلة وأنت (شهر يار) النائم على السرير يأكل ويقزقز والتليفزيون يأتى لك بالدنيا كلها عند قدميك . .

أما الكتب فشىء آخر . . فأنت تذهب إلى حيث تباع الكتب . . وترى وتقلب وتقرأ وتختار . فالقراءة عمل إيجابى . لأنه عمل إرادى . وبإرادتك تشترى أو لاتشترى وتقلب وتختار وتعود لتكمل ما بدأت . . ثم إن القراءة فى حاجة إلى جهد . وأنت على استعداد لهذا الجهد وسعيد

به . . والمعلـومات التى تدخـل دماغك بسهولـة تذهب وتتلاشـى . . أما الذى تحصـل عليه من الكتب بمجهـود ، فإنها تبقى طويـلا . . ولاشىء يضيع من الذاكرة قد اكتسبته بجهد وإرادة ولذة .

وربما نكون قـد ورثنا من الإغريـق أن يقف واحد من النـاس يحاضرهم ويناقشهم ويناقشونه . . فهذا النوع من التعليم نموذجى . . فليس الطلبة فى حالة سلبية يبتلعون العلم دون تفكير أو دون مناقشة . . وهذا هو المثل الأعلى للتربية الصحيحة . .

ومادمنـا نعلم النـاس أن يستفيدوا مـن تجاربهم ، فهل الإنسـان فعلا يستفيد ؟ هل الشعوب أيضا ؟

وهل التـاريخ يعيـد نفسه . . أى هل نحـن نقع فى نفـس الأخطاء . وكأننـا لم نعايشها . . وهـل التاريخ يعيـد نفسه بالضبـط . . أو إن هناك تحويرا وتغيرا فى الظروف وفى حجم التجربة ووقوعها وإيقاعها ؟

ففـى مصر بسبب فشـل (تجربـة الوحـدة) مع سـوريـا . . لم يوافـق السـادات وحسنـى مبـارك على أى نـوع من أنـواع الـوحـدة مـع ليبيـا أو السودان . . فتجربة الوحدة كانت مفروضة على الشعبين المصرى والسورى وقررت سوريا الانفصال . . ومضـت الأيام وإذا بالشعب المصرى يرى أن الوحـدة لامعنى لها . . والسوريـون كانوا أول مـن كفر بها وبريـاسة مصر ووجودها فى سوريا . . والحكايات كثيرة والفضائح أكثر . .

وغير ذلك من التجـارب الأليمة فى تاريخ مصر وتاريـخ كل دولة . . والإنجليز ـ مثلاـ عندهـم ثلاثة دروس مؤلمة لايمكن نسيانها . .

١ ـ فقد استطاعت الفتاة الفرنسيـة القديسة جان دارك عذارء اللورين أن تشفى بـريطانيا من مـرضها . . فقد كـانت منطقة نورمـاندى الفرنسيـة تابعـة لانجلترا وغيرها مـن المدن . . ولكن الفتـاة جان

دارك استجابت لنداء السماء وقادت جيوشا ضد الإنجليز . .
فأفلحت فى تحرير مدن كثيرة . . واستطاع الإنجليز أن يستردوها
وأن يدفعوا بالفتاة إلى الإعدام حرقا . .

ومنذ ذلك الحين لم تعد بريطانيا تحاول القيام بأى غزو عسكرى لأوروبا !

٢ ـ بريطانيا كانت أول دولة غربية فى العصر الحديث تقوم بثورة ضد النظام الملكى . ففى القرن السابع عشر اشعلت حربا أهلية وقطعوا رأس الملك . وأدى ذلك إلى قيام دكتاتورية عسكرية بزعامة كرومويل . وبعد وفاة كرومويل عادت الملكية . ولكن بسلطات قليلة للملك ولما حاول الملك جيمس الثانى أن يعيد الملكية المطلقة أسقطه الإنجليز . وهرب . وقد استطاع أحد الصيادين إلقاء القبض على الملك وانتظر أن يمنحوه مكافأة على ذلك . . ولكنهم وبخوه وتركوا الملك يهرب فى هدوء . واستوعب الإنجليز هذا الدرس .

٣ ـ فقد الإنجليز مستعمراتهم فى أمريكا الشمالية لانهم رفضوا أن يمنحوا شعوبها الحكم الذاتى . بينما أعطوا الاستقلال لدول أخرى فى الإمبراطورية البريطانية : كندا واستراليا والهند وباكستان والملايو ـ وذلك قبل حصولهم على الاستقلال بالقوة .

وطرد الإنجليز من قبرص وعدن يدل على أنهم استوعبوا الدرس تماما . ولما لم تستوعب بريطانيا الدرس بوضوح فقد منيت بهزيمة شنيعة فى أمريكا الشمالية فى القرن الثامن عشر . .

أما فرنسا فقد استوعبت درسا أليما فى سنوات ١٨١٣ ، ١٨١٤ ، ١٨١٥ وفى سنة ١٨٧١ . هذه النكبات العسكرية جعلت فرنسا لا تفكر مطلقا فى السيطرة العسكرية على أوروبا . .

وكذلك هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ والحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، جعلت ألمانيا تخاف من الحرب . . وتخاف من أن يتصور أحد جيرانها أنها تستعد لذلك . . وعندما استعادت ألمانيا نصفها الشيوعى ، شعر الناس بالفزع والرعب من عودة ألمانيا إلى قوتها . فأكدت ألمانيا أنها لاتريد أية قوة عسكرية !

أما اليابان فقد كانت مصيبتها أكبر وأفدح . . فقد ضربتها أمريكا بالقنابل الذرية . ولكن أفدح من ذلك أن أمريكا قد احتلت اليابان . وهذا مالم يحدث لها فى كل تاريخها . . حتى الإمبراطورية المغولية ، أكبر إمبراطورية فى التاريخ ، لم تفلح فى أن تضع قدما واحدة على الأرض المقدسة لليابان .

وهزيمة اليابان قد جاءت بعد انتصارات ساحقه فى آسيا وجنوبها . بدأت بانتصارها على الصين سنة ١٨٩٤ وعلى روسيا سنة ١٩٠٤ . . وسلسلة من الانتصارات الساحقة فى جنوب شرقى آسيا . . وبعد ذلك توالت هزائمها . وكان لهذه الهزائم أعمق الأثر فى الشعب اليابانى . .

وهزيمة مصر سنة ١٩٦٧ قد هدمت معنويات الجيش والشعب . وأسباب الهزيمة قد استوعبتها مصر فانتصرت سنة ١٩٧٣ . . أما انتصار إسرائيل علينا سنة ١٩٦٧ جعلها تستهين بقدرة مصر وجيشها وقيادتها على خوض أية حرب . . لدرجة أن موشى ديان وزير الدفاع عندما سمع أن مصر سوف تهاجم إسرائيل أو هاجمتها ، أمر ببضعة آلاف من الجنود . . لأن مصر الضعيفة الهزيلة يمكن مقاتلتها بأى عدد ضئيل . . فغرور إسرائيل فى سنة ١٩٦٧ هزمها فى سنة ١٩٧٣ وهزيمة مصر فى سنة ١٩٦٧ دفعتها إلى النصر فى ١٩٧٣ . .

ومن الصدمات العميقة فى العصر الحديث ما أصاب تركيا . ففى القرنين ١٨ و ١٩ استقبلت تركيا الحضارة الغربية . . التى زلزلت تكوينها

وثقافتها وعاداتها الراسخة حتى جاء الزعيم أتاتورك وفرض التطور والعلمانية على الشعب التركى بمنتهى القوة والقسوة . .

وآسيا قد صدمتها القوات الإغريقية بقيادة الإسكندر الأكبر . . فترك الإغريق آثارا عميقة فى آسيا غربا وجنوبا . . كما أن الإغريق تركوا آثارهم فى مصر الفرعونية أيضا بعد فتوحات الإسكندر الأكبر . .

وإن كانت الدويلات الإغريقية قد تفككت وتآكلت حتى ذابت فى إمبراطورية جديدة هى الإمبراطورة الرومانية . . ودفعت الاستقلال والحرية ثمنا لأمنها واستقرارها . .

فى هذا الوقت ظهرت (المدن الفاضلة) أو الجمهوريات المثالية . . التى تعيش فيها الناس فى أمان وسلام . .

وكانت (جمهورية أفلاطون) أولى هذه الدول النموذجية المثالية . وهى جمهورية دكتاتورية رجعية صارمة . وعندما أعطيت لأفلاطون فرصة أن ينشىء هذه الدولة كما يريد فشل . وبذلك ثبت لدينا : أن الافكار الجميلة ليست دائمة هى السهلة التنفيذ . . فهناك مسافة كبيرة جدا بين الجمال والواقع .

فصاحب النظرية ليس دائما هو أصلح الناس لتطبيقها .

وظهرت جمهورية توماس مور . . وقد أقام هذه الجمهورية فى القرن السادس عشر فى أمريكا التى اكتشفت أخيرا . .

وكذلك ظهرت دولة مثالية لجورج اورديل أسسها سنة ١٩٨٤

وكذلك هكسلى أقام دولة جديدة اسمها (عالم جديد شجاع)

والمعنى هو أن الواقع لايرضى المفكرين ولا يرضى الناس . ولذلك حاولوا تحطيمه واجتيازه إلى ما وراءه . . أو أنهم حاولوا إعادة العصور

الذهبية للشعوب . . ولكن المحاولات كلها فشلت ! ولذلك ازداد الشك عند الناس . . الشك فى صحة النظريات الإصلاحية ، والخوف من التطور العلمى الذى يزيد الإنسان تعاسة وفى نفس الوقت يجعله يعيش فى قنبلة موقوتة . . القنبلة من صنعه . . وعندما تتكدس الأسلحة فى كل مكان يكون الخوف من الدمار هو الذى يدعو إلى السلام . .

أى توازن قوى الرعب فى العالم ، هو الذى جعل الحرب أمرا صعبا . .

فكانت الحرب الباردة . . أى الخوف والشك دون إطلاق رصاصة واحدة !

ونحن الآن نعيش فى عصر ما بعد الحرب الباردة . . ولكن ما يزال فى العالم كله مساحات من النار والدخان بين الشعوب . . شىء جديد قد ظهر فى دنيا التربية والتعليم . هذا الشىء هو : فجوة التخصص . . فالمعلومات والمعارف الإنسانية زادت زيادة هائلة ، حتى أصبح من الصعب على أى واحد أن يلم بكل شىء فى علم من العلوم . . ولذلك كان لابد من التخصص . . وتقسيم التخصص إلى أجزاء كثيرة لابد من التخصص فى جزء منها . .

ففى الطب ألف فرع . .

وكان الناس قديما يطلقون على الطبيب والفيلسوف معا : الحكيم . اى الرجل الذى يتسع عقله وخياله لمعرفة كل شىء . . فهو طبيب وهو أديب وهو فيلسوف وهو فلكى وهو قائد عسكرى ؟ !

وعندما كنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة كان لابد أن أستعين بالأدب والشعر والرسم وقصص التاريخ ومعالم الجغرافيا لكى أشرح الأفكار المجردة الصعبة . . فلو عرضتها كما جاءت فى الكتب الفلسفية لكان الأمر صعبا ولظلت غامضة . . فالتخصص الفلسفى الضيق يجعل الطالب والمدرس فى عزلة عن بقية المعلومات الأخرى . .

وكنت أختـار النكت والنـوادر والأغانـى . لماذا ؟ إننى أريـد أن أكون مفهـوما . وأريـد ألا أبعث على الملـل . وألا يهرب الطالـب من الأفكـار الفلسفية الغامضة المجردة . .

وفى الفلسفة الوجودية اثنان من الفلاسفة هما نموذجان لذلك :

الفيلسوف الألمانـى ماريـن هيدجـر . جاف . منطقـى . غامـض . صعب جدا أن تفهمه . وإذا فهمته أن تترجمه إلى أية لغة أخرى .

والفيلسوف الفرنسى سارتر . . فهو أديـب وفنان وعبارته جميلة وصوره الأدبية والأمثلة من الحياة اليومية تسعفه وبسهـولة . . ثم كانت له قصص قصيرة وروايـات ومسرحيات . . ولـذلك كـان بـارعا بليغـا ممتعا ومقنعـا أيضا . . مع أنـه لم يفعل أكثر من أن تـرجم الفلسفة الوجـودية الألمانية إلى لغة فرنسية أدبية سائغة !

وعندى تجربة أخرى . .

فقد عكفت أدرس كيف نشأ الكون . لا أعرف . وتمنيت أن أعرف . ومعلومـاتى مهما كـانت فهـى ليست مـؤكدة . ولا أحـد عنده معلـومات نهائيـة . وإنما العقل والخيـال والتكنـولوجيـا تحاول أن تشهـد لحظة خلـق الكون .

هناك نظـرية تقول : إن الكـون نشأ من ١٥ ألـف مليون سنة ــ أرضنا هذه من أربعة آلاف مليون سنة .

ولكن لاتعـرف إن كان قبـل هذا الكون كـون آخر . . واحـد أو ألف مليون كون .

ونظريـة تقول : إن الكـون بدأ بانفجـار كبير . . أى أن مادة شـديدة الكثافة كانت موجودة . وفجأة انفجرت فتطايرت أجزاء الكون على شكل

تراب وغازات . . واندفعت ساخنة تبرد . . وباردة تتجمد وتتعلق بعضا ببعض وتتكون فيها كتل جبارة تدور حول نفسها وحول بعضها البعض فتكونت الأجسام السماوية . . ملايين ملايين ملايين النجوم . . مجموعات على شكل مجرات . . والمجرة الواحدة بألوف ملايين النجوم فى حجم الشمس . . ومعظم هذه النجوم تدور حولها كواكب كالقمر حول الشمس . . وفى المجموعة الشمسية وحدها أكثر من خمسين قمرا . .

ومن هذه الغازات واتحادها مع التراب ومع المعادن والشحنات الكهربية والمغناطيسية تكونت كل هذه الكتل الجبارة تدور حول نفسها . وتدور حول مركزها . . فالأرض تدور حول الشمس . . والشمس تدور حول نفسها أيضا . . وفى نفس الوقت حول مركز فى داخل المجرة التى نحن جزء منها . . والمجرة كلها تدور حول نفسها ،وحول مركز فى المجرات الأخرى وبين كل هذه الكتل الهائلة غازات خفيفة . . وتراب . . فمن التراب جاء كل شىء ، وليس الإنسان إلا مرحلة من مراحل تطور التراب إلى خلايا عضوية . . وخلايا أحادية وخلايا مركبة . . معقدة متطورة . . وإلى حياة النبات والحيوان والإنسان . .

فوجدت أننى عندما قررت أن أدرس كيف نشأت الحياة من التراب . لابد أن أقرأ فى الجولوجيا والفلك والفيزياء والكمياء والأحياء والرياضيات . . وتاريخ كل هذه العلوم لأن تاريخ أى علم هو جزء منه . . كما أن تاريخك أنت جزء منك . . بل هو أنت فى مرحلة من مراحل العمر . .

وبسبب هذه المجالات الهائلة الواسعة من مئات النظريات كان لابد من التخصص . . وفى علم الفلك أناس متخصصون فى المذنبات وتكوينها وسقوطها على الأرض . . وأناس يتخصصون فى البقع السوداء وهى النجوم الهائلة التى تقلصت وتداخلت بقوة عظيمة وراحت تبتلع

النجوم الأخرى . . وفى الكون ما لانهاية له من هذه (البالوعات) الفلكية التى تمتص كل شىء وتكثفه وتجرب حتى الأشعة فلا تخرج منها ولذلك تبقى مظلمة . . فاذا كان الكون مايزال يتمدد بسبب الانفجار الهائل من أول انفجار ، فإن هذه البقع السوداء توقف التمدد وتسحب الكون إلى داخلها . . وهى بداية انفجار إلى الداخل . . أو انكماش جبار . . ليعود الكون كما بدا . . كتلة صغيرة لانهاية لكثافتها وقدرتها على الانكماش والانضغاط . .

ولايوجد فى الكون فراغ . . ولا فضاء . . وإنما الكون ملئ . . امتلاء . . وفى الكون مادة سوداء . . هذه المادة السوداء مكونة من جزيئات أصغر من الذرة ألوف ألوف المرات . . هذه المادة السوداء هى اللحاف الذى يتغطى به الكون . . وهى فى نفس الوقت الحائط اللانهائى الذى يصد الكون عن الامتداد والتطوح بعيدا . .

تماما كما ترى النيل يصب فى البحر الأبيض . . النيل يدفع مياه البحر بعيدا . . ولكن البحر بقوته يوقف زحف النيل . . ويوقف تدفقه . . وكذلك المادة السوداء تستسلم لاندفاع المجرات والسدم . . ولكنها فى نفس الوقت توقف اندفاعها . . وسوف يحدث ذلك بعد ألوف ملايين السنين . . حتى تهدأ اندفاعات الكون أو تسكن وحيث تقع فريسة لجاذبية أكبر . . فينكفىء الكون ويتقلص ويتكيف ويصبح بقعا سوداء لانهاية لها . .

فكم مرة ياترى انطلق الكون ممزقا . . وكم مرة التام الكون مجمدا . . وكيف ؟

العلماء يسبتعدون كلمة (الله) ويرون أن الله كلمة غير علمية . . لأنهم ما داموا لايرونه ولايجرون حوارا معه ـ فلا مكان له فى هذا الكون ؟!

ولكن كيـف بدأ الكون ؟ ومـن الذى بدأ البـداية ؟ ومن الـذى أصدر القرار بالبداية . . ومن الذى أودع فى الاشيـاء قوانينها . . من الذى جعله مادة وغـازا وخلية . . ومن الـذى أعطى الخليـة حياتها . ومن الـذى نقل الخلية الواحدة إلى ألوف ملايين ملايين الخلايا فى ذبابة . . من الذى جعل للكون كله قوانين ونظريات . .

لابد أن نقول : الله . .

لامفر . فـلا يمكن للتراب أن يتحـول من تلقـاء نفسه إلى إنسـان . . فنحن جميعا من تراب النجوم . . ونحـن التراب الوحيد الذى يعرف هذه الحقيقة . . يعـرف أنه من تـراب وأنه إلى التراب يعود . . وأن الكـون لكى يعرف نفسه كان لابد أن يخرج من بين ذراته كائن عاقل هو الإنسان . .

وهكذا أجد نفسى مضطرا لأن أقـرأ كثيرا جدا لكى أتحدث عن التراب فقط . .

ولكن هذه معلومات عامـة . أما العلماء فلابد أن يتخصصوا فى أضيق نطاق . وهذا المكان الضيق ملئ بالنظريات والاجتهادات . .

ومن التخصص الضيق عزل العلماء بعضهـم عن بعض . .

وأصبح لدى الناس فراغ . .

وأصبح من مشاكلنا أن نتعلم ما الذى نفعله فى هذا الفراغ . .

الإنسان قبل عصر الزراعة كان عنـده وقت طويل . . لأنه يعتمد على ثمار الغابات . . وعلى الطيور . . فكان لابـد أن ينتظر ظهور الثمار وعودة الطيور . .

ولكن عندمـا وصلنا إلى عصر الزراعة امتلأ وقت الإنسـان بالعمل . . ولم يعد لديه وقت لأى شىء آخر . .

وعندما ظهـرت الآلات الحديثة ، احتلت مكان الإنسـان . . فأصبح هناك فراغ كثير . . وعاطلون أكثر . .

وفى عهد التطـور الصناعـى الهائل الآن سوف يحل الإنسـان الآلى محل الإنسان ولابد أن يواجـه البطالة بسبب ما اخترع الإنسان مـن أجهزة يقوم الواحـد منها بما يقـوم به ألوف النـاس معا . . فـالعقول الألكترونيـة تقوم بمعظم أعمال الإنسـان وفى لحظات . . فـالإنسان اخترعهـا لكى تختصره هو!

ولم يعـد الإنسـان ينتظـر انطبـاق قـوانين الطبيعـة على الأشيـاء ، إنـه يتعجلها . . وقد ظهر ذلك عندما اخترع الرجل اليابانى ميكوموتو طريقة للتعجيل بنمو حبات اللؤلؤ . . فحيوان اللـؤلؤ يحتاج ثلاث سنوات لكى يقدم لنا حبة كاملة . ومن لون واحد .

وقام هذا الرجل باختصار هذه العملية . . فحيوان اللؤلؤ عندما يأكل فإنه يفتح المحارة التى يعيش فيهـا ليدخل القليل من الغذاء ومن الماء . . ويحدث أن تـدخل ذرة صغيرة إلى جسمـه الناعـم الرقيـق جدا فتـؤلمه . . ويظل يفرز مادة فضية لكى تعزل هذا الجسم الغريب عن جسمه . . سنة وثلاثـا . فما كان من هذا الـرجل إلا أن وضع كرة صغيرة مـن الصدف فى جسـم هذا الحيـوان وتركـه معلقـا فى المياه الهادئة الـدافئـة ـ التـى أعدهـا خصيصا لذلك . . ولمئات الألوف من حيوانا ت اللؤلؤ . .

وكان ذلك نقطـة تحول فى الصناعة ـ عنـدما تدخل الإنسـان فى وظيفة الحيوان . .

وجاءت الهندسـة الوراثية فتدخـل الإنسان فى تركيبات الخلايـا النباتية والحيـوانية أيضـا . . وقد رأيـت فى جزيـرة تايـوان أنهم نجحوا فى تعظيـم تضخيم (السمك البلطى المصرى) . . فجعلوه أطول وأعرض وأكثر وزنا

وشحما ولحما . . ورأيتهم كيف حلوا مشكلة الجمبرى الذى يرزعونه وعندما يكبر ينطلق إلى المياه الدولية فيجد الصيادين من جميع أنحاء العالم فى انتظاره لأنه انتقل إلى المياه الدولية . . فتدخل علماء تايوان عن طريق الهندسة الوراثية وجعلوا الجمبرى عندما يكبر بدلا من أن يتجه إلى المياه الدولية يرجع إلى شواطىء تايوان ويدخل فى بحيرة صناعية كبرى !

ومنذ الثورة الصناعية والإنسان عنده متسع من الوقت . .

وجاءت ثورات العمال تحتم الإجازة الأسبوعية . . يوما أو يومين

ويقول عميد المؤرخين أرنولد توينبى إن أعظم حادث وقع فى أمريكا فى نصف هذا القرن أن السكرتيرات فى نيويورك رفضن العمل بأجر فى الإجازة الأسبوعية . وكان الرفض دليلا على أن الإجازة أهم من الفلوس . . وأن الراحة ضرورة . . أو أنها حق قانونى وضرورة اجتماعية . . وأن الواحدة منهن لاتبيع حريتها بأى ثمن . . وكان معنى ذلك أيضا أن أصحاب العمل يريدون شراء العامل بأى ثمن . !

وهناك فرق كبير بين أن تكون فى إجازة فعندك فراغ . . وبين أن تكون عاطلا وعندك فراغ . .

فالفراغ الأول مكافأة لك

والفراغ الثانى عقوبة لك . .

ومهمة التعليم والتربية الآن هى ما الذى يجب أن نفعله فى الفراغ . حتى لانترك الفراغ يفعل ما يشاء . .

وإذا كان الفراغ طويلا فإن قوى أخرى تملأ الفراغ . . لأن العقل لايقوى على البطالة . ولايقوى على البلادة . . فطبيعة العقل أن يفكر . فإذا لم يجد ما يفكر فيه ، اخترع ما يفكر فيه ، أو يسلط عليه من يدفع عقله للتفكير . . وبدلا من أن يكون هو الذى اختار مادة التفكير ، يختار

له آخرون . . والثمن أن يكون عبدا لهم ـ فقد أنقذوه من الضياع . . ولابد أن يدفع ثمنا لذلك !

فقد حدث حتى فى أمريكا عندما هرب الشباب من الجيش أو من الأسرة أو من المؤسسات أن يسقط هؤلاء الشباب ضحايا لأفكار سابقة التجهيز لتخريب الشباب . أو تخريب الدولة . .

وهذا ما حدث بالضبط عندما يجىء الشباب من الريف إلى القاهرة . العاصمة كبيرة مخيفة . فيشعرون بضآلتهم وضياعهم فيتلقفهم شبان آخرون عندهم حلول سريعة وجاهزة لمشاكلهم . . وينحرف الريفيون الوافدون إلى العاصمة . . وفى ذلك إهدار لحاضرهم ومستقبلهم .

لولا أنه حيوان جنسى ما عشت هذه البشرية !

الإنسان حيوان اجتماعى . .

وليس هو الحيوان الوحيد الاجتماعى ، وإنما هناك حيوانات أخرى كثيرة تعيش معا . . وتأكل معا وتصيد معا . . فالأسود تعيش على شكل عائلات صغيرة . . الأب والأم والأشبال . . الأم هى التى تقوم بالصيد وإطعام أسرتها الصغيرة . . والأب هو الذى يحمى الصغار عندما تغيب الأم ساعات أو أياما لكى تأتى بالفريسة . . والأسد أول من يأكل والأم آخر من يأكل . .

وقد تكون الأم وحدها مع صغارها . . أما الأب فقد مات أو تقدمت به السن . . وقد يحدث أن تتولى الأم تربية صغارها وصغار أم أخرى . . قد تجىء عدد من الأمهات تربين الصغار معا . .

وكذلك الذئاب . .

ولكن الإنسان لم يتطور اجتماعيا بدرجة كافية . . فمنذ عرف الإنسان تكوين الأسرة من مليون سنة أو أكثر فإنه ما يزال على صورة واحدة : الأب والأم والصغار . . ويوم بدأت الأسرة كان الإنسان يمسك حجرا يلقى به

على الحيـوانـات الأخـرى . . وكـان يمسـك عصـا يضرب بها الثمار فـوق الأشجار ، لكى تسقط على الأرض . .

ولكن هذا الحجر الـذى كان يمسكه قد تطور . . فأصبـح الحجر هو المسدس وهـو البندقية وهـو الصاروخ ذو الـرؤوس النووية . . لقـد تطور سلاح الإنسان . ولم يتطور الإنسان نفسه فالتكنـولوجيا وهى علم صناعة أدوات الإنسان قد قدم له مالا نهاية من أدوات الأكل والشرب والملابس

والانتقـالات بين السماء والأرض وتحت الأرض وتحت الماء . . وكـان الإنسان يصرخ ينـادى زملاءه . . ولم يعد الإنسان يصرخ . إنـه يهمس فى التليفون السلكى واللاسلكى . .

فهل الإنسـان اجتماعى أولا ، وإنسـان بعد ذلـك ؟ أوهو إنسـان أولا واجتماعى بعد ذلك !

إنه اجتماعـى أولا . ولولا أنـه كان اجتماعيـا ما كـان إنسانـا . . فهذا الترابـط بين الأب والأم والطفـل . . وهـذه العلاقـات التـى قـامـت على التماسك ومـواجهة الأعداء بين الحيوانـات وبين الآخرين . . مـا اكتسبت هذه القدرة على البقاء ومواجهة الأخطار وابتكار أساليب الاتصال والترابط والتفـاهـم . . كـاللغـة أو تبادل المصـالـح أو التكيـف مـع الظـروف أو مواجهتها أو التغلـب عليها . . لولا هذا مـا كان الإنسان إنسانـا . . ولو عاش وحده لا نقرض . . ولو رفض أن يكـون أبا أو يكون زوجا أن يحمى الزوجة والولد . . وأن يكون له كهف . . بيت . . أرض . . مستقلة يدافع عنها ليعيش هـو وتعيش ذريته ، ما كـان قادرا على أن يظل إنسانـا عاقلا ويزداد عقلا وقدرة على الفهم والإصرار على الحياة وابتكار أساليب الدفاع عن نفسـه وعن الـذى يملكه . . حتـى عندمـا يثور الإنسـان ضد الأسرة وضـد القيود الاجتماعيـة ، فإنـه يبنى أسرة مـن نوع آخـر . . ولكن يظـل

اجتماعيا . . فالشباب المعاصر الساخط الذى يرفض الأب والأم ماذا يفعل؟ انه يسارع بأن يكون أبا وأما من نوع آخر . . فتكون له أسرة صغيرة . . تعيش على الرصيف أو على أطراف الغابات أو فى الاصطبلات ، كما يحدث فى أمريكا . . وقد يرفض قيود الزواج . . وتكون له حياة بلا وثيقة . . ولكنه يظل أبا ويظل زوجا . .

فحتى عندما يثور على الأسرة يختار لنفسه أسرة ، وحتى عندما يثور على البنوة والأبوة معا ، يكون أبا وله أبناء . .

ولايزال المجتمع أقوى من الأفراد . .

ولذلك فمن الصعب تغييره . .

ولكن من السهل تغيير الأدوات التى يعيش بها المجتمع . . فالسكين التى كانت مصنوعة من الحجر أصبحت صواريخ . .

وكان الإنسان يمشى على قدميه . . أو يركب حصانا . . وأصبح الحصان سيارة وطيارة وسفنية فضاء . . وبقى الإنسان كما هو . .

بل من العجيب أن تجد أن أول إنسان نزل على سطح القمر قد علق فى رقبته (خرزة زرقاء) خوفا من الحسد . . وأعطته أمه (إيشارب) يضعه تحت البدلة الفضائية المكيفة الهواء والضغط حتى يعود إليها سالما . . أما هذا الإيشارب فقد ذهبت به أمه إلى عدد من الكنائس وباركت الإيشارب . . بينما هذا الرائد قد تسلطت عليه ألوف العقول الألكترونية ترصد دقات قلبه . . وأية قطرة عرق على وجهه . . فكل العلم الحديث مسخر لحماية حياة هذا الإنسان ذهابا إلى القمر وعودة منه . . وقد تكلفت هذه الرحلة ألوف الملايين من الدولارات من أجل سلامته . . بل من أجل تراب جزمته . . تراب القمر . . ومع ذلك ، فاعتقد هو وأمه أن الإيشارب هو الذى سوف ينقذ حياته من الموت !

فهو قد ركب أحدث ما اخترع العقل الإنسانى ، ووضع فى رقبته أول ما عرف الإنسان . . من الإيمان بالخرافة . . والعلم والخرافة فى سفينة واحدة . . والخرافة تدل على أن الإنسان نفسه لم يتطور ، وعلى أن أدوات الحياة والانتقال والاتصال هى التى تطورت وسوف تتطور إلى ما لانهاية !

ونحن كيف ندير المجتمع . . وكيف نتحكم فى العلاقات الاجتماعية؟

إن السياسة هى علم وفن إدارة العلاقات بين الناس . .

وهناك إدارة مباشرة . . كما يحدث فى الريف . . إنها الديموقراطية البدائية . . يجىء العمدة ويجمع الناس ويتفاهم معهم . . ويناقش ويأخذ الرأى ويحكم . .

وهذا ما يحدث فى المجتمعات الصغيرة . . ولكن فى المجتمعات الكبرى . . فى الدول . . لايمكن للحاكم أن يجمع الملايين ويناقش ويستمع إلى الرأى والرأى الآخر . . وإنما لابد من أن ينيب الناس عنهم من يتحدث باسمهم فى البرلمان . . فالمئات ينوبون عن الملايين . .

وهناك ديموقراطيات متعددة . . ومذاهب سياسية كثيرة . ولكن هذه الديموقراطيات محدودة وكذلك فلسفات الحكم . . والدساتير أيضا محدودة . .

وهذا يدل على أن التطور الاجتماعى محدود الأفق ضيق الرقعة . . أما التطور العلمى فلا حدود له . . إنه كل يوم يضيف جديدا . . فلا يزال الإنسان اليوم ، كما كان من ألوف السنين . .

والعلم قد ساعد على قوة الإنسان وعلى وفرة الطعام والشراب والملابس والخدمات . .

ولكن لم نكن نتصور أن العلم سوف يجعل الإنسان متوحشا مدمرا . . فقد كنا نحلم بالحب والرحمة والعدل والصداقة والمودة والسلام . . ولكن أصبحت الحرب هى القاعدة والسلام هو الاستثناء . .

وأصبح السلاح المميت فى كل بيت وفى كل سيارة . . وفى الليل والنهار ينطلق الرصاص على الأبرياء . . ولم يعد القتلة رجالا فقط وإنما الشبان والأطفال يقتلون أيضا .

بل إن الإنسان يرتضى الظلم ليشترى به الأمان والحياة . . فالناس يختارون من يحميهم مهما كان الثمن . . وقد رأينا فى أمريكا وفى مصر نماذج لذلك . . فرأينا فى مصر من يخيف الناس ثم يفرض عليهم نفسه لحمايتهم . . فهو الذى أخاف الناس وهو الذى روعهم ، ثم هو الذى فرض الحماية عليهم . . حدث ذلك فى مدينة امبابة . . عندما قام أحد الإرهابيين وادعى لنفسه دورا دينيا وأخاف الناس بعيدا عن عيون الأمن . . وكتم أنفاسهم وفرض عليهم أن يدفعوا له فلوسا وإلا . .

وكثير من الجماعات الإرهابية التى اتخذت شعارا دينياً . . استولوا على عقول الشبان السذج القادمين من الريف . . وأعطوهم المال والمسكن والزوجة . . وفرضوا عليهم حكما طاغيا . شىء عجيب . . فهؤلاء الشبان الصغار الذين رفضوا سيطرة الأب والأم والمدرس ، عندما جاءوا إلى القاهرة ارتضوا ما هو أكثر تسلطا من الأب والأم والمدرس . . رفضوا السلطة الأبوية ، وخضعوا للسلطة الإرهابية . .

وحدث فى أمريكا أيضا : أن ظهر نصابون أذكياء . . اعتمدوا على ضيق الشباب بسلطة الدولة والأسرة والمدرسة والكنيسة والمؤسسة ، وقدموا لهم نموذ جا من الحياة بلا قيود . . نموذجا للحياة بلا فلوس . . قدموا لهم طعاما مسروقا وشجعوهم على السرقة . . وحتى لايفكروا فى شىء قدموا

لهم المخدرات دخانا ومسحوقا وحقنا . . وغـاب الشباب عن الوعى وعن الفهم . . ثم قدموا لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . لافى مدن أمريكا ولكن فى غـاباتها . . لافى غاباتها وإنما فى حـاناتها . . وانتقلوا من أمـريكا الشمالية إلى الجنـوبية فى زوارق ودخلـوا غابات الأمـازون لالكى يبنـوا دنيا جديدة . . إنما ليقيموا لأنفسهم قبورا تخفى انتحارهم الجماعى !

ولكى يظهـر طاغيـة سياسـى أو نصاب دينـى ـ أى بـاسم الـدين أى دين . لابد من نظـرية . . هذه النظرية يؤمـن بها كثيرون . . ثم يقفز هذا الطاغية لحماية النظرية والمؤمنين بها . . وحماية نفسه وتأكيد ذاته على جثث الآخرين . .

فالشيوعية أفرزت لينين وستالين .

والفاشية قدمت موسولينى . .

والنازية قدمت هتلر . . .

والنظرية التـى تقول إن المجتمع أقوى ، معناها أن المجتمـع هو الذى يخلق تطور الإنسان أو يتحكم فى سرعـة التطور . . وأن المجتمع هو القوة المحـركة لكـل مـا هـو إنسانـى . . فهـو سبـب القوة وسبـب المرض . . والإنسان يحاول أن يغير ظروفه ويتغير هو أيضا . . فالإنسان الذي اخترع السيارة قد رصـف لها الشوارع ووضع لها علامـات المرور وجعل لها الورش والمصانع . .

ولكن هناك نظرية أخرى تقول : ليس المجتمع قادرا على كل شىء . . فالإنسان يولد فيكتب بيـده اليسرى . . وليس السبب اجتماعيا ولا عائليا ولاتربويـا . وإنما هى مسألة خلقيـة بكسر الخاء . . أى أن هناك شيئا فى المخ هو الذى يجعل الإنسان يكتب باليمنى أو باليسرى . .

والنظرية تقول أيضا إن الشذوذ الجنسى ليس سببه التربية الممزقة أو العلاقات الشاذة فى الطفولة . . وإنما الإنسان يولد شاذا أو يولد سويا . . فالسبب موجود فى المخ وليس خارج الإنسان . .

فالمجتمع ليس هو صانع الإنسان ، مزاياه وعيوبه . .

والتعليم والتربية والثقافة ما فدئدتها ؟ إنها تعطى الإنسان حرية الاختيار فالمتعلم هو الذى يختار والجاهل هو الذى لايختار والمتعلم هو الذى يمارس إرادته الحرة فى الاختيار . .

والطغيان معناه أن شخصا واحدا يختار للمجتمع أيضا . . فهو قد استولى على إرادة الجميع ، وبالنيابة عنهم وعلى الرغم منهم هو الذى يقرر وهو الذى يختار . . وعندما يفعل ذلك يكون قد ألغى التعليم وألغى التربية . . . فأصبح الناس جميعا وكأنهم جهلة مجانين لايختارون . . أو أصبحوا آلات بلا عقل ولا إرادة !

ونحن لانقول عن الأم التى تفرض على صغيرها كل شىء ، إنها أم طاغية . لأن الطاغية هو الذى تقوم إرادته بدور عصا موسى تأكل الأفاعى التى أطلقها الآخرون . . تلتهم حريات الآخرين . . ولكن الطفل لا إرادة له ولاحرية . . ولذلك تتولى الأم كل شىء لصالح الطفل . . وعندما ينمو الطفل تكبر شخصيته وإرادته . . ويختار لنفسه . . ويؤكد ذاته فيرفض ما تختاره الأم والأب . . وتدفعه حرية الاختيار إلى المعارضة والرفض والعناد . ويقف ضد الأب والأم . لا لأنه على صواب والآباء على خطأ . . ولكن لأن الصواب عنده هو أن يختار وأن يتمسك بقراره حتى لو كان خاطئا . فالصواب هو ما يراه والخطأ هو ما يراه الآخرون !

والإنسان بتكوينه متمرد . . رافض للقيود . .

ولكن لابد من الانضباط واحترام القانون . ولولا ذلك ما كانت حياة اجتماعية ، ولا كانت زراعة أو صناعة أو رخاء . وكل الحضارات القديمة التى ازدهرت كان السبب هو الانضباط وهو الاحترام الذى يبلغ درجة التقديس لكل ماهو قانون وكأن القانون هو الدين . .

حدث ذلك فى حضارة العراق وفى حضارة مصر الفرعونية . .

وهذا الحرص على النظام هو الذى حتم وجود رجال للأمن . هؤلاء الرجال قد دربناهم على مواجهة مواطنيهم وضربهم وقتلهم ، لا عن عداء شخصى . . ولكن باسم حماية الدستور والقانون . .

والإنسان إلى جانب أنه اجتماعى ، فهو حيوان جنسى أيضا . ومن غير جنس لا تكون حياة . فلابد أن تكون هناك علاقات جنسية ليتكاثر الإنسان . . بينما (الامبيا) وهى أحادية الخلية تتكاثر تلقائيا دون جنس . وهى لاتموت وإنما تنقسم وتنقسم إلى ما لانهاية . . ولو قدر لهذه الخلية أن تفكر وأن تقارن بينها وبين الإنسان لظنت أنها أعظم من الإنسان لأنها خالدة والإنسان ولد ليموت . .

ولكى يتحقق الجنس لابد أن تكون هناك جاذبية جنسية ـ أى ما يجذب الرجل نحو المرأة والعكس . . أى لابد من (نداء) الجنس . . وفى عالم الحيوان أيضا : نجد الذكر أكثر فخامة وأبهة :

انظر إلى الأسد وإلى الديك . .

وهناك وسائل كثيرة لجذب الجنس : بالألوان والعضلات والعطور وبالاستعراضات الراقصة أو الغنائية . .

ولكى يصلح الإنسان من الأوضاع الاجتماعية ، فلابد من تعديل دور المرأة . . أى المساواة بينها وبين الرجل ، فلا تظل مقهورة ولا تكون عبدا فى

خدمـة سى السيـد الرجل . . ولـذلك فكل المشروعـات الإصلاحيـة تبدأ بالمرأة . . وتبدأ بتحقيق المساواة والعدل وتكافؤ الفرص . .

ولكن ظـل الرجل هـو الأقوى عضليـا وهو الأقوى عقليـا . . إما لأن تكويـن الرجل هـو الذى جعله أقوى . . أو هـى وظيفة الرجـل فى الحياة وحمايـة الأسرة والعمل . . وربما كـان الحمـل والولادة والـرضـاع كلها قـد جعلت المرأة أضعف . . ولانه الأقوى كان الأكثـر تفوقا وإبداعا وبقاء فى القمة . .

ولكن العلـم الحديث قـد جرد الرجل من هذا السلطـان فالعضلات لم تعد ميزة مـن مزاياه . . فالأجهـزة الحديثة أصبحت تقوم بكـل العمل . . وأصبحت فى خدمة المرأة فأعطتها القوة التى سلبها الرجل منها . .

وفى الأسـاطير الإغريقيـة نجـد أن نوعـا مـن النسـاء اسمهن : بنـات الأمازون . . أو الأمازونيات ـ أى الـلاتى ليست لهن أثداء . . والمرأة لكى تكون قوية وحتى لا تكون أما تحمل وتـرضع فقد قطعت ثدييها . . لتكون لها قـوة الرجـل ولكـى تجرد نفسها مـن ضعـف الأم الحامـل والأم الوالـدة والمرضعة . .

ومن عشر سنوات تظاهرت النساء فى نيويورك يطالبن بالمساواة بالرجل فكشفن عن صـدورهن . . والمعنى : إذا كان الرجـل يرى أن المرأة ليست إلا صدرا ناهدا . . فهى لاتهتم بذلك . . وتكشف عنه . فإذا كانت هذه هى نقطـة ضعفها فهى فى غنـى عنها . . ولايهمها كثيرا إن كـان ذلك يثير الرجل يثير رغبتـه أو يثير احتقاره . . إن الأثداء ليست مـن اختيارها وإنما هى مفـروضة عليها . . وهـى ترفض ذلك . . وفى نفـس الوقت تعـرضها مجانا لكل الناس . . فهى أولا وقبل كل شـىء إنسان له حقوق الرجل . . وليست إنسـانا لمجرد متعـة الرجل . . فقد وضعهـا الرجل فى هـذا الإطار ألوف السنين . . لقد جعلها (شيئا) لذيذا . . لمجرد أن لها نهدين بارزين

والأمازونيات كائنات أسطورية لا وجود لها . . ولكن المعنى الذى قصده الإغريق هو الذى يهم . . إن المرأة كانت مشكلتها دائما أنها أضعف من الرجل ، وأن الرجل يريدها كذلك . . وهى ترفض هذا الذل والهوان . .

والمرأة هى التى اخترعت الزراعة وهى التى أقامت البيت . . فعندما كان الرجل يصيد الوحوش فى الغابات ، كان الوقت متسعا أمام المرأة . . فهى التى سوت الأرض وزرعتها . . ولأنها الأم . . ولأنها تخاف على وليدها ، فهى التى أحاطت نفسها بالأحجار وفروع الشجر . . وكان ذلك أول بيت فى التاريخ . . وفى غفلة من المرأة صنع الرجل للباب ترباسا وقفلا وحبسها وراء الباب ألوف السنين . . فتأخرت أو توقفت وتقدم الرجل وانطلق إلى قمة كل علم وفن . . ولم يصل إلى القمة من النساء إلا القليلات . .

سؤال : هل سبب تخلف المرأة أنها أنثى . . أنها أم تحمل وتلد وترضع؟ هل هذا هو السبب ؟ هل لو وجدنا وسيلة أخرى لأن تحمل المرأة صناعيا . دون حاجة إلى الرجل ، أو هل لو استطعنا أن نربى الأطفال فى الأنابيب دون حاجة إلى المرأة ، هل يؤدى ذلك إلى تقدم المرأة وتفوقها ؟

إن الرجل يرفض إلغاء دوره نهائيا . . يرفض أن يجرد نفسه من الإنسانية . . من الحب والحنان والإعجاب . . والمرأة أيضا ترفض ألا تشعر بالأمومة . . وألا تشعر بالأنوثة . .

وإذا كانت علوم الهندسة الوراثية قد تمكنت عن طريق التعديل والتبديل فى تكون الخلايا فنجحت فى تخليق نباتات وحيوانات جديدة ، فإن الإنسان يخاف من تخليق كائنات متوحشة . . أو تخليق سلوكيات لا إنسانية . . إن هذه المغامرات العلمية تجعل الإنسان يشعر بالعار . . والخزى والخجل من نفسه . . بالخوف على إنسانيته التاريخية . .

لقد حاولت إسرائيل عن طريق بناء المستوطنات أن تجرد الأطفال الصغار من التعلق بالأم وذلك بأن يعتاد على وجود أطفال بلا أمهات وان توجد مربيات . . وأن تراه الأم مرة كل أسبوع . . وألا تحمل له هدايا . حتى لايمتاز عن غيره من الأطفال . . وحتى يتحرر الطفل تماما من الارتباط بالأم ، وتتحرر الأم تماما من الاتباط بابنها . .

ولكن هذه التجربة فشلت . . فقد خلقت أطفالا فى غاية التعاسة . . وآباء أيضا . فالذى يربط الطفل بأمه ، والأم بطفلها هو أعمق مشاعر الإنسانية . . هذه المشاعر العميقة هى التى أبقت على الأسرة نفسها . . أما تجفيف عواطف الطفل والأبوين ، فهو تجريد للإنسان من إنسانيته . . ومن أنبل وأروع مشاعره . .

وفى اليابان تجربة مريرة . فهم فى اليابان يدفعون بالطفل الصغير إلى الرجولة المبكرة . . فهم بسرعة يحولونه إلى رجل صغير يعمل . ولم تكن اليابان تعرف إلا أخيرا أن اختصار طفولة الطفل تضاعف حزنه وخشونته وتعاسته أيضا . . فاليابان التى تسعد أطفال العالم بما لانهاية له من اللعب الألكترونية ليس عندها أطفال يلعبون . . أو إنها الدولة التى تضم أتعس أطفال العالم . . ولذلك استدركت اليابان بسرعة هذه الغلطة وأسعدت أطفالها حتى يكون نموهم طبيعيا . . من أطفال إلى شبان صغار إلى شبان إلى رجال ورجال ناضجين . . والذى لم يلعب صغيرا سوف يلعب كبيرا . .

ولايزال العلم الحديث المتطور يلغى المسافات بين القارات وبين الكواكب وبين الرجل والمرأة أيضا . . ويلاحق الجميع بتعديلات جديدة . . مثلا عندما أصبحت الكتابة على الآلة وعلى الكومبيوتر من احتكار المرأة . . كان لابد للمرأة أن تقص أظافرها . ولكنها تحب أن تكون

أظافرها طويلة فاخترعنا لها أظافر صناعية ورموشاصناعية وشعرا صناعيا ، حتى تقوم بعملها دون خوف على ملامح المرأة التى تعجب الرجل . . ومن المهم عندها أن يعجب بها الرجل ، وأن تعجب به هى أيضا . . وأن يكون من نتيجة الإعجاب المتبادل حب عميق يسفر عن طفل واثنين وثلاثة . . وهكـذا يكون الحب شرط بنـاء الأسرة . . ويكـون الاحترام المتبادل ، هـو سور وأبـواب ونوافذ الأسرة التى عمـرها مئات الألوف مـن السنين لتعيش مئات الملايين . مادام الإنسان حيوانا جنسيا !

من آدم وحوّاء
إلى حرب النجوم !

فى البدء كانت الفضيحة . .

كان الشعور بـالفضيحة . . فقد كانت فى الجنة شجـرة محرمة . ولكن الشيطان ضحك على حواء التى ضحكت على آدم ، فأكل الاثنان منها . . وفجـأة اكتشفـا أنهما عـاريـان تمامـا . . فـراح الاثنـان يتغطيـان بـأوراق الشجر . .

وبسبب هذه المعصية نزلا إلى الأرض . . أى بعد أن افتضح أمرهما . . وبعد أن ظهرا عـاريين تماما كان لابد أن يخرجـا من الجنة ويكفرا عـن هذه الغلطـة . . هذه الخطيئـة . . وكانـت حياتهما . . وحيـاتنا . . على هـذه الأرض تكفيرا وتطهيرا واستمرارا فى الخطايا والتكفير عنها . .

وعندما قتل قابيل أخاه هابيل . سئل : كيف حدث ذلك ؟

قال ما معناه : وهل أنا حارس لأخى ؟ . .

يعنى لا أعـرف من الذى قتله . ولم يكـن غيرهما فى هذه الدنيـا . فهو القاتل .

وترك جثمان أخيه مكشوفا . . فجاء غراب ودفن غرابا قد مات . . وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقل فهما من الغراب . .

وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم . فسجدوا . . إلا إبليس ، وكان كبير الملائكة ، رفض لأنه مصنوع من النور ، وآدم مصنوع من التراب . والنور أشرف من التراب . ولكن فوجىء بأن آدم أهم عند الله من إبليس . . وأن آدم له العقل والقلب وحب المعرفة والقدرة على التطوير والإبداع . . وأهم من ذلك أنه ولد ليموت . . فالحياة بلا موت قاسية . . فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى الإنسان الموت لأنه أرحم من الحياة . .

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان لأنه يموت . . أما هم فلا يموتون . . فحياتهم مملة . . بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشرا ليتمتعوا باللذات البشرية . . فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس خالدا . والخلود حياة واحدة مملة .

وشعر إبليس بأنه مفضوح . . بأنه جاهل . . بأنه مغرور . . وأن آدم قد مسح به التراب الذى خرج منه . . وأنه رغم التراب أشرف عند الله . .

وقد رأيت فى فيلم (الكتاب المقدس) الذى كتبه الشاعر الإنجليزى كريستوفر فراى وقامت ببطولته صوفيا لورين . . رأيت أن دم هابيل بن آدم قد تسلل إلى مياه الأنهار ليشربه كل أولاد آدم بعد ذلك . . فتكون الخطيئة فى دمهم . . فالإنسان مخطىء . وحياته خطيئة . ومحاولة هروبه من الخطيئة التى لها أول وليس لها آخر . .

ولولا فضيحتك أنت شخصياً لكانت حياة جارك مملة . . فأنت متعته التى لا تنتهى .

وقد تكون الفضيحة لحظة . . كأن يسقط منك بنطلونك فى حفلة عامة !

وقد تكـون الفضيحة عشرات السنين كأن يسقط البنطلـون والجاكتة . الشيوعية عـن كل الدول التى كانـت جزءا من الإمبراطوريـة السوفيتية . . فقد جـاء الزعيم جـورباتشوف وفضـح الانحلال والانتهازيـة والمخدرات والفساد الشيـوعى . . فسقطـت الشيوعيـة بعد سبعين سنـة من الممارسـة العنيفة . . وتفككت الدول التى كانت مربوطة بالحديد والنار والخوف . . فكـان الاتحاد السوفيتـى مثل الطـائر ايكـاروس الذى ألصقـوا الريـش فى جناحيه بالشمع . . فلما اقترب من الشمس تساقط كل الريش . . وتحطم ايكاروس كذلك كل الدول الشيوعية !

فهى أكبر فضحية مذهبية سياسية اجتماعية فى التاريخ . .

أذكر أننى عندما كنت فى انـدونيسيا سنة ١٩٥٩ قرأت فى الصحف أن الدولـة قد أبطلت الأوراق الماليـة من فئة المائة والخمسين روبيـة . فى تلك اللحظـة قفـزت مـن المقعـد إلى الجلـوس على الأرض ، فهـذا هـو المكـان المناسـب لواحد خسر كل مـالديه مـن مال . . تماما مثل ايكـاروس الذى سقط . . فقد سقطت . . وأحسست أننى عريان وبلا غطاء . . ولا أمل فى غطاء . . واكتشفـت أننى غلطان . فقـد نصحونى أن احتفـظ بأوراق ذات فئات صغيرة . ولكن اخترت الفئات الكبيرة حتى لا يتكوم ويتكدس الورق فى جيبى . . ولكن ماذا كـان يحدث لو تكدس الورق أو تكوم ؟ إنها غلطة وفضحيـة ذكاء فقد تـوهمت أننى أذكى وأننـى أقدر وأبعد نظـرا من الآخرين . فكانت هذه النتيجة . .

ومـن الممكن أن تكـون فضحية دوليـة . . فوزيـر الدفـاع البريطانـى بروفومو الذى يملك أسرار الحرب والسلاح والمخـابرات . هذا الرجل كان عشيقا لواحدة جميلة . . هذه العشيقة ، كانت عشيقة للملحق العسكرى الروسى . . فكانت أسرار بريطـانيا فى جيب الملحق العسكرى . فضيحة ما بعدهـا فضيحة . وانكشف ضعف الـرجل أمام الجميع . . وضـاعت أسرار بريطانيا بسبب ذلك !

إنها ليست فضحية رجل ولا فضيحة وزير ، ولكن عار دولة من أولها لآخرها . . وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وأئتمنه على سر وجوده !

وغير بروفومو كثيرون مثل الرئيس كيندى والرئيس نيكسون وولى عهد بريطانيا . .

وهناك فضحية عصر . .

فشاعرنا العظيم المتنبى كان يعيش على مدح الخلفاء والأمراء . . إن أعطوه مدحهم ، إن منعوه شتمهم . . ثم يذهب إلى آخرين يمدح ويقدح . .

وكان المتنبى وهو أعظم شعراء العرب ، عاطلا . . صناعته الشعر . . وسلعته المدح والهجاء . .

وحياة المتنبى فضحية لزمانه كله . . فالشعر لا ثمن له والشاعر العظيم لا قدر له . . وإنما الشعر زينة الخلفاء والأمراء . . أما الشاعر نفسه فلاشىء لا هو قادر على طبع ديوان له . . ولو فعل فإن الديوان لايساوى وزنه ترابا . . وهكذا عاش مئات الشعراء عاطلين . وليس العيب فيهم . ولكن العيب فى زمانهم . . وليس نظم الشعر فى أى غرض فضيحة لهم . . ولكنه فضحية العصر كله . .

والمقامات هى تأكيد لذلك . .

ففى مقامات بديع الزمان الهمزانى ومقامات الحريرى . . نجد البطل رجلا يتظاهر بالفقر ويبهر الناس بعلمه ويضحكهم لكى يعطوه . . وهو يرتزق بعد أن يجعل نفسه أراجوزا بليغا فصيحا . . ثم يكتشف الناس أنه أبو زيد السروجى . . أو أبو الفتح السكندرى الذى يصف نفسه قائلا :

تعارجت لا رغبة فى العرج
ولكن لأفرغ باب الفرج
وأحمل حبلى على غاربى
وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لا منى القوم قلت اعذروا
فليس على أعرج من حرج

فالرجل ليس أعرج ، ولكنه يتعارج . . وليس بهلوانا ، ولكنه يفتعل ذلك !

فليس الأدب ولا الشعر ولا البلاغة ولا الفصاحة ، ولكن إضحاك الناس وإثارتهم ليكتشفوا أنه خدعهم وضحك عليهم . . وهم ينتظرون ذلك . ويطلبون منه المزيد فى خداعهم . . وإلا فلن يعطوه مالا . .

ويسمى هذا الأسلوب فى التحايل على الرزق : الكدية . .

وهذا شأن الظرفاء فى الأدب والشعر . . ليس الأدب وليس الشعر ولكن (الكدية) أى التكسب بالأدب وبالشعر . . أى بأن يبذل الشاعر ماء وجهه من أجل الرغيف والكساء . .

ولم يعرف الأدب العربى رجلا تعيسا مثل (أبو حيان التوحيدى) فهو دميم مثل الحريرى والجاحظ والبحترى وسقراط . . وهو كافر بالدنيا وبالناس لأنه لايجد لقمةإلا إذا بهر الناس بعلمه وحكاياته . . فإذا لم يفعل مات على باب الخليفة أو الأمير ـ منتهى الهوان . وفى نفس الوقت فضيحة لكل الناس ولكل العصر !

وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر كان يشعر بأنه سيد الأرض . والأرض مركز الكون ، إذن هو سيد الكون . . فالشمس تدور

حول الأرض . . والنجوم فى السماء عبارة عن (ترتر) فى ثوب الفضاء . . خلقها الله ليتفرج عليها الإنسان ويمتع ناظريه . . والفضاء أزرق لأن هذا اللون يريح العين . .

فالكون كله من أجل الإنسان . .

وظهرت نظريات فى الفلك تؤكد أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . . وأن الشمس تدور حول نفسها . .

وأن الشمس بها فتحات تتسع لخمسين كرة أرضية . . وأننا نعيش فى منظومة . . إنها المنظومة الشمسية التى هى عبارة عن تسعة كواكب تدور حول نجم واحد هو الشمس . . وإن هناك أقماراً تدور حول هذه الكواكب يبلغ عددها ٥٤ قمرا . . وإن الشمس ليست إلا نجما واحدا ضمن ثلاثة آلاف مليون نجم آخر فى منظومة اسمها المجرة . . وإن فى الكون ألوف الملايين من المجرات . .

يعنى أن الأرض ليست مركز الكون . . وأن الإنسان ليس سيد الكون . . وظهرت نظرية تقول : إن الكون لو كان فى مساحة استاد القاهرة فإن المجرة التى نعيش فيها ليست إلا كرة بنج بنج عند حافة الاستاد . .

وإن الإنسان ظهر على الأرض متأخرا جدا جدا . . فالأرض عمرها أربعة آلاف مليون سنة . .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة . . أى أن الله خلق الكون فى الدقيقة الأولى من أول يناير ، فإن الإنسان يكون قد ظهر على سطح الأرض فى الدقيقية ١١ ,٥٧ مساء من ليلة ٣١ ديسمبر !

إنها فضيحة كونية فلكية للإنسان . . فليس هو المقصود من هذا الكون . . وليس هو مركز الكون ولاهو سيد الأكوان . . وإنما واحد من

الحيوانات العاقلة التى سكنت الأرض . . ونحن لا نعرف إن كانت هناك حضارات قبلنا على الأرض . . ولانعرف أيضا إن كان هذا الكون الذى عمره ١٦ ألف مليون سنة هو الكون الوحيد . . أو إن الله خلق أكوانا وأفناها ثم أنشأ غيرها . . فلا أنا سيد الكون ولا الأرض مركز الكون . . لا هذا الكون هو الكون الوحيد الذى خلقه الله . . ثم إن هذا الإنسان الذى يولد ويموت ويخترع كل يوم شيئا جديدا ، لم يجد علاجا للانفلونزا . . ولم يعرف بعد سر الخلية الصغيرة التى يتكون منها النبات والحيوان والإنسان . . ولا هو قادر على أن يطيل عمره وأن يمنع عنه الموت . .

إلى هذه الدرجة قد تجرد الإنسان من كل أزيائه الكاذبة وعظمته الوهمية . . ووقف عاريا أمام نفسه : إنه عاقل عاجز ويقوم بتعويض هذا العجز بادعاء السعادة والأستاذية والخلود !

وظهرت نظريات تقول إن الإنسان أصله قرد . . لأنه شديد الشبه بالقرد . . ولكن هناك حلقة مفقودة ـ هذه الحلقة هى فترة تطور القرد إلى إنسان . . هذه الحلقة هي التى لا نعرف كيف نهتدى إليها . .

وجاءت نظريات تؤكد أن القرد وإن كان شبيها بالإنسان إلا أنهما ليسا من أصل واحد . . أى أن النظرية تقول إن الإنسان ليس سيد الكائنات . . وإنما هو واحد من الحيوانات قد تطور . .

ثم إن الحياة ممكنة على كواكب أخرى فى هذه المجرة التى يعيش فيها . .

وفى هذه المجرة ألوف ملايين ملايين الكواكب مثل الأرض . . وليس بعيدا عن العقل أن تكون بها كائنات أعقل أو فى مثل عقلنا . ولكننا لا نعرف . .

وظهرت الماركسية التى ترى الإنسان حيوانا عاملا . . حيوانا مثل كل الحيوانات الأخرى . . وعقله مثل أنياب وأظافر الحيوانات الأخرى . وهو

يستخدم أظافره العقلية وأنيابه فى الحياة الاقتصادية والمسيطرة على أدوات الإنتاج والإنتاج . .

فليس هناك عقل ولا نفس . . وإنما الإنسان جهاز به عمليات كيمائية لا تتوقف . ومن هذه التفاعلات الكيماوية يكون النشاط الفكرى والفنى . . ويجب أن نحشد الناس تماما كأنهم قطيع . . وأن نضع لهم أنياباً وأظافر ليدافعوا عن الرغيف وعن مكانهم فى المجتمع وفى الدنيا أيضا . .

حيوانات نحن ؟ نعم . وأقل من ذلك . .

أما الدول غير الشيوعية فهى تنصب على الناس وتخدعهم بأن تقدم لهم المخدرات . . أى الدين . . فالدين أفيون الشعوب . والغرض من الدين هو حماية أموال وثروات الأغنياء . وفى نفس الوقت هناك وعد قاطع بتعويض الفقراء عن جوعهم يوم القيامة . . وكل ذلك أكاذيب ـ اخترعتها الرأسمالية والإقطاع معا لتسخير الناس وحشدهم للدفاع عن الأغنياء . .

ولذلك فالشيوعية تجرد الناس من هذا الأفيون وتأخذ من الأغنياء اللصوص ـ فكل الأغنياء لصوص ـ وتعطى أموالهم للفقراء . . بل وتلغى حق أى إنسان فى أن يملك . . فالكل أمام القانون فقراء . .

طبقة واحدة من الجياع الأذلاء العراة . .

وسقطت الشيوعية ، وأحس الناس أنهم مغفلون . .

وقبل أن تسقط الشيوعية شعرنا نحن فى الدول الأخرى أن الإنسان هو مزيج من العظمة والمعرفة . . وأنه يموت جوعا ولايمد يده ، وأنه من أجل الكرامة يدفع أى ثمن . . وأهون ثمن يدفعه هو حياته ـ كنا نقول ذلك

لأنفسنا ولغيرنا . ولكـن عندما جاءت الشيـوعية شعر الغرب كلـه والعالم الغربى ، بأن الشيوعيـة فضحت الإنسان . . فقـد هدمت مشـاعره . . وإيمانه بكـرامة الإنسان وعظمة الإنسـان . . ففى الدول الشيوعيـة مئات الملايين يعيشون بلا كرامة ولا عظمة . .

فليس الإنسان دائما ومهما كـانت الظروف مزيجا من العبقريـة والكرامة والكبرياء ؟ !

إنها فضيحة لنا جميعا شرقا وغربا !!

ثم جاءت مدارس التحليل النفسى تؤكد لنا أننا حيوانات من الداخل والخارج . . والإنسان للإنسان ذئب وكلب وحمار . .

فالذى فعلته مدارس التحليـل النفسى أنها كشفت أعماق الإنسان . . فـإذا هى مظلمـة . . وإذا الإنسان شرس متـوحش لا رحمة معـه ولا رحمة عنـده . . وإن التعليم والثقـافة والحضـارة كلهـا ليست إلا تقليما وتهذيبـا لأظافر ومخالب الإنسان . . وتركيباً للفرامل على كل مشاعره . .

وفى الدنيـا يقتل الابن أبـاه ، والأم ابنها . . وتقـوم المجازر دفاعـا عن المذهب وعن الدين . . وتقـوم الحروب بين الشعوب التى تستخدم أعظم ما وصـل إليه الإنسـان من علـم فى تحقيق أحـط مشاعـر الإنسان وأحقـر رغباته .

والناس فى الحروب كـالسكير الذى يـدخل البار . . إنـه بكامـل قواه العقلية ذهـب لكى يفقدها ويقـع فى الأرض ويتمرغ ويقول : أنـا مبسوط كده !

وفى الحروب يستخدم الإنسان كـل أدوات القتال . . أحدثها وأكثـرها تطوراً وقدرة على التدمير . . ويتباهى بـذلك . . ثم يحارب ويقتل الألوف

ويموت منه الألوف . . وفى نفس الوقت تدق الطبول والموسيقى تغنيا بالحرب المقدسة دفاعا عن الأرض المقدسة . . وإن هذه هى إرادة الشعوب التى هى إرادة الله . . أى إن القتل كان باسم الله . . والموت هنا وهناك دفاع عن شريعة الله . . وهكذا ترى أن القاتل شهيد والقتيل أيضا . .

وكلها تفضح وحشية الإنسان ، مهما كانت عقيدته ومهما كانت طبوله ومهما كان سلاحه . .

وفى حياتنا اليومية أحداث صغيرة . ولأنها صغيرة فإننا لانلتفت إليها .

وبذلك لا نستخرج معانيها العميقة . أى التى فى أعماقنا ثم خرجت ، ليكون خروجها فاضحا لنا . .

تقول الأدبية الوجودية سيمون دى بوفوار إن الشعب الفرنسى قد فضح نفسه عندما أحب برجيت باردو وجعلها ملكة للإغراء والفتنة . . فالذى ينظر إلى هذه الفاتنة يجدها طفلة . . عيناها وشفتاها ودلعها . . كلها تؤكد طفولتها . ومعنى ذلك أن الشعب الفرنسى قد أحب طفلا . ولم يحب أنثى ناضجة . لقد أكد ذلك فساد ذوق الفرنسيين وشذوذهم أيضا ! لقد فضحوا أنفسهم . . أكدوا لنا دون أن يدروا بأنهم شواذ . . وأنهم مرضى . !

وقالت أيضا : إن شباب فرنسا قد فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف طوابير بالألوف يتفرج على تابوت توت ـ عنخ ـ آمون . ذلك الملك الطفل . والذى لاقيمة له فى تاريخ بلاده . وإنما هو صاحب المقبرة الوحيدة التى اكتشفوها سليمة . فالمقبرة هى التى وهبته الشهرة والحياة . . والشباب الفرنسى وقف مفتونا بما يرى . . لماذا ؟ لأن الشباب الفرنسى يتفرج على نفسه ، فالملك توت طفل . . وهو صاحب التابوت الوحيد الذى لم يجد فيه الباحثون عضو الذكر . . بينما كل التوابيت الفرعونية قد

بقى لأصحابها هذا العضو . . إلا توت عنخ آمون . . فهو نموذج للعجز الذى عند الشباب الفرنسى . وكأن حب الشبان للملك توت ، هو حبهم لأنفسهم . . وكشف لهم . . لحقيقتيهم الجسمية والنفسية !

وأشهر فضيحتين فى الأدبين القديم والحديث فضحية لوكريشيا والتى اتخذها الأدباء والشعراء والرسامون موضوعا لهم . . ومن أحسن الذين تناولوا فضيحة لوكريشيا الأديب الفرنسى جان جيرودو عميد المسرح الفرنسى . فكتب مسرحية بعنوان (من أجل لوكرس) . وقد ترجمتها أنا إلى العربية بعنوان : (من أجل سواد عينيها) . .

ثم فضيحة أفستاسيا فى مسرحية للأديب السويسرى ديرنيات بعنوان (زيارة السيدة العجوز) . . وقد ترجمتها أيضا إلى العربية وبنفس الاسم . وقد ظهرت على الشاشة بعنوان (الزيارة) . .

أما لوكريشيا فتقول الأساطير القديمة إنها كانت سيدة فاضلة . وإنها كانت حديث المدينة كلها . . وكان زوجها كوتيلوس فى إحدى الحانات يباهى أصدقاءه بجمال وفضيلة زوجته . . وفى نفس الوقت يتحدى الأصدقاء أن يجد الواحد منهم زوجته الآن فى وضع محترم . . وتضايق الأصدقاء . وذهب كل واحد إلى بيته ليجد امرأته فى حضن رجل آخر . . إلا لوكريشيا فقد كانت ترتب فراشها وتطهو طعامها . . وقد تضايق أحد الأمراء من ذلك . وقرر أن يمرغ لوكريشيا هى وزوجها فى الوحل . . فهى جميلة وهى فاضلة وهى مصدر غيظ وضيق لكل الزوجات . فذهب إليها وفى يده خنجر . وهددها . وهدد حياتها إذا لم تستسلم له فسوف يقتل خادمها الزنجى ويقتلها ويلقى به فوقها . . ويقول للناس إنها كانت تخون زوجها ، وإنه لذلك قتلها . فاستسلمت له وذهبت لوكريشيا إلى زوجها وطلبت إليه أن يدعو أربعة من أصدقائه . واعترفت لهم بما حدث . وإنها لاتستطيع أن تعيش لحظة واحدة بعد هذا الاغتصاب . وإنها تريد أن يظل

اسمها رمزا للشرف . . ثم انتحرت . ونهض زوجها وأخرج السيف من بطنها وقرر الانتقام . .

وفى مسرحية جان جيرودو تتفق جميع الزوجات على قضاء يوم خارج المدينة . . وذهب كل الأزواج وكل الزوجات . . إلا لوكريشيا التى تترفع عن مشاركة هذه الزوجات المنحلات ولكن الزوجات دبرن لها كارثة . . فقد بعثن برجل إليها فى البيت . . وأخبرن زوجها بأن يدرك زوجته التى تخونه . . وذهب ووجد هذا الرجل . .

وكان الهدف أن تصبح لوكريشيا منحطة سافلة كبقية النساء . . ولم تفلح المكيدة . . فلم تنحط امرأة ، وإنما انحطت مدينة كلها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى لوكريشيا . . الرجال عاجزون عن تقويم النساء . . والنساء لم يفضحن واحدة منهن ، وإنما فضحن كل النساء وكل الرجال !

أما فضيحة انستاسيا بطلة (زيارة السيدة العجوز) . . فقد كانت تحب رجلا . والرجل فى إحدى القرى والقرية فقيرة جدا . وهى غنية جدا . وجاءت تنتقم . . كانت اتوبيساتها محملة بالبضائع والطعام وأشبعت الشعب وأسعدته . . ثم تقدمت بمطالبها وهى إعدام الرجل الذى خانها وهجرها وحطم قلبها . . وإلا منعت عنهم المال والطعام . . وراحت القرية تحفر قبرا للرجل ، والناس ذهابا وإيابا يشاهدون القبر . . بل إن الرجل الذى جاءت تنتقم منه قد شاهد أهل بلده يحفرون له قبرا . .

إنها امرأة جبارة جاءت تنتقم مستخدمة ضعف الناس وعجزهم وحاجتهم إلى الطعام أكثر من تظاهرهم بالرحمة والشفقة والكبرياء . .

فالمرأة العجوز لم تفضح شخصاً واحداً . . وإنما فضحت مدينة كاملة . . فضحت ضعفها وعجزها . . وجعلت الناس يتوارون خجلا من أنفسهم : إذ كيف يحفرون قبرا لرجل ما يزال حيا ، ولأن امرأة جاءت تصفى حسابها العاطفى معه . . كيف يفعلون ذلك دون خجل ؟!

والجواب : الرغيف أقوى . .

إنها الفضيحة : إنه الشعور بالعار والعرى . . فى مرآتك أنت أو مرآة الشعب . . أو مرآة كل الشعوب . .

إنه شعور بالخجل والعجز لحظة . . أو ملايين اللحظات . .

ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يقع فى الفضيحة . . وأن يتجاوزها . . ليقع فى واحدة أخرى ويتجاوزها بعد أن يكون قد عبر عنها واتخذها عبرة . . ولكن الإنسان ينسى . . ولا يثبت على حال .

قال الشاعر القديم :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه

وما سمى القلب إلا أنه ينقلب !

فالإنسان ينسى . . وقلبه ينقلب وعقله يبحث عن الغطاء ، وكما صنع الغطاء فإنه يسقطه . . ليضع غيره وهكذا .

فمن فضيحة آدم وحواء فى الجنة إلى فضيحة أمريكا وروسيا فى حرب النجوم . .

فقد كنا نظن أن سفن الفضاء والكواكب الأخرى والتسابق عليها . . إنما هما من أجل البحث عن مكان أهدأ وكوكب أجمل . . سموا بالإنسان وعلوا بمشاعره ، وحرصاً على الحياة الأهدأ والأجمل على أرض غير هذه الأرض . .

وفجأة اكتشفنا أننا فقط إنما نغير مواقع القتال وبنفس الأسلحة ولنفس الأهداف !

إنها فضيحة على أعلى المستويات الفلكية !

هل نعود إلى الوجودية ؟!
يجب أن أخفف من وقع كلمة «الوجودية»

فالوجودية هى النظرية الفلسفية والأدبية التى تهتم اهتماما بالغا بمعنى وجـود الإنسان . . أى بمعنـى أن يكون الإنسـان مـوجودا . . أى يكـون واعيا لوجوده . وأن يكون إنسانا .

ولكى يكون إنسانا يجب أن يكون حـرا . وأن يكون حرا معناه أن يكون مسئولا عن كل قرار ورأى يتخذهما لنفسه ولغيره من الناس .

وقد يبدو هذا كلاما عاديا . .

ولكن عندما يؤكد الإنسان لنفسه أنه إنسان ، وأنه لذلك حر . . فلابد أن يكون هناك سبب قوى يجعله يؤكد هذه المعانى

أما السبب القوى فهو أن هذه الفلسفة الوجودية قد ظهرت فى أعقاب الانهيـارات النفسيـة والقـوميـة . . بعـد الحرب السبعينيـة وبعـد الحربين العالميتين الأولى والثانية وبعد الحروب العربية الإسرائيلية . .

ففى أعقاب هذه الحروب أحس الإنسان أن كـرامته أهدرت أنه لم يعد حـرا ، ولا قـادرا على ذلـك . . فقـد انهارت كـل المثـل العليـا للحيـاة الاجتماعيـة والسيـاسيـة والعسكـرية والأخـلاقيـة . . فعلى أنقـاض هـذه

الانهيارات راح يقيم لنفسه بيوتا وأكواخا صغيرة . . وكهوفا أيضا مثل البارات والحانات والنوادى الليلية . . أو إنه لم يعد قادرا على أن يبنى ما انهدم . . ولذلك قرر أن يبقى أنقاضا تعيش على أنقاض . .

إذن هذه النظرية الوجودية جمعت خيوطها وألوانها وأحجامها وأوزانها من أنقاض كل الأحلام الجميلة التى صنعها الإنسان لنفسه فى الفلسفة وفى الأدب وفى الفن . .

فكانت هذه الفلسفة مثل قوس قزح الذى يلمع كلما ازداد ـ السحاب سوادا وقتامة . .

فهى أولا تعبر عن الحاضر الأليم . .

وهى ثانيا تحاول أن تتجاوز هذا الحاضر وذلك بوصف الحاضر وتحليله وإعطائه الشرعية الواقعية . . أى تهوينه على الناس . . أو بأن تجمله وتزفه للناس . . كأنه شىء جديد . . لعل الناس يتقبلونه ويتقبلون أنفسهم أيضا . . فهو نوع من زفاف الحاضر بملابسه وموسيقاه . . ثم دفنه بعد ذلك . . تماما كما كان الفراعنة يفعلون فى أعياد « وفاء النيل » يجملون فتاة صغيرة ويزفونها للنيل . . بإلقائها فى أحضانه لعله يفيض سعادة على الناس . . فقد أعطوه بعضهم ، ليعطيهم كله . . فهم إذن يجملونها بقصد القضاء عليها . . وهذا هو جوهر المسرح . . فالمسرح يعرض للناس حال الناس . . ويضحكهم على أنفسهم أو يبكيهم . . ومن هذا التأثير القوى على الناس يتخلص الناس من عيوب الناس . . وهذا هو الذى يسمى فى المسرح بالتطهير . . أى تطهير الناس من عيوبهم بتصويرها لهم . . والمبالغة فيها . . فيشعر المتفرج بالخجل أمامها . . وفى نفس الوقت يشعر الناس بأنهم أقوى من الألم . . وبهذا الشعور يتجاوز الناس عيوبهم ويتخطونها . . فكأن الفن يجمل العيوب أملا فى القضاء عليها . .

وكذلك فعلت الوجودية فى أعقاب الكوارث الإنسانية : عبرت عنها وعبرتها أيضا . . عبرت عن عذاب الإنسان وعبرت بالإنسان فوق الألم . .

وكان ذلك أقوى ما يكون بعد الحرب العالمية الثانية . .

فى ألمانيا ظهرت أصول الفلسفات المعاصره كلها . . المثالية والماركسية والظاهريات والوجودية . .

وهى كلمات من الممكن أن أعود إلى توضيحها إذا شاء أحد من السادة القراء . .

والفلسفة الوجودية ظهرت فى ألمانيا . . التى أشعلت معظم الحروب الأوروبية . فكان عليها أن توضح ماذا حدث . . وماذا أصاب الناس فى ألمانيا وفى فرنسا و إيطاليا واسبانيا وروسيا . . وفى مصر أيضا .

وانتقلت الوجودية إلينا فى مصر . .

وعندما جاءت كنا طلبة صغارا . بهرتنا معانيها ومراحيها . . واختلفنا حولها . فذهب بعضنا إلى أقصى اليسار ، وبعضنا إلى أقصى اليمين . . وبعضنا آثر أن يتوقف فى الوسط يعلق الحكم على كل شىء . . فلم تكن معانيها واضحة لدينا تماما . وأشياء أخرى كثيرة لم تكن مفهومة ولاكنا قادرين على الإحاطة بها . .

والفضل فى الدعوة إلى الوجودية يرجع إلى د . عبد الرحمن بدوى أستاذنا فى ذلك الوقت . فهو الذى قدم الفسلفة الوجودية الألمانية وهو الذى ترجم كل مفرداتها الصعبة . . وراح ينحت لها الكلمات ، أو يجد لها مرادفات فى الفلسفة الإسلامية القديمة . .

وهذه الفلسفة الوجودية التى درسناها فى أواخر الأربعينات ودرسناها فى الجامعة فى الخمسينات والستينات ، كانت أنسب النظريات المعاصرة

فى التعبير عن الحيرة التى غشيتنا واستغرقتنا وأغرقتنا . وقد صورت هذه الحيرة والقلق حيرتى وقلقى وجيلى كله فى بعض كتبى : وداعا أيها الملل . .

طلع البدر علينا . .

فى صالون العقاد . .

وإلا قليلا . . (فكتابى عن العقاد ، كان فى الحقيقة عنى وعن جيلى فى مواجهة العقاد وطه حسين والحكيم ولطفى السيد وسلامة موسى وغيرهم . . وأذكر أن الأستاذ الحكيم كان يكتب مذكراته فى مجلة « أكتوبر» التى أنشأتها ورأست تحريرها . . وفى نفس الوقت بدأت أكتب فى حلقات صالون العقاد . وفوجئت به قد توقف عن نشر مذكراته . . ولما سألته قال : لقد أضحكتنى على نفسى . . فأنا أعبث وأداعب القراء . . وأنت تسجل أعماق العذاب والقلق فى جيلك . . أنت جاد وأنا هازل . . العقاد عملاق وأنا بهلوان !!

ولم أفلح فى إقناعه بأن يعود إلى الكتابة حتى مات !

وعلى الرغم من أن الأستاذ العقاد قد هاجم الفلسفة الوجودية ، وسخر كثيرا منى ومن غيرى من الأدباء الوجوديين . . فلم نغضب منه . فهو أستاذنا وله مدرسة فى النقد والأدب والفلسفة مختلفة . وليس من الضرورى أن نكون من مدرسة واحدة . . ولم نتفق .

وأصدرت أول كتاب لى عن الفلسفة الوجودية فى سنة ١٩٥٠ . . وقبل هذا الكتاب أصدرت عددا كاملاً من مجلة « الرسالة الجديدة » التى كان يرأس تحريرها الأستاذ يوسف السباعى . ونفد هذا الكتاب فى ساعات . . أكثر من خمسين ألف نسخة . فقد جاء كتابى هذا ، تبسيطا شديدا للنظرية الوجودية عند الفلاسفة الألمان والفرنسيين والاسبان والإيطاليين والروس .

وفى ذلك الوقت كان المثقفون ينظرون إلى الوجودية على أنها «موضة» أو تقليعة . .

ولما جاءت المطربة الفرنسية جولييت جريكو إلى القاهرة ، ورأى الناس أنها ترتدى الملابس السوداء وتنكش شعرها وتشرب وترقص وتدخن وصوتها غليظ ظنوا أن هذه هى الوجودية فأصبحت ملابسها وشعرها موضه بنات الذوات . . وساعدهم على ذلك العديد من الشخصيات التى ظهرت فى روايات ومسرحيات الفلاسفة الوجوديين الفرنسيين : جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار والبيركامى وجبريل مارسيل والفيلسوف الاسبانى أونا مونو . . والنماذج الأدبية التى اختارها عميد الفلسفة الوجودية الألمانية : مارتن هيدجر . . والتى ظهرت فى روايات الأديب البرتو مورافيا . .

ولكن النماذج التى ظهرت فى أعقاب الحرب . . فكما أن هناك بيوتا قد انهدمت فهناك عقول وقلوب أيضا . . وكما أن اللون الأسود هو الذى يعقب الغارات الجوية والحرائق ، فكذلك الظلم والظلام واليأس والرغبة فى الموت والخوف الذى يلازم كل المحاربين القدماء والمشوهين والأسرى والجرحى واليتامى والأيامى والأرامل . . فهى - إذن ليست دعوة لان يكون الناس كذلك . . ولا أن تكون البيوت والقرى والمدن . . وإنما هو تصوير عميق لما حدث ، أملا فى ألا يحدث . . وأملا فى تعميق الشعور بالذنب والخطيئة ، فلا تشتعل حرب . . وحتى لايموت عشرات الملايين وتتشوه مئات الملايين جسميا ونفسيا . .

فنحن لانصف طبيبا بأنه انهزامى لانه لايلتقى إلا بالمرضى والمتوجعين والباكين

ولا نقول للقمر وللنجوم فى السماء إنها تريد الليل أن يستمر حتى تظل لامعة متألقة .

يقول مصطفى صادق الرافعى :

يامن على البعد ينسانا ونذكره

لسوف تذكرنا يوما وننساكا

إن الظلام الذى يجلوك يا قمر

له صباح متى تدركه أخفاكا

وفى بريطانيا وأمريكا اتخذ التعبير عن الألم شكلا آخر - وإن كانت كل هذه الأشكال الأدبية « تسقى من ماء واحد » - هو كرامة الإنسان أو إهدار كرامة الإنسان . . فالإنسان كرامة . وإذا أهدر الإنسان فلا كرامة له . . ولكن لأنه إنسان فهو لن يقبل الظلم . وهو من أجل ذلك يقيد حريته من أجل أن يحصل على مزيد من الحرية كالذى يحرم نفسه من الطعام ليزداد رشاقة وقدرة على الحركة . . فهو يجوع ليصح . .

فالتاريخ الإنسانى كله ليس إلا مسرحا للحرية . . أى لنشدان الحرية فالإنسان حريص على أن يضاعف نصيبه من التحرر . . التحرر من الخوف ومن الجوع والظلم والجهل والمرض . فالإنسان يجلس على تاريخه كما يجلس الكانجرو على ذيله . . وتاريخه هو حريته . . ومزيد من حريته . .

ففى بريطانيا ظهرت مدرسة أدبية هى فرع على شجرة الوجودية اسمها مدرسة « الشبان الساخطون » . . وهذه المدرسة ترفع شعارا : إن الإنسان هو الحيوان الغاضب من نفسه ومن أجلها . . فهو يغضب من ضعفه ومن عزلته ومن قهره ، حتى يكون أقوى وأكثر مسئولية وأسمى كرامة . . أما الوحش الذى يلتهم الإنسان فهو المؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات . . إنها هذه المؤسسات هى « الحوت » الذى ابتلع يونس عليه

السلام . . ابتلعه ولم يقتله . . ولم يقض علي لحمه وشحمه ودمه . . فالله سبحانه قد أنقذ يونس عليه السلام . . وقد أنقذه لأن يونس قد نادى ربه . . أى اختار القيم والمبادىء الرفيعة . . فهى طوق النجاة الذى انجاه من الموت ومن الماء إلى الشاطىء وهى المظلة الواقية التى هبطت به إلى الأرض سالما . . وفى القرآن الكريم « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه » فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » .

ولكن الشبان الغاضبين طلبوا النجاة . ولكن لانجاة . . ولا عاصم اليوم من أمر ربى . . فطوفان المشاكل الإنسانية والسياسية والاقتصادية التى اجتاحت العالم كله ، من الصعب أن ننجو منها بطوق أو مظلة أو فى بطن الحوت . .

وفى أمريكا ظهر شبان آخرون اتخذوا لهم اسما آخر هو « الشبان الصاخبون » وكانت ثورة الأدباء الأمريكان أساسها : أن الفرد ضائع فى الدولة العظمى الغنية فهو ليس إلا مسمارا صغيرا فى آلة جبارة . . لابد أن ينضبط وأن يرتبط . . وأن يكون عضوا له رقم وخانة ودوسيه وملف فى هيئة ما . . وإذا لم يفعل مات جوعا وهوانا . . فهو وحده لاشىء ، وهو فى مؤسسة ما شىء ما . . فالمجتمع جهاز قوى والفرد ليس إلا قطعة غيار . . والحياة للجهاز وللشركة والمؤسسة . . أما الفرد ـ فهو يجىء ضمنا . . وكل إنسان قطعة غيار تظل فى موقعها ما دامت تؤدى دورا فإذا عجزت عن هذا الدور أتوا بقطعة غيار أخرى . . ولذلك كانت ثورة الأدباء على هذه الميكانيكية والآلية . وعلى أن يكون الإنسان لا إنسانا . . وأن يقبل ذلك وإلا مات جوعا . . فلكى يعيش لابد أن ينكر ذاته . . وألا يكون إنسانا . .

وعرفت أوروبا وآسيا وأمريكا أشكالا وألوانا من الاحتجاج على القديم المستمر فكانت الخنافس وغيرها من الأسماء الأخرى . . التى احتجت على

السلوك والـزى التقليدى . . وأنـا أول من أطلـق كلمة الخنـافس هـذه فى الستينات . وهى ترجمة خاطئة وقعـت فيها . . ولكن حاولت أن أصلحها بعد ذلـك فلم أفلح . . وظهرت مـوسيقى وأغانـى الخنافس التى كـانت احتجاجا على سيطرة الموسيقى الأمريكية على أوروبا وظهرت الفساتين فوق الركبـة وانتشرت من بـريطانيا إلى العـالم كله ، وكـان ذلك احتجـاجا على سيطرة فرنسا على الأناقة فى العالم . .

وكانت لى جلسات طويلة مع الأديب السويسرى ديرنيات . . والأديب الإيطالى مورافيا والفيلسوف الألمانى هيدجر . . فما وجدت أنا أيضا تفسيرا مـريحا ، ولا حلا عـاجـلا لماكنا فيـه فى مصر ـــ إننـى أتحدث عن شبـاب المفكريـن والأدباء . . وكانت الـردود كأنها تقول : احمدوا ربنا على مـا أنتم فيه . . يكفى انكـم تشعرون وتقلقون وتعبرون . . عندكم أمل فى الحل . .

وتحيرنا بين المذاهـب فى الفلسفة وفى الأدب وفى الـدين . . وتحيرنا بحثا عن وجهة . . وعن طريق . . وطـال البحث وتعددت الطرق ، وسرنا كل واحد فى طريق . .

وتعـذبنا عـذاب الملـك الأسطورى تنتـالـوس . . ذلـك الملك الغنـى العظيم الـذى أحبته آلهة الإغـريق . . غير أنـه ضاق بـالآلهة فقد وجـدها سعيدة ـــ بتعذيبهـا للإنسـان ـ وهـو إنسان . فـراح يفشى أسرار الآلهة إلى الإنسان لعل الإنسان أن يقف فى وجهها وأن يكون كريما على نفسه . . وأن يكون قـادرا على أن يتحرر مـن ربقة القيـود الجامدة لآلهة الإغـريق أو مـن ضعفـه وعجزه وعمـره ـ المحـدود . . فانتقـم من الآلهة بـأن نقل أسرارهـا وأخبارها إلى الإنسان . . أسرار قوتها وسيطرتها . . وانتقمت منه الآلهة . . وكان انتقام الآلهة أشنع وأبشع فقد وضعوه فى نهر من أنهار جهنم . . وكلما ارتفع الماء إلى شفتيه وحـاول أن يبل ريقه ، انحسر الماء إلى قدميـه . . فإذا رفع رأسه تـدلى غصن شجرة تفاح ولامســت التفاحة شفتيه فـإذا حاول أن

يأكلها ارتفعت التفاحة بعيدا . . فإذا أغمض عينيه جاء حجر كبير يهدر من قمة الجبل وينحط بسرعة هائلة وسط دوى عظيم ويقف فجأة ملامسا لشعر رأسه . . ويعود الماء والتفاح والأحجار . . وإلى الأبد . . وكذلك حاول الإنسان أن يعرف سر ضعفه وسر قوته . . حاول ـ وظهرت عشرات الاجتهادات . . ومد يده ولم يجد شيئا يريح العين والأذن والعقل والقلب . . فكل شيء عنده ، وكأن شيئا ليس عنده . . وسط الماء ولايشرب ، تحت الثمار ولا يأكل ، فى مهب الصخور ولايهدأ . .

ووقف الإنسان حائرا عاجزا . .

يقول الفيلسوف الوجودى هيدجر وهو يصف حيرته وصبره الطويل أمام الحقيقة : لقد وقفت حانى الرأس أمام سيدتى ، وانتظرت أن تجود على بشىء فلم تفعل !

فالناس أمام الحقيقة ثلاثة :

واحد ينتمى إليها . .

وواحد لاينتمى . .

وواحد يدور حول نفسه . . حتى لايرى ولايسمع ولا يفكر . . أو يهرب منها أو يغيب عنها . .

أو بعبارة أخرى : إن الانسان فى مواجهة أية مشكلة :

إما أن يدخل فيها

وإما أن يخرج منها

وإما أن يتسلل إليها . .

والناس إما مع الجديد . . وإما ضد الجديد وإما يتسللون لصوصا إليه . .

أو إما يتقدمـون الحقيقة . . وإما يسيرون إلى جوارهـا . . وإما يمشون وراءها . .

المهم أن تظل الحقيقة على مرأى ومسمـع منهم ، لايتجاهلونها . وإنما يحاولون أن يروها مـن زوايا مختلفة . لعلهم أن يفهموا ويحللوا . فـإذا عرفوا قالوا . . وإذا قالوا عرفناهم . .

وكان الفيلسوف العظيـم سقراط إذا وجد واحدا من تلامـذته لا يسأل ولا يتكلم قال له : تكلم حتى أراك !

فالذى له رأى له رؤية . .

فالرأى والرؤية والنظرة والنظرية بمعنى واحد . .

ويضيع من قدمى الطريق ـ قالها الشاعر كامل الشناوى . .

والشعراء أسبقنا إلى الحس العميق والمعنى الجميل . .

ووقد ضاعت من أقدامنا الطريق . . وضاعت أقدامنا أيضا . .

وسادنا شعـور بأنه لامعنى لشىء ولاقيمة ولاهـدف ولا أمل فى أحد أو شىء وهـذه جميعا مفردات لمعنى كلمـة فلسفية واحدة هـى : العبث . . فالعبث ليس هو اللعب . .

لأن اللعـب له قـواعـد . . فكرة القـدم لعـب . . لها قـواعد وأصـول واجتهادات ولها قضاة والجمهور هو المحلفون . . ومباريات كرة القدم هى محاكمات علنية وهى لعب . . ولكنه لعب له قواعد ونظريات وتاريخ ككل الفنون الجادة . .

أما العبث فمعناه الفلسفى : ألا يكون هناك معنى لشىء . . ألا تكون قاعدة . . وألا تكون جدوى لشىء أو من شىء . .

وانتقل إلينا العبث من المسارح الفرنسية بصفة خاصة . .

فالمسرح الفرنسى عندما عرض عشرات من مسرحيات العبث . . كان يقصد أنهم فى فرنسا قد فقدوا الأمل فى أى شىء . . فالناس ينتظرون فى المحطات ولكن قطارا لايجىء . . ينتظرون الرحمة ، ولكن أحدا لايرحم . . والألفاظ فلا لغة . . ولاتعبير . . لأن التعبير معناه أن أجعل المعنى يعبر منى إليك فالتعبير والعبور بمعنى واحد . . وما دمنا لم نتفق على معنى كلمة واحدة ، فإننى لا أستطيع أن أنقلها إليك . . فلا لغة . . ولا حوار . ولذلك جاءت مسرحيات العبث تضم أناسا يتكلمون ويسمعون بعضهم البعض . . ولكنهم يكلمون أنفسهم على مسمع من الآخرين . .

وظهرت مسرحية « يا طالع الشجرة » لتوفيق الحكيم .

وكما سخر الأستاذ العقاد من الوجودية . . سخر طه حسين من مسرح العبث . فقال لى طه حسين : إن توفيق الحكيم لم يأت بجديد . . فالأدب ـ الفرنسى عرف شعراء مثل فيرلين ولوتريامون ورامبو . . وهم جميعا كانوا يهذون بكلام له وزن وقافية وهو هذيان موسيقى . . وكذلك توفيق الحكيم!

وبقى العقاد وطه حسين فى أبراجهما العالية التقليدية . . أما توفيق الحكيم فكان معاصرا ، وكان أسرعهم تعبيرا عن الواقع المصرى بعد الهزيمة العسكرية التى عصفت بآمال وأحلام الناس . . وكأنها سحبت الغطاء الذهبى لكل عملاتهم ومعاملاتهم . . ففلوسهم ورق . . وثراؤهم إفلاس . . مادى وروحى !

وكان العبث المسرحى فى الستينات حزينا مؤلما قاتما . . فالأشخاص على المسرح فى غاية الحزن والهم والغم . . يحدثون أنفسهم ولا أحد يرد ولا أحد يسمع . .

فالذى يقولون لامعنى له . .

والذين يسمعون لايفعلون شيئا . فقط يرون حالهم ويزدادون حزنا على ما أصابهم . . مرة خارج المسرح . . مرة أخرى فى المسرح . .

ويشعرون كأنهم على باب جهنم التى وصفها لنا الشاعر الإيطالى دانتى . . فكتب على بابها هذه العبارة : أيها الداخلون اتركوا وراءكم أى أمل فى النجاة وكأن هذه العبارة كانت منقوشة على باب كل مسرح وكل بيت وكل ضمير !

ولكن انتقلنا فى السبعينات والثمانينات إلى نوع آخر من « العبث » . . إنه العبث الضاحك . . فكل المسارح تضحك على المتفرجين . . وهى فى نفس الوقت تضحك على نفسها . . عندما تفضح عيوبنا محكومين وحاكمين . . وتتسابق المسارح فى المبالغة فى عيوب المتفرجين . . والمتفرجون راضون عن كل ذلك . . فهم يسمعون ويضحكون . ولكنهم لايذهبون إلى أبعد من ذلك . . أى أن الذى يسمعونه لاجدوى منه . . لافائدة . . وأنه كلام بلامعنى . . وكأنه ليس مطلوبا من أحد أن يعمل شيئا فكأنه لاسمع ولا رأى . . أو كأنه عندما سمع ورأى لم يفهم . .

فكأننا فى العشرين عاما الماضية اتفقنا على أن نذهب إلى المسارح فى حالة إغماء شديد . . فالذى يبكينا كالذى يضحكنا . . كلاهما عاجز عن أن يجعلنا نفعل ما هو أكثر من ذلك فى إصلاح حالنا . .

وفى العبث الحزين والعبث الضاحك يتعذب المتفرج بالبكاء على نفسه وبالسخرية منها . . فهو فى الحالتين قد بالغ فى إهانة الإنسان . . وكرامة الإنسان فى إغراق المشاهد فى دموعه ، باكيا أو ضاحكا . .

وقد طال بكاء الإنسان على نفسه ، وطال أيضا احتقاره لها . .

ولابد من أن يتوقف وأن يلتفت إلى نفسه وإلى الذين حوله . . وأن يتدارك نفسه . . وأن ينتشل نفسه من أساه ومن هوانه ومن بهلوانيته . .

وإلا طال هذا الحال . . وتجمدنا . . وتقدمتنا الدنيا كلها . .

وعند الجرمان أسطورة تانهويسر الذى عاش فى أحضان الإلهة فينوس طويلا وانشغل عن أداء ما طلبته الآلهة منه . . وطال سهره وسكره ولهوه . وضاق بنفسه واستشرى فيه الملل . . فخرج إلى سطح الأرض يطلب العفو من البابا . . ولكن البابا قال له : لن أغفر لك إلا إذا أزهرت هذه العصا التى فى يدى !

ونظر تانهويسر إلى عصا البابا الذهبية المرصعة بالماس ورأى أن هذا هو المستحيل . . ولكن بعد يومين ظهرت الزهور فى عصا البابا . . معجزة فجعل البابا يبحث عنه . . ولكن اليأس كان قد أعاد تانهويسر إلى حيث كان . . إلى مباذله فى أحضان فينوس تحت الأرض !

فلابد أن نصدر عفوا عن أنفسنا وأن نتسامح وبسرعة حتى لا نعود إلى ماكنا فيه . . أو نبقى على ما نحن عليه . .

وهذا العفو هو رد اعتبار الإنسان لنفسه وبيده وبقلمه وبأغانيه ومسارحه وكان توفيق الحكيم ينظر وراءه فى غضب وأمامه فى يأس . .

أما الغضب فنعم . وأما اليأس فلا . .

فى سنة ١٨١٨ ظهر فى ألمانيا كتاب للفيلسوف الألمانى شوبنهور . الكتاب اسمه « العالم كإرادة وفكرة » . . والفيلسوف فى هذا الكتاب يحتقر إيمان الإنسان بالتقدم . . أى إيمان الإنسان بالإنسان . . فهو يرى أن الإنسان حيوان يحاول أن ينسى أنه حيوان . . وأن غريزة الحياة قد سخرته من أجل أن تمتد الحياة . . فلا حب ولاكرامة . . وإنما جنس يدفع الذكور

لأن تخدع الإناث من أجـل أن يجيء الأطفال باسم الحب وتمتـد الحياة . . هذا كل ما هناك !

وعندما أعطى الفيلسوف كتابه هذا لأمير الشعراء الألمان جيته ، أعاده فى اليوم التالى قائلا له : إذا أردت أن تجعل للـدنيا قيمة ، فاجعل لنفسك قيمة !

والشاعر يقول :

ومن لايكرم نفسه لايكرم

فإن لم نسترد كرامتنا بأيدينا وبأحلامنا وأقلامنا ، سوف نظل هكذا . . موتى بلا قبور . .

وقد كان المزاج العام فى أوروبا فى أوائل القرن التـاسع عشر حزينا كئيبا فانتحر أدباء وشعراء أو ماتوا وهم يحلمون بذلك :

شيلى وبيرون وكينس ونـوفـاليس وتيـك ولـرمنتـوف وليـوبـوردى وبوشكين . . ولكـن الحضارة الغربيـة بما فيها من حيـوية وقوة إبـداعية . انتشلت نفسها بنفسها بـأصابع العباقره من أبنائهـا : هيجو وهينة وابسن ودكنز وتولستوى ودستويفكى وداروين وغيرهـم . .

فلم يطـل عذاب الضمير الأوروبـى . . ولكن بسرعـة شخصوا الـداء ووجدوا الـدواء استعدادا لمغـامرات فكـرية وسيـاسية وعسكـرية وعلميـة جديدة . .

لكن داءنا نحـن طال واستشرى واستقر . . والذى يبكينا بـالأمس هو نفسه الذى يضحكنا اليوم . .

وإذا كانت الوجودية قد أسرفـت فى الكلام عن الفردية والحرية والقلق والموت فـلأن هذه المبـالغة دليـل على عمـق هذه المعـانى . . ودليـل على

إحساسنا بخطورتها على مسيرتنا . . على افتقادنا لكل ما يضيء ويريح . . افتقادنا إلى الحرية والفردية وإلى الحل وإلى الطريق . . وإلى أن نجد أنفسنا . . وإلى أقدامنا وأن نجد الطريق تحتها والهدف فى النهاية . .

فكلما أكثرنا من الحديث عن الحرية والفردية ، كان ذلك دليلا على حاجتنا إليهما وخوفنا على القليل منهما ألا يكون ، وأملا فى الكثير منهما أن يحقق لنا وبنا وجودنا الإنسانى . .

وعندما قيل للأديب الإنجليزى برنارد شو : إنك تتحدث كثيرا عن المال بينما يتحدث صديقك هـ . ج ولزعن الأخلاق ، أجاب كل واحد منا يتحدث عن الذى ينقصه !

فنحن نتحدث كثيرا وطويلا وعميقا عن الذى ينقصنا . .

وفى الأساطير الإغريقية أن الفتاة أريان قد أنقذت حبيبها من المتاهة بأن أمسكت خيطا وتبعها إلى خارج ألوف الحجرات . . إلى الحرية . .

ولم يعد ينقصنا أن نجد هذا الخيط . . وأن يصح العزم وتصدق الرغبة فى النجاة من اليأس ومن فقدان الأمل فى الخروج . .

إننا فى مصر نحاول أن نملأ أيدى الشباب بتراب مصر . . بواقع مصر فنعطى كل أسرة شابة مساحة من الأرض . . موقعا على خريطة الوطن . . قطعة من الواقع . . قطعة من الملكية . . قطعة من الكرامة . . قطعة من الوجود . .

ولكن قبل هذه المساحة من الواقع يجب أن نؤكد لكل شاب أن الأصابع التى يمسك بها أرضه ، هى أصابعه هو . . وأن ذراعه هى ذراعه هو . . وأن الذى يملكه حق له . . فليست الأرض هى التى تملكه . . ولكنه هو الذى يملك الأرض . . فهى أرضه وهى عرضه أيضا . ونحن

بذلك نعالج مشكلة جوهرية فى مصر . . فقد جاء علينا حين من الدهر كان فيه الذين لايملكون هم الذين يدافعون ويحاربون ويموتون عن الذين يملكون . . فنحن الآن نريد للكل أن يملك ، وللكل أن يدافع عن الذى يملكه من أرضه ومن وطنه ومن شرفه الذى هو رأسماله . . وفى نفس الوقت مبرر هذا الوجود . .

فلننظر وراءنا فى غضب ، فليكن . . فقد كان فى ماضينا ما يستوجب الغضب عليه وعلينا . . ولكن بعد أن عرفنا ماذا حدث وكيف . . يجب أن نرفع الجلسة التاريخية . . ونغلق الملفات القديمة . وأن نوقف الماضى عند حده . . حتى لايزحف على حاضرنا كما تزحف الصحراء على الأرض المزروعة .

وأن ننظر إلى الأمام فى أمل . .

ففى أيدينا وفى عيوننا ما يستحق أن نسعد به . . وأن نحرص عليه . .

وفى هذه الدنيا دول أدمنت المستقبل : أمريكا وروسيا واليابان وكذلك الغد . . وإلى الكواكب الأخرى . .

واتخذ الماضى صورا فنية واستقر فى المتاحف . . أما المستقبل فله قلاع أخرى هى المصانع والمعامل والحقول . . وهى البيوت الشابة وهى الأسواق والمنافسة المتجددة . .

وكما ننظر إلى طفولتنا ونبتسم فكذلك يجب أن ننظر إلى ماضينا . . لقد انتهى وتحولت ألوانه الصارخة إلى ألوان باهتة ، أو لابد أن تكون . .

ويجب أن نتواصى بأن نترفق بأنفسنا وأن نحترمها وأن نقيل أنفسنا من عثراتنا . . وألا ننظر وراءنا طويلا فيصيبنا ما أصاب زوجة لوط عليه السلام . . حذروها ألا تنظر وراءها ولكنها نظرت فتحولت إلى تمثال من الملح ـ كما تحدثنا التوراة . .

أو ما حدث للبطل الأسطورى أورفيوس . . فقد ماتت زوجته بلدغة ثعبان فراح يتوسل إلى الآلهة أن يراها . . فوعدوه وكان لهم شرط ألا ينظر وراءه حتى يخرجا من تحت الأرض . ولكنه لم يستطع . فنظر وراءه فاختفت الزوجة . .

إنها دعوة للأدب والفلسفة والدين أن تقدم العون فتنقذ جيلا من جيل وتستخرج الحياة من هذا الموت . . والمستقبل من براثن الماضى . . ولنتوقف عن التهام شبابنا وقودا لماضينا . . وقد آن الأوان . . اليوم وليس غدا . .

فى انتظار نوح!

قرأنا وحفظنا أن نوحا عليه السلام ظـل يدعو قومه ٩٥٠ عاما . تعب تعذب . كفر بهم لأنهم كفروا به . فطلب من الله أن يهلكهم جميعا فهم لا يستحقون هذه الحياة . فألهمه الله أن قومه لايستحقون إلا الموت . وأن الله سوف يقضى عليهم . وألهم نوحا بـأنه سوف يغرق الأرض ومـن عليها . ولن ينجو من عذاب الله إلا المؤمنون بـه . وكانوا من أهله . . ويقال كان عددهـم ثمانية . . نـوح وزوجته وأولاده الثلاثـة وزوجاتهم . ويقـال كان عددهم ثمانين .

واستراح نوح إلى هذا العقاب الذى يستحقه أهله . وطلب إليه الله أن يـزرع شجرة . وزرع الشجـرة ونمت وأزهـرت وطـالت فـروعها . وعـاش أربعين عاما . وأمره الله أن يقطعها وأن يصنع منها السفينة . . لكى يكون مادة للسخرية . فقد كانـت السفينة على الأرض بعيدا عن البحر . كيف يجرها إليه أو كيف يجر البحر ليأتـى إليها . . وأحس الناس أنهم كانوا على حق فى الكفر به . . لأنه رجل يبنـى سفينة على الأرض وليس على شاطىء البحر . وسقطت الأمطار غزيرة . وهربـت الحيوانات إلى نوح . وأمره الله أن يأخذ من كل زوجين اثنين . وكانت السفينة مـن ثلاثة طوابق. الطابق الأعلى للطيور والطابق الأوسط له ولأسرته . والطابق السفلى للحيوانات . . وقد مات لنوح واحد من أبنائه قبل الطوفان .

ولما جاء الطوفان رفض أحد أبنائه أن يركب مع والده . وقرر أن يسبح بعيدا عن السفينة لأنه سيأوى إلى جبل . أى جبل . وحذره أبوه . ولكنه لم يستمع النصيحة . فغرق .

وفى نفس الوقت كانت هناك أم عندها طفل رضيع . هربت به إلى أحد الجبال . . وكلما ارتفع الماء صعدت إلى أعلى الجبل . . ومازال الماء يطاردها وهى ترفع طفلها بذراعيها إلى ما فوق رأسها عند قمة الجبل . . وأدركها الماء حتى غرقت وكذلك طفلها . إنها تقاوم القدر . فالقدر أن يموت كل أولاد آدم . ولتبدأ البشرية من جديد بأولاد نوح . . فنوح هو آدم الجديد . . أو آدم الثانى . .

وسقطت الأمطار أربعين يوما . وكان نوح فى مدينة الكوفة أو البصرة . . وظلت السفينة تسبح فوق الموج . . ثم استقرت على جبل الجودى الذى هو الآن جبل أرارات على حدود أرمينا وتركيا . ومن السفينة أطلق نوح حمامة وبعد أيام عادت وفى قدميها وحل . . أى أنها وقفت على الأرض . . ثم أطلق غرابا . وعاد الغراب فى منقاره غصن زيتون . . إذن هناك أرض . وهناك أشجار . . ونزل نوح وأولاده وبنوا قرية اسمها قرية الثمانية . .

انتهت قصة نوح . قصة الذين كفروا بالرسالة واستحقوا العقاب . وقصة صاحب الدعوة الذى أنقذ البشرية بإهلاك الفاسدين منها . . ثم البداية الجديدة لخلق جديد . وقد استعد نوح بكل وسائل النجاة : الفكرة والنظرية وأداة النجاة وبذور الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية على أرض قد طهرها الطوفان . .

ولم يكفر بنوح قومه فقط ، وإنما كفرت به زوجته وواحد من أبنائه . .

وقبل ذلك كفرت زوجة نبى آخر هو لوط فدعا عليها أن تكون عمودا من الملح . وأن تنهار ترابا على تراب . .

فعلا : كل نبى فى وطنه مهان . . ليس فى وطنه فقط بل فى بيته فى أهله عند زوجته وأولاده !

وتغيرت أشكال الطوفان ومكانه وأسبابه . . ولكن عندما يكون طوفان فإننا نتطلع إلى نوح . . أى نوح . .

ولكن الطوفان أصبح الآن من صنع الإنسان . . وكذلك نوح لابد أن يكون من صنع الإنسان . .

فالطوفان صناعة إنسانية . .

والمصلحون سياسيون وعلماء ورجال دين ومفكرون . . وكلهم بشر . .

وكل أصحاب النظريات فى السياسة والاقتصاد والفلسفة والأخلاق والطب . . كلهم نوح . . أولاد نوح . . أولاد آدم الثانى

فآدم الأول طرده الله من الجنة لأنه أطاع زوجته فى معصية الله . .

فأمر الله أن يهبط آدم وزوجته ليكون كل منهما عدوا للآخر . . وعذاب آدم أن يتزوج حواء ، وعذاب حواء أن تحمل وتلد وترضع . . وعذاب الحية التى استدرجت حواء إلى الخطأ أن تبتلع أرجلها وتزحف على بطنها إلى يوم القيامة . .

أما أولاد نوح فهم يستأنفون العذاب . . صناعة العذاب والتخلص منه . . فأولاد نوح هم الذين يزرعون جنتهم على الأرض ويقتلعون أشجارها ويخطفون ثمارها ويتحاربون . . بعضهم لبعض عدو وإلى الأبد . .

ومشكلة أبناء نوح أنهم الذين يصنعون المرض وهم الذين يصنعون له العلاج . . ومشكلتهم أيضا أنهم ينتظرون نوحا . . ولا يجىء . . فإذا لم يأت فإنهم يزيفونه . . وكما عاش نوح بين قومه الكافرين . . فإننا نعانى أيضا من المصلحين النصابين . .

وعند كل مأساة نتطلع إلى نوح . .

وبعد كل كارثة فى الحرب أو فى الفكر ننتظر نوحا جديدا . .

ويكون نوح أديبا ويكون رساما ويكون طبيبا وسياسيا وزعيما وقائداً . . ويدعى ذلك لصوص وسفاحون

وبلات الإنسانية كلها سببها الذين يرتدون ملابس نوح . .

وقد جربنا كثيرا أنه فى الازمات تختل موازين الرؤية والرأى فيتوهم الناس من ليس نوحا أنه نوح جديد ويمشون وراءه . . ويضلون . . فهم الذين اختاروا الضلال ، عندما قرروا أن يختاروا الهداية . . إنهم واهمون يتعجلون الخلاص . . فأسلموا أمرهم لأى واحد يدعى الهداية . .

وفى أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط ضلت الملايين وراء الأنبياء الكاذبين والمصلحين الفاسدين . . كيف حدث ذلك ؟

الناس يريدون النجاة بأى شكل . . فلما جاء أى شكل صدقوه . وفى أمريكا سار الشبان بالمئات وراى أدعياء النبوة . . وانتحروا معا . . فهم ضاقوا بالحياة واختاروا الموت . .

فهم الذين قلبوا قصة نوح . . فهم لم يهلكوا أولا وإنما ساروا وراء النبى الكذاب لكى يعيشوا فماتوا . .

وبدلا من أن ينجوا من الطوفان ألقوا بأنفسهم فى الطوفان .

فكأنهم لم يريدوا النجاة ، وإنما أرادوا الموت لكى ينجوا من الحياة . .

فقد جاءهم النبى ، أو إنهم صنعوه . . وساروا وراءه لا إلى النجاة وإنما إلى الهلاك !

وفى أمريكا وبعد حرب فيتنام ظهر أناس كثيرون من الأمريكان ومن الشرق الأقصى يدعون الناس إلى الخلاص من طاحونة المجتمع الصناعى

الكبير . . الذى يطحن إنسانية الإنسان ويجرده من شرف الإنسانية ونبل المثل العليا . . وجعلوهم ينسحبون من الحياة ويقفون وينامون على هوامشها . . فابن الغنى اختار أن يتسول وأن يقتل . . وسعادته أنه اختار الفقر بينما أبوه اختار له الغنى . . وأنه اختار الرصيف ، وأبوه اختار له السرير الحرير . واختار الشاب أن يعيش مسطولا ليلا ونهارا مع فتاة لايرى إلا جانبا من جسمها . . وبعد أيام تعلن أنها حامل وأنه أبو الطفل . . فهو طفل قد أنجب طفلا . ولكن لا يعتذر عن كل ذلك . . لأن زوجته من اختياره والطفل من اختيارهما . . والضياع والتيه الفلسفة التى يمشيان وراءها . . ووراءهما يبكى الأبوان والأخوة والأقارب . . فدموع المجتمع هى قطرات الطوفان الأمريكى الذى يدفع الشبان إلى الموت هربا من حياة صناعية اصطناعية مزيفة مفبركة !

وفى مواجهة طوفان الفقراء والأغنياء ظهر كارل ماركس يدعو إلى تجريد الأغنياء من أحلامهم وسلطانهم ليتساووا بالفقراء والمعدمين . .

وقبل ذلك نادى الفلاسفة بأن الحقيقة هى الدولة ، والأفراد خلايا الدولة . لا وجود لهم ولا نحن إلا فى الجسم الكبير . . فالعين لاترى إلا من جسد وفى جسد ومن أجل جسد . . وكذلك الساق والمعدة والعقل . . كلها من غير جسد لا وجود لها . . ومن غير جسد لاوظيفة لها . فأنت جزء والدولة كل . . والدولة هى الحقيقة المؤكدة والفناء فيها هو الحياة . . والدولة هى إرادة رأس الدولة . . فلا إرادة لأحد . . ولا الدولة إلا مايريده السلطان . . الحاكم . . الرئيس . . الإمبراطور . . البابا . .

واشتعلت الحروب فى الدنيا . . وخربت الدنيا . .

ومن خرائب الحروب تعالت صيحات نوح . . ألف نوح . . بأن النجاة هى فى أن يكون المواطن حرا . فردا حرا . هو أهم من الدولة . .

وهو أعظم من السلطان . والسلطان الذى يحترم نفسه هو الذى يحترم ملايين السلاطين الذين هم المواطنون العاديون . . ثم إنه لا يوجد مواطن عادى ومواطن غير عادى . فكل الأحرار سواء . .

وكانت هذه صرخة الفلسفة الوجودية بعد الحرب العالمية الثانية . . وتعالت الصيحات المتمردة واتخذ كل نوح مذهبا وطوقا للنجاة وسفينة من خشب أو من ورق أو من معدن . . ودعا الناس إلى النجاة . .

وظهرت المذاهب الفنية فى الرسم مثل السريالية والتكعيبية والحوشية والتلقائية . .

وظهرت المدارس الأدبية والنقدية . .

وظهرت المدارس المسرحية . .

ومن أهمها وأخطرها وأقصرها عمرا مدرسة العبث . .

أى المدرسة التى تسجل على الإنسان فشله فى أن يكون حيوانا عاقلا . . وإنما حيوان ناطق . ينطق وليس من الضرورى أن يكون عاقلا . لأن الذى يستمع إليه ويتفرج عليه ليس عاقلا أيضا . . فما جدوى العقل لمن لا عقل له ؟ وماجدوى النطق لمن لامنطق له . . وليس فى نيته أن يكون كذلك . لماذا ؟ فقد فشلت كل المدارس المنطقية والفلسفات الشيوعية والوجودية والمثالية والواقعية والتحليلية ، والوضعية المنطقية ومدارس الشك والملحدين والمتطرفين . .

والإنسان قد أدمن الطوفان . . وأدمن الأنبياء أيضاً . . فإذا لم يجدهم خلقهم ، وإذا طال انتظاره لهم صنعهم . . فإذا ظهروا من تلقاء أنفسهم كفر بهم وقاومهم . .

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع عقيدته ويفرز أنبياءه ويغرق معهم فى طوفان واحد !

ثم إن نوحا الجديد شاب . . يعيش شابا ويموت شابا أيضا . .

أما نوح عليه السلام فقد عاش أكثر من ألف سنة ! !

أما نوح الحديث فمن النادر أن يعيش بعد الطوفان . . أى يجىء وسط الطوفان ويلقى بأطواق النجاة ويقيم الجسور . . ويموت قبل أن ينشر مذهبه . . أو ينجو المجتمع الذى ظهر فيه . .

وفى عالم العبث مسرحية للأديب الإيرلندى بيكيت اسمها (فى انتظار جودو) . أى فى انتظار نوح . . أو نظرية جديدة . . أو طوق للنجاة . . أو وسيلة لإنقاذ الناس من الضياع واللامبالاة وانعدام الأمل واليأس معا . . وينتظر وصوله اثنان من الناس يتحاوران بقرف . . ولايجىء . . فقط يكون له وجود مسرحى . . ويكون على شكل انتظار أو احتمال المجىء ويكون وجوده المحتمل هو الوجود الوحيد الممكن . . فالناس يتطلعون إليه بعين واحدة . . أو بنصف الوعى و بنصف الأمل ونصف اليأس . . وتنتهى المسرحية ، ولايجىء . أما المعنى فهو الانتظار العقيم !

والإنسان هو الحيوان الذى يصنع أدوات حياته . . يصنع أدوات حياته وأدوات وفاته أيضا . . وهو الذى يضع أحلامه وأوهامه . . وكما يتعجل الإنسان الحياة ، يتعجل الموت أيضا . .

وكما يتعجل النجاة يتطوع بالانتحار . .

والإنسان هو خالق أبنائه وقاتلهم أيضا .

ومشكلة هذا الزمان هى أبناؤه الصغار . وهم لأنهم صغار فهم فى غاية العنف . ولذلك كان كتابهم المقدس فى يد ، والقنبلة فى اليد الأخرى . . حتى أصبحت القنابل والرصاص هى النقط التى يضعونها فوق حروف كتابهم المقدس . . وحتى أصبحت انفجارات القنابل هى الدقات التقليدية لمسرح العبث العنيف أو العنف العابث .

أى فرض المنطق بالنار ، أو فرض النار بالمنطق . .

وإذا كان منطق فلماذا النـار ، وإذا كانوا جهنم فلماذا المنطـق . ولكنه زمان العبث العنيف !

أمـا الكتـاب المقدس ، فـالشبـاب العنيـف يغير اسمه مـن زمـن إلى زمن . . ومن بلد إلى بلد وكل كتاب فى يد الشباب مقدس ؟!

ولـذلك كـل الحروب مقـدسـة . ولم نقرأ عـن حـرب لم تـوصف بـأنها مقدسة . ولم نقرأ عن وطن ليست أرضه مقدسة . . كل الأرض بما فيها من حظـائر للخنازيـر وسجـون ومستنقعات . . وكـل الـدمـاء زكية . وكـل الضحايا والقتلة شهداء . وكل المسدسـات والمدافع والقنابل والصواريخ أسرع وسائل الانتقال من الدنيا إلى الجنة !

وكما أن سفن الفضاء تحتاج إلى صاروخ يشدها من جاذبية الأرض . . فلا بد من صـاروخ آخر يضعها فى مدار ثابت حـول الأرض . . ولابد من صاروخ يعيدها إلى الأرض . . أو يضعها تـدور حول القمر . ثم صاروخ يهبط بها على سطح القمر . . وصاروخ يرفعهـا بعيدا عن جاذبية القمر . . ثم صاروخ يعيدها إلى الأرض . .

وكـل تاريـخ الإنسانيـة وتقدمهـا العلمى ليسـا إلا انطلاقـة وبعدهـا انطـلاقة . ولـذلك تقـدمت الإنسـانية فى صنـاعة أدواتها أدوات حيـاتها وأدوات استمـرارها وأدوات فنـائهـا أيضا . . وأصحـاب هـذه الدفعـات والانطلاقات هـم أبناء العصر الحديـث . . هـم العالم والطبيب والمهندس والفلكى والزعيم . .

ولم يـأت أنبيـاء اللـه لإصلاح أدوات الحيـاة . وإنما لإصـلاح مـا هـو أصعب من ذلك . . إصلاح طبيعة الإنسان . .

فأدوات الحياة تقدمت وتطورت من الطوبة التى كان يرمى بها الإنسان عدوه لكى يقتله ، إلى الصاروخ والقنبلة الذرية . . بينما طبيعة الإنسان نفسه لم تتغير فهو ما يزال يعيش مع زوجته وأولاده فى بيت خاص به . . يكره ويحب ويغار وييأس ويحقد ثم يموت . . وإصلاح طبيعة الإنسان أصعب ملايين المرات من إقامة مصنع لإنتاج الشوك والسكاكين يستخدمها بدلا من أصابعه . . بل من الممكن لأى إنسان عنده ملايين الجنيهات أن يبنى مفاعلا نوويا ، ثم يقف أمام باب هذا المصنع الجبار ويتلفت يمينا وشمالا فإذا لم يجد أحدا يبصق على الأرض أو يتبول على الجدران . .

ويقال إن المليونير روتشيلد عندما افتتح أحد بنوكه فى ألمانيا وراح يتنقل وحده فى غرف البنك وكان خاليا من الناس . . تلفت حوله ثم أخفى أحد الأقلام فى جيبه !

وقال علماء النفس إن الإنسان لص بطبعه ! لقد سرق نفسه . . تماما كأنه تلفت وراءه وأمامه ثم أخذ قلما من جيبه ووضعه فى جيب آخر . . سرق نفسه .

وكذلك الإنسان الذى ينتحر . .

إنه قاتل لنفسه . . سارق لنفسه . . معذب لنفسه . . مخيف لنفسه . . يصنع أدوات حياته وأدوات موته أيضا .

لذلك كانت مهمة أنبياء السماء صعبة . وأما أنبياء الأرض فكانت ولاتزال مهمتهم أسهل . . ولذلك كانوا كثيرين وكانوا قصيرى العمر . .

وأصبح الطوفان الحديث ليس هو الفساد الطاغى على كل شىء . . وأنما طوفان آخر من الأنبياء المضللين والزعماء النصابين . .

ولكى ننجو من الطوفان لابد من نوح ينقذنا من ألفى نوح . . لابد من نظرية . . من صاحب نظرية قادرة على ابتلاع كل النظريات . . لابد من عصا موسى لتبتلع كل ما فى أيدى الكذابين والنصابين . .

وفى السماء شىء من مثل ذلك . .

ففى السماء (ثقوب سوداء) . . هذه الثقوب ليست ثقوبا . . وإنما هى مساحات سوداء هائلة . كأنها وسط النجوم الباهرة ثقوب . وهى فى الحقيقة نجوم ذات جاذبية وكثافة هائلة . . كأنها بالوعات قوية تبتلع ملايين النجوم . . انظر إلى البالوعة وكيف ينزل فيها الماء وكيف يدور وهو بداخلها . . ثم إن هذه الثقوب السوداء تبلع الأشعة الخارجة منها . . وكل الأشعة كما قال اينشتين مكونة من ذرات مادية . . والثقوب تبلع أشعتها هى ومادامت قد ابتلعت الأشعة فنحن لانراها . . ولذلك فهى ثقوب سوداء . . ملايين النجوم تبتلع ملايين ملايين النجوم . .

ولايزال الكون يبتلع بعضه بعضا . . حتى يتكدس ويتكاثف ويتكاثف ألوف ملايين السنين . . حتى يصبح شيئا واحدا . . جزءا واحداً . . ولايزال يتكاثف حتى يصبح ذرة أو أقل من ذرة أو واحداً على مليون مليون مليون من الذرة . وتكون هذه هى نهاية الكون . . نهاية المكان والزمان . ومن هذه النهاية يحدث الانفجار العظيم مرة أخرى . . ويتكاثر الكون ذرات وطاقات ومغناطيسية وحرارة وغازات . . وتتطوح فى الفضاء الذى يولد مع هذه الذرات . . وتبرد وتتكاثف وتدور بعضها حول بعض ومن الدوران والجاذبية والمغناطيسية ومن الحرارة ومن التفاعلات الكيماوية تتولد المادة ومن المادة الحياة ومن الحياة الحيوان والنبات ومن الحيوان الإنسان . . أفكار الإنسان ونظرياته عن هذا الكون ونشأته . . وهكذا إلى مالانهاية . .

فكل شيء يبدأ ويكبر ويتطاير ويمتد لينكمش بعد ألوف ملايين السنين . . وينتهي ويبدأ إلى ما لانهاية ــ هذه هي كل معلوماتنا من الفيزياء الفلكية . . إلا إذا ظهرت نظريات أخرى . .

وفى حياتنا أيضا . . كل شيء يبدأ وينتهي ويبدأ ويتكاثر وينتهى . . والعقل يفكر ويحلل وينظر ويتطور وينتهي وتجيء عقول تضيف جديدا إلى كل الذى مضى . .

وليس أسهل على الإنسان من تطويره لأطرافه الصناعية : السيارات والطائرات وسفن الفضاء والعدسات . فالتكتولوجيا هى علم وفن تطبيق النظريات العلمية . . والتكنولوجيا هى علم صناعة (الأطراف الصناعية للإنسان) . . العدسات بدلا من العين والطيارات بدلا من الساقين . . والتليفونات بدلا من الخناجر . .

أما الذى هو وراء كل ذلك فهو عقل وقلب ومعدة الإنسان . وإليها اتجه أنبياء الله فى أصعب مهمة وهى أن يسود الخير والعدل والسلام . .

ومشكلة الإنسان فى كل العصور أن الأنبياء الذين يفرزهم لايكتفون بإصلاح حياة الإنسان وإنما يحاولون إصلاح طبيعته . . أى كأنهم أنبياء من عند الله وليسوا من عند الناس . .

ولذلك فهذا الادعاء هو الذى جعلهم يصفون أهدافهم بأنها مقدسة وحروبهم بأنها مقدسة وأرضهم مقدسة وموتنا من أجلهم وأفكارهم موت مقدس . . أى أننا جميعا شهداء . . وأعداؤنا أيضا لابد أنهم أنبياء من صنعهم . . فهم أيضا مقدسون شهداء وحروبهم كلها فى سبيل الله !

ومشكلة البشرية فى كل العصور ليست هى انتظار الأنبياء وإنما مشكلتهم أن الأنبياء إذا انتصروا بعض الوقت ، فإنهم يحاولون إقناع الناس بأنهم لم يصنعوهم ، وإنما هم أنبياء من السماء . . أى أنهم جاءوا من

السماء، ولم يأت بهم أحد من الأرض . . وإن الناس يجب أن ينظروا إليهم على أنهم آلهة . . أو نصف آلهة على الأقل !

ولأن الأنبياء الجدد من صنع الإنسان فإنهم يحاولون دائماً أن يفلتوا من قبضة الشعوب . . وهنا نرى استقلالهم عن الإنسان . . وترى الشعوب أن أنبياءهم قد كذبوا عليهم وخدعوهم . . وجردوهم من حقهم التاريخى فى صنع أنبيائهم . .

وتنقلب الأوضاع فتصبح مقاومة هؤلاء الأنبياء الكاذبين مقاومة مقدسة . والحرب ضدهم مقدسة . . والقضاء عليهم ، كالقضاء على أعدائهم . مقدس أيضا . . وفى هذه الحرب المقدسة يصبح الأنبياء نصابين مجرمين . . وتصبح الشعوب كلها من الأنبياء . . فكلهم مؤمنون ضد كافر واحد . . كافر بهم . . بأنهم هم الذين أتوا به !

والأنبياء من الشبان . . فهم مستعدون للنبوة وللرسالة وهم صغار . . يراقبون ويحللون وينصحون ثم يدعون الناس . .

فنوح عليه السلام بدأ دعوته فى ربع عمره . . كان عمره ٣٥٠ عاما ودعاهم ٩٥٠ عاما وعاش بعد ذلك ٤٥٠ عاما . .

وهم شبان متجهون إلى الشبان . . أى إلى المستقبل . . لأن كبار السن لا أمل فيهم . . أو إن الأمل منهم قليل . . فقد جمدوا على وضع ومن الصعب تحريكهم بعيدا . . والشبان لأنهم صغار عندهم طموح وفيهم حيوية . . ويتطلعون إلى الأمام . : وهم فى حاجة إلى من يأخذ بيدهم . . يهديهم يرشدهم . . يثبت أقدامهم يؤكد لهم : أن الضياء التى يرونها ليست سرابا ، وأن الموسيقى التى يسمعونها ليست صفير الريح وفحيح الأفاعى . . وأنهم ولدوا ليعيشوا . . ويعيشون ليسودوا مصيرهم . .

فماذا يريد شباب العالم اليوم ؟

أما الطوفان فله فى كل بلد اسم ورسم . . وأما القلق والخوف والعذاب واليأس فسحاب على رؤوس الجميع . والنـاس صيادون فى بحر الحياة . . وكما فى البحـر كائنـات حية ، ففيـه جيف أيضـا . . وكما على الشاطـىء صيادون ، فهناك نصابون يصيدون الناس . . فما المطلوب ؟

المطلوب هو أن نجد صاحب النظرية الصادق المخلص

فلا ينقص هذه الآراء المهـوشة والمشاعر المضطربة والمخـاوف المتلاطمة لاينقصها جميعا إلا : إطار . .

إطار النظرية . والنظرية تنظم هذه الفوضى . وتضع لها أولا وآخرا . . أولها اليوم وآخرها غدا وبعد غد إلى عشرات السنين .

وتكون النظرية اقتصادية

أو تكون سياسية

أو تكون دينية . .

وكما أن الإنسان صانع أدوات حياته ، فهو أيضا صانع نظريات حياته ونجاته من الطوفان . .

فلابد من نوح جديد . . أكثر من نوح فى كل طوفان . .

ومن اتفاق نوح هنا ونوح هناك يكـون النظام الذى يربط العالم كله . . النظام المثالى الذى تتطلع إليه الشعوب فى كل العصور . . بشرط . . بشرط ألا يكون النظام خـانقا . . يقضى على آمال الشعوب فى السلام والـرفاهية والعدل والحرية . . فإذا خنقها واختنقت أفـرزت الشعوب من جديد ألف نوح يضعونها على الطـريق الصحيح . . فإذا انحرف نوح وضللهـم ـ وقد حدث كثيرا . . انحسروا وتخلوا عنـه وراحوا يزرعون أشجارهـم وليبنوا منها سفنهم

ويكون نوح هو أول ضحايا الطوفان . .

إن الشعوب مع أبنائها لها مشكلة وحيدة . . وهى أن نوحا ينسى عندما يحكم ويتحكم أنه كان واحدا منهم . . وأنهم رفعوه فوق . . فقد نسى أنه كان تحت . . واحدا من ملايين وأصبح واحدا فوق رؤوس الملايين . .

المصيبة أن الشعوب لاتنسى وأن نوحا هو الذى ينسى بل يفرض صناعة النسيان على الشعوب . . يريدها أن تنسى أنه كان واحدا منهم . فلا تذكر إلا أنه فوق . . لانه ولد ليكون فوق ، وأنهم ولدوا ليكونوا تحت . .

مما ينساه نوح هذا أن الذين جلسوا قبل ذلك فى مكانه الرفيع كان قبرهم الطوفان . . وموتهم محققاً وبلا جنازة . . فلا أحد يمشى فى جنازة قاتليه . . !

حتى لا يأكلك التليفزيون !

كلنا يقلب فى الراديو فى الساعات الأخيرة من كل ليلة . وتجد الموسيقى أو الأخبار أو التعليقات السياسية . وعادة لايكون لدى المشتغلين بالسياسة أدنى رغبة فى أن يستمعوا إلى الأغانى أو الرقصات . . أيا كان المطرب . أنا شخصيا أتضايق من الأغانى عندما أكون مشغولا بالقراءة أو الكتابة . لأن الأغنية تدور حول واحد عنده مشكلة مع واحدة . . والمشكلة ليس لها حل . ومطلوب منى أن أكون طرفا وأن أكون قاضيا عادلا فى قضايا الحب . ومن المستحيل أن يكون الإنسان قاضيا ، وإذا كان قاضيا أن يكون عادلا . فالمحبون يكرهون العدل . لأن الحب هو توريط من القلب للعقل . ومن المستحيل أن تكون عادلا مع من تحب . . لأن الحب ارتفاع مفاجىء فى درجات الحرارة وهلوسة جميلة . . ثم إنه ليس مرضا . ولكن كأنه المرض . وكأن كل طرف يريد حلا . فإن كان الحب مرضا فلا أحد يريد الشفاء منه . . وإن كان الحب لحظة ، فليس لها ماض . والإغريق اختاروا للحب طفلا يلقى سهاماً من ذهب أو من فضة . . فالحب (عيل) وهو قادر على السخرية من أى عاقل حكيم . . مثل هذه الأفكار أو المشاكل لا أريد أن أكون طرفا فيها . فعندى الذى يشغلنى . ولذلك أنفر من الأغانى بكل لغة فى هـــذه الساعات الأولى من كل صباح . .

وأظل أبحث عن الموسيقى الهادئة التى تجىء من كل مكان وتدور حولى ولا تقتحم أذنى وتحشر ما فيها فى قلبى ودماغى . . وإنما أحب أن يكن لها دور المرافق والسحاب والنسيم . . ومن صفاتها أنها هناك . بعيدة تستأذن فى المثول بين يدى . . فإذا انشغلت عنها ، ظلت فى مكانها ضبابية سحابية . . فى انتظار لفتة أو نظرة أو آهة . . إنها نوع من الغلالة الحريرية . . البطانة الوجدانية التى تحتضننى وتعانقنى وتحتوينى دون أن تضغط حتى تحطم لى أعصابى وقفصى الصدرى والقلم فى يدى .

كانت عندنا قناة تليفزيونية واحدة فأصبح لدينا ست قنوات . . والذين عندهم أطباق فوق السطوح عندهم عشرات . . ويتباهى بعضنا بأن لديه مائة قناة . . بلاش مائة ، فليكن ألف !

فليس هذا جديدا . فالراديو الصغير يعرض عليك مثل هذا العدد يوميا . . والسوبر ماركت فيه ألف صنف ، وكذلك الأجزاخانة . وأنت تمد يدك إلى ما تحتاج اليه أو ما يعجبك . .

أما التعاسة التى تظهر على وجهك وأنت تبحث عن القنوات فليس سبب ذلك أنك لم تجد ما تريد . . وإنما سببه أنك تريد أن ترى كل ذلك . ولكن ليس عندك وقت . ولن يكون عندك وقت . . تماما كالذى أمامه ديك رومى أو حوت . . فهو ليس تعيسا بما يجد ، وإنما هو تعيس لأنه سوف يترك معظم الذى أمامه دون أن يحشره فى معدته . . تماما مثل دموع التمساح التى تسيل وهو يأكل فريسته . . فهى دموع الفرح وليست دموع الحزن . . والضيق الذى ينتابك هو ضيق الذى يجد الكثير ولا يعرف ما الذى يفعله . . فكيف تضع قنطارا من اللب والسودانى فى جيب الجاكتة . . كيف تعبىء ماء النيل فى زجاجة عطر ، كيف تملأ ساعة واحدة من وقتك بألف ساعة إرسال تليفزيونى ؟!

مشكلة . ولكـن لها حلا . فـأنت لاتستطيـع أن ترى كـل شيء وإنما بعض البرامج . وأنت اليوم أصبحت سلطـانا وكل شبكات التليفزيون فى الدنيا تقول : شبيك لبيك . . أمرك يا ملك !

وأنـت ما دمـت قد أصبحـت ملكـا ، فلتكن ملكـا مستنيرا عاقـلا . فتختار الذى يعجبك والذى يملأ الوقـت الذى خصصته للمشاهدة قبل النوم . . أو بعد الغداء . فلابد أن تـأكل وأن تستريح وأن تنام لتنهض فى الصباح لتؤدى واجبك . . فالوقـت قصير والتليفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والكتب والعمل والمجامـلات الاجتماعية كلها تحتاج إلى وقت . والشاطر من يستطيع أن يوفق بينها جميعا . وأن يحشرها بعضها فى بعض . وأن يحذف وأن يختار .

وأصبحت الآن تجد العذر فالذى يقول لك : انت فين ؟

ـ أنت لا تسأل عنى !

ـ وأنت لا تسأل عنى !

ـ يعنى إيه ؟

ـ لا تلمنى ولا ألومك . فليس عندى وقت .

ـ للدرجة دى ؟

ـ للدرجة دى !

ـ يعنى إيه ؟

ـ هذه حال الدنيا !

ـ الله يلعن الدنيا

ـ ولكننا نحن الدنيا . . فهى مـن صنعنا . . صنعناها فاستعبدتنا . . نحن الذين صنعنا القيود ، وصنعنا الـوقت ، وصنعنا أنفسنا . فلا معنى للشكوى !

ـ لم يعد فى الدنيا خير . .

ـ هذا هو الخير المتاح . .

ـ هل هذا هو حسن الجوار ؟

ـ أو وقف إطلاق النار . .

ـ صحيح : من حسن الجوار وقف إطلاق النار !

ـ كما تحب . .

ـ أنا لا أحب ولا أكره . .

ـ هذا أفضل !

ـ حيوانات نحن ؟

ـ مـؤكد . . فالانسان لم يتطـور كثيرا فالإنسان الذى وجـدوه فى جبال إيطاليـا والنمسا لم يتغير شكله ولا تكوينـه . . بل إن الإنسان مـن مليون سنة ، كـالإنسان اليوم . . نفـس المشاعـر . . نفس العواطـف . . نفس الأحقـاد والكراهيـة والغيـظ . . وولدا آدم اللـذان قتـل أحدهما الآخـر لم يموتا . . وإنما دماؤهما تسرى فى عروقنـا فما نزال نقتل ونحقد ونحسد وإذا كان ابنـا آدم قتل أحدهما الآخر بحجـر . . فقد تطورت صناعـة الأحجار وأصبحت بنـدقية ومـدفعا وصاروخـا وقنبلة ذريـة . . لقد طـور الإنسان أدوات الموت . . كما أنه طور أيضا أدوات الحياة . . فأنـت تأكل بالشوكة والسكين والمعلبات والفيتامينات . . وبدلا من المشـى على قدميك تركب السيارة والطيارة ومكـوك الفضاء . . أما طبيعة الإنسـان فلم تتغير ، وأما

أدوات الحياة والموت والعلاج والكتابة والصناعة فهى التى تطورت . . فالإنسان حيوان . . كان ولايزال وسوف يبقى . . وكلما تقدم وتطور ضاق وقته للآخرين . . لزوجته وأمه وأولاده وجيرانه . .

ولقد وجدت لنفسى حلا سعيدا ـ أنا الذى أقول إنه حل وإنه سعيد . فقد اشتريت مئات الكاستات التاريخية والعلمية والفلكية والجغرافية . . أنا الذى اخترت هذه الكاستات ، وأنا الذى اختار الوقت الذى أراه مناسبا لى . . فى الصباح الباكر إذا لم أجد ما أقرؤه أو أكتبه . . أو بعد الغداء ساعة أو ساعتين . . أو فى الليل بعد أن أسمع نشرات الأخبار بلغات مختلفة . .

ولا أجد حرجا فى الإجابة بالنفى عن مثل هذه التساؤلات : ما رأيك فى المسلسل . . بذمتك هل هذا كلام أو تمثيل . . أو هل هذه هى القصة التى تشغلنا الآن وفى المرحلة الحالية . .

ويكون ردى أننى لم أر وأننى أنتهز هذه الفرصة لكى أسجل قرفى للتعبير : المرحلة الحالية . أو المرحلة القادمة . . فهى من أكثر التعبيرات شعبية وانتشارا على ألسنة المسئولين . وليس لها أى معنى . . لأنه كيف تحدد المرحلة الحالية وتفصل بينها وبين المرحلة الماضية أو القادمة . . كيف تضع الحدود بين الحالى واليوم والقادم ؟!

ثم إنه لم يطرأ أى تغيير على هذه المراحل أو بينها . . ما علينا . المهم أنى سيد مصيرى وقرارى ومزاجى وأنى أنا الذى أختار . والذى أختاره هو الذى يعجبنى . . فأنا لا آكل اللحوم بكل أسمائها وأشكالها وألوانها وطعومها . مع أن السوق مليئة باللحوم . ولكن لا آكل إلا الذى يعجبنى وأنام على الجانب الذى يريحنى وأضيع وقتى وأستثمره وأسترده على النحو الذى أراه مفيدا وممتعا لى . . فلست عبدا فى إمبراطورية التليفزيون . . وأنا

أفضل أن أكون إمبراطوار فى دولة طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة ، على أن أكون عبدا فى إمبراطورية الألوان والأعصاب المحترقة التى يبثها التليفزيون فى الكرة الأرضية وحولها . .

وكان الناس يشكون من الراديو قبل التليفزيون . . فكان الناس يسهرون فى المقاهى يسمعون الراديو . . وكان الراديو ساحرا قاهرا . . ولم يكن الراديو أول الأمر يذيع إلا ما تبثه مصر وحدها . . واستطاع الراديو أن ينقل إلينا أصوات الدنيا ليلا ونهارا . . ومن بعد الراديو جاء الريكوردر . . أى الذى يذيع ما سجلناه . . وما نريد أن نسمعه ويشغلنا عن النوم وعن العمل والمذاكرة . . أو الذى نفتحه ليلا ونهارا أثناء الأكل والنوم والعمل والسهر والأرق والمذاكرة أى لابد منه . . كأنه هواء . . ماء . . كأنه الحياة نفسها . . أو لاحياة بغيره . . ثم جاء التليفزيون المصرى . . وبعده التليفزيون الذى يلتقطه أبناء الشواطئ مما تبثه بلاد البحر الأبيض المتوسط وبعض الدول العربية . .

وأخيرا ظهر فوق بيتنا دش . . واتسع نطاق ذلك الساحر بالألوان والموسيقى . . وانفتحت علينا الدنيا كلها . . مئات القنوات ليلا ونهارا . . وفى بريق ووهج هاروت وماروت ضاع العقل الإنسانى . . وطار النوم وتآكل الليل والنهار . . ولم يعد الإنسان قادرا على أن يجد نفسه . . لقد ضاع بين مئات القنوات وألوف البرامج . . فهو ينام عليها وبها وعلى الرغم منها . . وتشقلبت الدنيا ، ليلا ونهارا وطعاما وشرابا . . وتقلب وتألب الإنسان بها ومعها وأمامها وأصبح يضع رأسه مكان قدميه . .

فنحن نرى قطرات العرق على جباه اللاعبين فى كأس العالم واللاعبات فى ويمبلدون وقبل ذلك على جباه رواد الفضاء . . والتراب الذى يتناثر تحت أقدام الذين هبطوا على القمر . .

بل إن المرصد الفلكى (هابل) الذى يدور حول الأرض قد بعث لنا بصورة الكون بعد أن خلقه الله بثلاثة ملايين من السنين ـ تصور ! ومن المعروف فلكيا أن الله قد خلق الكون من ١٥ ألف مليون سنة . .

وأعجب من ذلك أن التليفزيون العالمى قد أذاع لنا صورا لمعارك الحيوانات المنوية والبويضات فى رحم إحدى الأمهات . . رأينا هذه الكائنات الضئيلة التى هى سر الحياة وسمعنا صوتها ـ فقد استطاع العلماء إدخال مناظير دقيقة جدا تلتقط الصوت والصورة فى أرحام الأمهات !!

ورحم الله أجداد أجدادنا القدماء وهم يصفون لنا كيف كان الغناء والطرب يفعل بهم : صوت مطربة واحدة إذا غنت بيتا واحدا . .

وقد وصف لنا المفكر العربى الكبير أبو حيان التوحيدى حال الناس وهم يستمعون إلى الجوارى يغنين وماذا كان يفعل الطرب بالناس . فيقول فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) : إذا سمعوا صوت المطربة (نهاية) وهى تقول :

ودعته وبودى لو يودعنى   صفو الحياة وأنى لا أودعه !

يقول : فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض ، وتمرغ فى التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، وجاء الرجال ، هذا يضبطه ويمسكه ومن يجسر على الدنو منه فإنه يعض بنانه ، ويخمش بظفره ويركل برجليه ويمزق ملابسه قطعة قطعة ويلطم وجهه ألف لطمة . .

أو إذ غنت المطربة (بلور) :

اعط الشباب نصيبه   مادمت تعذر بالشباب
وانعم بأيام الصبى   واخلع عذارك فى التصابى

إذا سمعها انقلبت حماليق عينيه وجاءوا له بالكافور وماء الورد ، وهذا يقرأ فى أذنيه آية الكرسى والمعوذتين . . أو إذا غنت المطربة (قلم) و إذا هى تناوأت فى استهلالها وتضاجرت على ضجرتها ، وتذكرت شجوها الذى قد أضناها وأنضاها (وسلبها منها وأنساها إياها) .

إن أجمل تعبير استخدمه أبو حيان التوحيدى هو وصفه للطرب بأنه سلبها منها وأنساها إياها . . أى سرقها من نفسها وأنساها نفسها .

فالمطربة تسرق الإنسان من نفسه . . تسرقه ثم تعيده إلى نفسه . . فهو ألعوبة الغناء والموسيقى والمتع البريئة . .

ولم يكن ذلك إلا بسبب أغنية واحدة لمطربة واحدة . . فما الذى يفعله التليفزيون بنا . . بألف مطرب وراقصة وموسيقار وأفلام وبرامج ومباريات ورحلات . . لقد أصبح الإنسان ألعوبة التليفزيون . ولذلك وجب علينا أن نرفع علامات الخطر ، وأن نطالب أنفسنا بأن نحترس وأن نلف حولنا أطواق النجاة وأن نستعيذ بالله من شر وسحر هذا القوى الجبار الذى سلاحه اللون والصورة والاثارة . .

يقول أبو حيان التوحيدى أيضا : إنه ليس أروع من صوت المطربة التى اسمها (الخاطف) وهى تقول :

تلتهب الأكف من تلهبها   وتحسر العين أن تقصاها
كأن نارا بها محرقة   نهابها مرة ونغشاها
نأخذها تارة وتأخذنا   فنحن فرسانها وصرعاها !

نعم نحن فرسان الطرب ونحن صرعاه أيضا . .

وليس أجمل من قول أبى حيان التوحيدى فى صوت أحد المطربين : إنه يسرقك منك ويردك عليك . .

أى أنه يسرقك من نفسك ، ثم يعيدك إلى نفسك . .

وهذا واحد على ألف ألف مما يفعلـه التليفزيون بمئات القنوات . . فى الصغير والكبير والمتعلم والعالم ، والغنى والفقير والسليم والمريض والمؤمن والكافر . .

وكما كان الناس يتمرغون على الأرض لصوت واحد ، فالناس يتمرغون على الكرة الأرضيـة اليوم ، والكـواكب الأخرى غـدا . . والسبب هـو هذا الصندوق السحرى الذى صنعه الإنسان بيديه وحبس نفسه فى داخله . . ليجعله فاقد الإرادة والعقل . . وسعيدا بذلك !

يعنى إيه ؟ يجب ألا تبدد عقلك وقلبك وعمرك بلا قضية . . فالقضية أن العلم والفـن والفكر كثير وأن العمر قصير . . كما أنـك لا تستطيع أن تشرب البحـر ، وأن تسحـب الهواء من الجو ، وأن تجمـع نـور النجـوم فى عينيك ، فكذلك أمام التليفزيون والإذاعة والصحف والكتب . .

ضع سـاقا على ساق وتراجـع فى مقعدك وقل بمنتهى العقـل والحكمة والواقعية لا . . لكل هـذه الشوشرة اللونية الصوتية لكـى أصبح قادرا على أن أعيش أهدأ وأن أتذوق أمتع ، وأن أنام أعمق !

أما أنا فقد حاولت واخترت واقتنعت . فحاول أنت أيضا !

شاى .. صابون وبامبرز !

غلطة وقع فيها الزعيم تشرشل فى مجلس العموم ، ولم ينسها حزب العمال حتى مات . فقد حدث فى إحدى الجلسات أن ضايقه نائب من حزب العمال وقال لتشرشل : وأنت ماذا فعلت لنا . . ماهى السلعة التى جعلتها أرخص !

وكان الرد القنبلة . . قال تشرشل : لقد رخصنا لكم الصابون

ولأن هذا النائب كان ممثلا لعمال الفحم فقد غضب من هذا التعبير الساخر الموجع . واعتذر الزعيم تشرشل عن هذه (الجليطة) وقال : يؤسفنى يا سيدى جدا . فلم يدر بخاطرى أن أهين عضوا محترما . ولكنها القافية !

ولم يقبل النائب هذا العذر فذهب إليه تشرشل وانحنى . وقبل النائب العذر . .

ولكن أحدا فى مصر لم يقلق على انتشار إعلانات كل أنواع الصابون والبودرة فى التليفزيون . المعنى أننا إلى هذه الدرجة فى غاية القذارة وأننا فى حاجة إلى كل أنواع المنظفات . ولكن هذه حقيقة . فبلادنا تراب يجىء من المقطم ومن الصحراء . وإذا تحرك الهواء جاءنا التراب من فوق

الأسطح . . وإذا انطلقت السيارات أثارت التراب . . والخماسين هي مهرجان التراب والرمال والحرارة . وهو مايحدث كل سنة . .

ثم إننا فعلا لسنا من الشعوب النظيفة . . انظر إلى الشوارع . . بلاش الشوارع انظر إلى الحوارى . . بلاش الحوارى . . هات لك عشرين ليمونة وضعها أمامك وأنت تتفرج على القناة الثالثة . . فنحن نعرض بأجمل الألوان أقذر مافى مصر . . أحياء كاملة فى الطين والوحل . . أحياء كاملة مغطاة بالذباب والهباب . . والناس يعيشون فى المجارى ويخرجون منها ويخرجون عليها . . كل يوم . ولا يتغير شىء .

فما المعنى ؟ المعنى أنه من الممكن أن نعرض كل صور القذارة والإهمال والمرض والفقر والسخط . ومع ذلك لايتغير أى شىء . . فسوف تبقى الصورة كما هى . والناس كما هم . . والشكوى لغير الله مذلة وهوان ويجىء المسئولون ذبابا كثيرا على الشاشة وبسرعة تظهر لأعناقهم عروق نافرة ويقولون : رفعنا تقريرا للسيد الوزير الدكتور المحافظ . . ورفعنا تقريرا للسيد عضو مجلس الشعب عن الدائرة . .

ويصرخ أبناء الشعب : كذب . . لم يحدث . . ولكن الزبالين يجيئون ولولا أننا نعطيهم فلوسا ماكنسوا ولا غسلوا فمن أين نأتى بالفلوس كل مرة . . من أين ؟ !

والحكاية طويلة مملة . وهى طويلة لأن الذين يعانون من ويلات القذارة والإهمال ـ إهمالنا لهم ـ كثيرون جدا . . وهى مملة لأن السادة المسئولين يقولون كلاما واحدا . . وهم يتحدون فى الكلام وفى الفعل لاشىء فما المعنى ؟

المعنى أن المشاهد قد اعتاد على شيئين فى وقت واحد : القذارة ولا مبالاة الدولة !

لقد استقر لـدى الناس جميعا أنه لافائدة . . وأن سعـد زغلول قبل أن يموت قال : مفيش فايدة !

ولا أحد يعـرف إن كان سعد زغلـول قد قـال ذلك . . وحتى لـو قال ذلك فكل إنسان عندما يموت يقول : مفيش فايدة . . مفيش فايدة من دموع النـاس حواليه . . مفيـش فايدة مـن دخول الأطباء وخـروجهم . . مفيـش فـايـدة أن يطـول العمر سنـة أو مـائة . . فـالموت لا محالـة نهايـة الجميع . .

وهؤلاء الناس يقولون : مفيش فايدة . .

بل إن رؤيتهم كل يوم تؤكد أنه مفيش فايدة . .

ومفيش فـايدة أيضا مـا يقال فى الصحف . . مـا يقوله كبـار الكتاب وصغارهم ورسامو الكاريكاتير . . لقد استقر لدى كل الناس أنه لافائدة من الكلام والنقـد والسخرية . . . . وإن الأذان فى مالطـة مثل الأذان فى سيشل التى نفـى إليها زعماء الحركة الوطنيـة . . وفى جزيرة سانـت هيلانة التى نفى فيها الإمبراطور نابليون . . لا فائدة . فكل شىء يتكرر حرفيا أو مع تعديل فى الحروف وتراكيب الجمل !

نعود إلى كثـرة إعلانـات الشاى والصابـون والبامبرز وأولـويز الخاص بالمرأة . . ولابد أن يكـون الشاى قد تكدس فى مصر . وإلا ماكـانت هذه الإعلانـات . . وإن محصول الشـاى فى سرى لانكا والهنـد وأندونيسيـا قد توفر فى الأسواق . . ولابد من الدعاية له حتى لا تنخفض أسعاره ويسوده الكساد ويصبح زبالة فى القارات الخمس . . فهل الذى ينقص الناس هو الشاى ؟ هـل الشاى مـن مفردات الكيـف فى مصر ؟ أو من الـواجب أن يكون كذلك ؟

إن مثل هذه الإعـلانات ترسخ فى عقول الناس أنـه ضرورى . وأنه هو وحـده الذى يعـدل المزاج . . ويكفـى أن ترى الإعـلانـات وما تحدثـه فى

الناس . . فى البيت والغيط . . وهذا الإلحاح على عيون الناس وعلى عقولهم يوميا يدفعهم إلى شرب الشاى . . فإذا شربوه اعتادوا عليه فإنهم يختارون أكثر الأنواع قوة وطعما . . المهم أن الإعلانات قد اقتلعت الشاى من الهند وغرسته فى أدمغة الناس . . وبذلك تنفتح الأسواق للشاى والأكواب والملاعق الصغيرة والسكر والنعناع . لقد أصبح الشاى من نعيم الحياة ، ولم يكن كذلك . والفضل للإعلانات التى اخترعت سوقا وخلقت عادة وضاعفت عدد المدمنين . .

وكل إعلانات التليفزيون هى محاولة ملونة موسيقية غنائية فكاهية لفتح أسواق جديدة قد تكون هذه السلع غير ضرورية ككل المشروبات الغازية . . إنها ليست ماء الحياة . وإنما هى نوع من الترف مثل اللبان والشبسى . ولا يستطيع المشاهد أن يفكر فى بديل عنها . . أو يفكر فى الاستغناء عنها . . أو يرى ذلك ممكنا . ربما أنت تستطيع ذلك . ولكن كيف تقنع طفلك بألا يشترى هذا الكم الهائل من الشيكولاتة والبسكوت والبون بون والكوكا والبيبسى وغيرها . أنت لاتستطيع . وهذه الشركات تعلم ذلك . وكل إعلاناتها الجميلة اليومية البارعة تؤكد أنها جميعا جيوش وراء دموع طفلك . . أو وراء حنجرته الغليظة عندما يكبر . . وبعض المدارس تبيع هذه المشروبات والمأكولات بالدولار . . وقد رأيت الكثير من الآباء يشترون الدولار من السوق لأطفالهم . لماذا ؟ أنا الذى أسأل . ولكن الآباء يرون أن سؤالى فرعونى عتيق . . لأن أحدا لايستطيع الآن أن يقول لابنه : لماذا ؟ فالطفل يريد . ورغباته أوامر بالدولارات والاسترلينى . ولماذا؟ ــ أنا أيضا الذى أسأل . والجواب أصابع تشير إلى إعلانات التليفزيون !

ولا يوجد تليفزيون فى الدنيا يعيش من غير إعلانات . فالإعلانات هى المصدر الأول لكنوز التليفزيون والإذاعة والصحافة . ولذلك لم تولد بعد

الصحيفة أو الإذاعة أو التليفزيون الذى يهاجم صاحبة العصمة : الكوكا . . فى أى مكان من هذا الكوكب . وقد دفعت الكوكا لهيئة الفضاء الأمريكية (ناسا) مائة مليون دولار لكى تلقى بإعلان عن الكوكا فى أول هبوط لها فوق المريخ !

وهناك نكتة تقول ـ وإن لم تكن نكتة ـ إن هذه الشركة قد اتفقت مع البابا يوحنا الثالث والعشرين أن يضع كلمة (كوكا) بدلا من كلمة (آمين) عند الصلاة فى أحد الأعياد ـ والثمن مئات الملايين من الدولارات . لقد حدث . الشركة عرضت هذه الإهانة !! والبابا رفض . ولكن كل وسائل الإعلام فى الدنيا نشرت هذه الواقعة التى كانت إعلانا مجانيا !

والإعلانات عن السيارات من كل لون ونوع . . فالإعلانات تتجه إلى الموظف الكبير وتقول : إنها سيارة الرجل المهم . . سيارة صاحب القرار. من يشترى هذه السيارة هو فعلا صاحب قرار ذكى . فليس أجمل ولا أروع ولا أمتن من هذه السيارة !

أو تتجه إلى الشبان فتقول : فى الدنيا شيئان ضروريان : فتاة جميلة وهذه السيارة التى فيها كل صفات الجمال : النعومة والانسياب والهدوء والحنين إليها والاعتماد عليها !

و إعلانات تتجه إلى الطبقة المتوسطة التى عندها كل القرف من الطبقة الدنيا ، وكل أحلام الطبقة العليا : لاتقفز فى سلم الحياة . . وابدأ بهذه السيارة الاقتصادية المتينة الطويلة العمر . . فالسمو والنمو خطوة خطوة وربنا لم يخلق العالم فى يوم واحد . . وأنت لاتصل إلى القمة بالهيلوكوبتر . . أى تسقط من السماء على القمة . . وإنما أنت تزحف شامخا إليها . .

فما المعنى ؟ المعنى أن الإعلانات فى كل تليفزيونات العالم تخلق (عقلا جماعيا) . . تخلق نمطا من التفكير . . تضع زياً موحداً للأفكار بين الناس . . سلوكا حديديا لا يخرج عنه الناس .

أما وسيلة الإقناع فهى : الجمال والأناقة والفكاهة والبلاغة فى الإعلان التليفزيونى !

قرأت تقريرا رفعته إحدى الهيئات العلمية إلى الرئيس الأمريكى ريجان . التقرير فى ١٥٠٠ صفحة . موضوعه :

هل المدرسة قبل التليفزيون أو بعد التليفزيون ؟ وأيهما أقوى ؟ وما الخوف ؟ وما الضرر ؟

وكان هذا التقرير قد توجه باستفتاء ٢٤ ألف طفل وشاب . .

٩٠٪ من الأطفال يفضلون الطعام أمام التليفزيون . .

٨٠ ٪ من الأطفال يفضلون أن يناموا أمام التليفزيون . .

٧٠ ٪ من الأطفال يفضلون النصيحة إذا جاءت من التليفزيون . يعنى لو طلبت الأم شيئا من الطفل أن يعمله أو يمتنع عنه فإنه قد لا يستمع إليها . . ولكن من المؤكد أن هذا الطفل سوف يطيع تماما ما يجئ فى برامج التليفزيون . .

و ٩٠ ٪ من الأطفال لا يتضايقون من الإعلانات التى تجىء وسط برامجهم أو الكارتون الذى يتفرجون عليه . . لأن الإعلانات أقرب إلى الكرتون . . وأبطال هذه الإعلانات أطفال صغار . . وأن أحدا لا يضربهم أو يهددهم بذلك . . وإنما كل الأطفال فى الإعلانات يأكلون ويشربون ويلعبون ويضحكون . . ويفوزون بالقبلات فى النهاية . .

و ٩٠ ٪ من الأطفال إذا وجدوا فى الأسواق نوعا من الشيكولاتة لم يروه فى التليفزيون فإنهم يترددون فى شرائه أو تناوله . .

ومعنى ذلك : أن التليفزيون وحده هو مصدر الأكل والشرب الذى يعجب الطفل . . وأنه وحده القادر على أن يأمر وينهى . . وأن التليفزيون مطاع دائما من الأطفال .

وقد حدث فى إحدى الحفلات المدرسية أن ظهر عدد من أبطال برامج الأطفال بنفس ملابسهم . . ظهروا على المسرح أمام الأطفال وداعبوهم وتحدثوا إليهم . ولكن لوحظ أن بعض الأطفال راح يبكى . ولما سئل عن السبب أجابوا : ولكنهم لايتكلمون كما يتكلمون على الشاشة !

يعنى أن الطفل يريد من الذين يظهرون على الشاشة ويتحدثون إليه أن يكونوا بالضبط كما يظهرون . . ألا يختلفوا عن صورتهم على الشاشة . وإلا كان ذلك خروجا على النص الذى اعتاد عليه الطفل . إلى هذه الدرجة قد تأثر الأطفال بالتليفزيون . . وكان التأثر حرفيا . . فالطفل يريد نفس الكلمات والحركات . . وهذا هو الشرط الذى يحرص عليه الطفل لكى يكون مطيعا . بتنفيذ كل ما يطلبه التليفزيون . . دون مقاومة من الطفل . . ودون مقاومة من والديه أيضًا !

أما الاستفتاء الذى وزعوه بين الشبان وأكثرهم من طلبة وخريجى الجامعات وصغار الموظفين فهو يغطى مجالات أوسع وأعلى وأكثر تعقيدا .

فأجاب ٨٧ ٪ من الشبان أنهم يفضلون الفتاة الرياضية التلفزيونية . .

و ٨٦ ٪ يفضلون الفتاة التى تنجب طفلا واحدا . . ولدا أو بنتا . .

و ٨٠ ٪ يفضلون الجريئة التى تفرض نفسها عليهم . . أى التى تتجه إليهم وتدخل فى الموضوع مباشرة هكذا :

ـ هل أمك ما تزال على قيد الحياة ؟

ـ نعم

ـ مريضة ؟

ـ مرضها ليس مميتا .

ـ هل هذا رأيك .

ـ رأى الأطباء

ـ وأنت ماذا ورثت عن أمك ؟ صحتها ؟ بخلها ؟ حبها للناس ؟ كراهيتها للأطفال ؟ . . ماذا بالضبط ورثت عن أمك ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأننى أريد أن أعرف ما هى الصفات التى سوف أواجهها اذا تزوجنا؟

ـ ومن قال إننا سنتزوج ؟

ـ أنا التى تقول . .

ـ ولكن ليس هذا رأيى !

ـ سوف يكون رأيك !

ـ كيف ؟

ـ هذه مهمتهى وبراعتى أيضا . . هاها . . هاها . . إننى اضحك معك فلا تخف . . فأنا أكره الزواج . . ورأيت أمى وأبى يعيشان فى تعاسة تامة . . فصورة الزواج أمامى بشعة . .

ـ ولكنك جميلة وذكية

ـ تماما كما قال لى كثيرون

- وهل عرفت كثيرين ؟

- ليست جميلة ولا ذكية من لا تعرف كثيرين . . وأنا أرى أنك (قفل) فلاح تكره المرأة التى لها تجارب فى هذه الدنيا . . وكنت أظن أن أمثالك قد اختفوا مع الهنود الحمر . . ولكن يبدو أننى غلطانة . .

- لا . . لست ضد الزواج . . أبدا . . إننى رأيت أبى وأمى يعيشان فى سعادة . . وقد ورثت منهما الشجاعة . واتخاذ القرار السريع والحاسم . .

- أنت ؟!

- نعم أنا . .

- هل تتزوجنى الآن وفورا ؟!

- نعم !

وهكذا نجحت الفتاة الجريئة !

و ٧٨ ٪ من الشبان يرون فى المسلسلات التليفزيونية صورة من الواقع . . وأن المشاكل التى تعرضها وتحلها ، أو تحاول ذلك هى نماذج للحياة . . أو (دليل العمل الزوجى) من أجل حياة أفضل . .

٩٠ ٪ من شباب الريف يرون أن التليفزيون والسينما والمسرح تفسد الحياة الاجتماعية . . لأنها تفرض على الناس نوعا خاصا من المشاكل العائلية التى يفرضها المؤلفون على اخلاقيات الناس . . وأن عيب هذه الأعمال الفنية على الشاشة وعلى المسارح : أنها تعقد العقد حتى يخيل إلى المشاهد أنها مستحيلة . . وفجأة تحقق المعجزات ويجىء الحل سعيدا فى النهاية !

ويرى هؤلاء الشبان أن التليفزيون والسينما والمسرح ترسخ معنى (المعجزة) عند الناس . . وأن مشاكلهم تحتاج إلى قوة خارقة لكى تنحل . فإذا لم تنحل فالناس يصابون باليأس والقرف والإحباط . . وهذا يدفعهم إلى حلها بالعنف . . وهناك طريقتان لحل أية عقدة : أن تحلها وأن تقطعها . . وقطع العقد أسهل من حلها . . ويكون القطع بالسكين وبالنار أو بالهرب من الموقف . . وذلك بالانتحار أو بالإدمان . . إدمان المخدرات أو الجنس أو الهوس الدينى !

و ٨٨ ٪ من الشبان من أبناء المدن يفضلون الزواج من أجنبية سمراء أو صفراء .

و ٨٠ ٪ من أبناء الريف يفضلون الزواج من أمريكية بيضاء .

و ٧٠ ٪ يفضلون الزواج من أوروبية .

أما الأسباب فهى : أن الملونات على الشاشة ـ وخاصة الآسيويات ـ هن أكثر رقة وأكثر نعومة وأكثر أنوثة . . وأنهن زوجات مطيعات . . وأن الزوجة الآسيوية ليست لها مطالب . . ولا تضع رأسها على مستوى رأس الرجل . وتطلب المزيد . والأمريكية لا يخيفها الطلاق ولا يربطها الأطفال . فمن الظواهر الجديدة فى المجتمعات الأمريكية أن الزوجة تترك البيت وفيه الأولاد . . وترى فى ذلك عقوبة للرجل !

أما المرأة الآسيوية فهى تستسلم لكل الظروف . وأنها حيث يضعها زوجها الأمريكى . المهم عنده أن تكون المطيعة النظيفة الراضية الممتنة له أبداً .

وجاءت فى التقرير اجابات نموذجية لذلك . ففى حوار بين أمريكى وزوجته الصينية :

يقول هو : فى العام القادم سوف نذهب لزيارة والديك .

ـ (تنحنى إلى ما يقرب من الأرض)

ـ هل تحبين قبل هذا الموعد ؟

ـ (تنحنى أيضا)

ـ على كيفك !

ـ (تنحنى مرة ثالثة) . .

ومعنى هذا الانحناء أنها شاكرة له أى قرار يتخذه : اليوم أو غدا أو يعدل نهائيا عن السفر . فالقرار قراره وله الشكر على أى حال . .

فإذا كانت الزوجة أمريكية :

هى تقول : أنا أرسلت كارت معايدة لوالدتك . .

ـ شكرا

ـ إذن لا داعى لزيارتها هذا العام . .

ـ لم أفكر فى ذلك . .

ـ أنا فكرت ووجدت أن الميزانية لن تسمح وخاصة أن الزيارة ستصادف عيد ميلاد والدتك . . وهذا يحتاج إلى هدية منى وهدية منك . . ومن أولادنا أيضا . .

ـ ولا داعى لرؤية والدتك أنت أيضا !

ـ لم أفكر فى ذلك . .

ـ ألا ترين أن من المناسب أن أولادنا يجب أن يعرفوا أن لهم أجدادا . . إنهم لم يروا واحدا منهم منذ سبع سنوات . .

ـ هل ينقصهم شىء ؟

ـ أبدا . .

ـ إذن سوف تجيء مناسبات أهـم وأكبر سيرون فيها هؤلاء الأجداد عند الموت . . أو قبل ذلك بقليل . .

ـ أقول لك بصراحة أنا وحشتنى أمى . .

ـ هكذا فجأة .

ـ طبيعى أن يشعر الإنسان بوحشة . .

ـ طبعا تقصد أنه مضى عليك زمن طـويل لم ترضع من ثدى أمك . . لا ترفـع صوتك حتـى لا يسمعك الأطفال فيصـابوا بخيبة أمـل فيك . . حين يكتشفون أن أباهم ما يزال (عيلا) رضيعا .

ـ أنا أشكرك أنك فكرت فى إرسال كارت معايدة لوالدتى . .

ـ وأنا لا أجد ما أشكرك عليه . . فلا فكرت فى أبى ولا فى أمى . . مع أنهما كان يقفـان إلى جانبك يوم رفضـت أنا الزواج منك لأنـك أقصر منى ولأنك تكبرنـى بثمانى سنـوات . . وفى كل مـرة أحدثهما عـن أنك بخيـل شحيح يدافعان عنك .

وعن رأى الأطفال فى برامج التليفزيون الخاصة . .

قال ٨٠ ٪ من الأطفال إن الأم تتركهم أمـام برامج محددة وتطلب إليهم ألا يتحركوا من أمامها . . وهى البرامج التى تدعو الطفل إلى نظافة اليدين وإلى غسلهما قبل الأكل وغسل قدميه قبل النوم .

والسبب فى ذلـك : أن الأم ليس عنـدها متسع مـن الوقـت . . ثم إن الأسرة متوسطة الحال ليس عندها خادمة تقوم بتوجيه النصائح إلى الأطفال فى غياب الأم !

و ٦٠ ٪ من الأطفال يقـولون إن الأم تطلب إليهم أن يشـاهدوا الأفلام الجنسية . ولا تكتفـى الأم بذلك بـل تحرص على أن يكون المشاهـدون من الأطفال الصغار إناثا وذكورا .

وانتهى التقرير العلمى التربوى الاجتماعى النفسى الأخلاقى إلى عدد من التوجيهات الهامة .

أولا أن يبادر الآباء والأمهات إلى الوقوف بين الأطفال والتليفزيون . فلا يرى الطفل إلا ما يراه الأبوان مناسبا لعمره . . ومطابقا للقيم الأخلاقية التى يؤمنان بها . .

وما دام التليفزيون من ضرورات الحياة فدور الأب والأم من ضرورات الصحة النفسية والاجتماعية . ولاشىء فى الدنيا يعادل تنشئة طفل سليم صحيح ـ مواطن صالح .

ومادامت الدولة لا سلطان لها على شركات التليفزيون وما يعرضه من كل الرذائل ، فلا بد أن يتدخل الأبوان بالنصيحة والإرشاد والتحذير . . وأن يكون ذلك بمنتهى الرفق . .

وفى التقرير أن بعض الآباء يفضلون أن يهرب الأبناء إلى الأندية الرياضية بدلا من التليفزيون : ففى الأندية الصحة والمتعة والحياة الاجتماعية . .

وعيب الأندية أنها تخلق مواطنا سليما تنقصه الثقافة والأفق الواسع وإدراك ما فى الدنيا وما حولها . .

والمشكلة الآن : هل الأفضل أن يكون الابن سليما صحيحا قويا أو يكون الابن واسع الأفق مستنيرا مثقفا ومنحرفاً أيضا .

هذه المعادلة لا تتولى الدولة حلها . . وإنما الآباء والأمهات والأبناء معا!

ثم من الذى ينقذ الصغار والكبار من فيضانات التفاهة والركاكة والابتذال والاستخفاف بعقول الجميع ؟ إن (الدش) الذى فوق الأسطح الآن يتدفق بما يجعل العقل عاطلا والقلب موجعا والطريق ملتويا والهدف مرتعشا !

السندوتش والكافيتريا ..
وأنا مبسوط كده !

من أهم أحداث أواخر القرن العشرين أن شعرت الدول الأمريكية والأوروبية بأنها لم تتقدم بدرجة كافية . . أى لم تلحق باليابان ، وتخشى أن تسبقها اليابان فى العلوم والصناعة والأسواق وجيوب ألوف ملايين الفقراء .

اعترفت بذلك أمريكا . وكان القرار : لابد من عمل فورا .

أول صدمة تلقتها أمريكا كانت عندما أطلق الروس أول قمر حول الأرض . أكبر صدمة للحضارة الغربية والرأسمالية الأمريكية . . وأعظم تحية للشيوعية . فلولا النظام الشيوعى والعلم والانضباط ، ما أفلح العلماء الروس أن يسبقوا أمريكا وأوروبا للدوران حول الأرض . . أطلقوا أول قمر . أو كلبة تدور وتموت فى سفينة فضاء . . أول مرة تكون السفينة نعشا يدور حول خمسة آلاف مليون مشيع . . فالجنازة حارة والميت كلب !

والروس أول من أطلق رجلا فى الفضاء . أطلقوا جاجارين . . الشاويش الصغير الضئيل . الذى التف حوله الناس يسألونه . وكان رده البسيط : أنا لست عالما أنا جندى قام بمهمة !

وهى إجابة عاقلة . .

ولكن جاجارين تطوع بشىء خطير بعد ذلك . . وهو أنه قال : عندما صعدت إلى فوق لم أجد الله !

طبعا شاب عبيط . . لأن (فوق) هذا ليس إلا مائتى كيلو متر من سطح الأرض . . ما هذه الكيلومترات إذا ما قورنت بأن أبعد جسم فى هذا الكون يبعد عنا رقما وأمامه مليون صفر من الكيلومترات !

طبعا هو عبيط ولكن الذين بعثوا به إلى الفضاء الخارجى من أعظم العلماء . وهذا هو الذى يهم . .

أما الأمريكان فقد قدم لهم العلماء الألمان الذين أسروهم فى الحرب مشروعا بصاروخ وسفينة فضاء . وقد وجد الكونجرس المشروع مكلفاً فرفضوه . ولكن إطلاق الروس للأقمار المختلفة جعل الكونجرس يعجل بتنفيذ ما تقدم به العالم الألمانى فون براون الذى اخترع الصواريخ التى ضربت لندن . وبعد شهور أطلق الأمريكان أول صاروخ وبعد ذلك أول من مشى فى الفضاء وأول طاقم من رواد الفضاء وداروا حول القمر وكانوا أول من نزل . . وأصبح الأمريكان أول كل شىء حول الأرض والكواكب الأخرى !

وعند هذه الصدمة الأولى اجتمع العلماء يتساءلون : ماهى الأسباب التى جعلت الروس يتفوقون علينا . . ؟

ذهبوا ودرسوا برامج العلوم فى روسيا . . فى المدارس والجامعات . فوجدوا أن التلميذ الروسى أكثر انضباطا وأكثر جدية من التلميذ الأمريكانى . ووجدوا أن التلامذة الروس يتعلمون الرياضيات العليا فى المدرسة الابتدائية . إذن لابد من البحث ولابد من تغيير برامج التعليم . .

وتشكلت لجنة من علماء النفس والتربية والرياضة والطب والفلك والصناعة لوضع تقرير عن حال التعليم والتلميذ . وقررت اللجنة أن تظل منعقدة إلى نهاية هذا القرن . هذا التقرير أنا حملته إلى الرئيس حسنى مبارك فى بيته . . وقرأه وبعث به إلى د . مصطفى كمال حلمى وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت . . وقد ناقش هذا التقرير ورد عليه فى عدة مقالات فى مجلة أكتوبر .

وعندما تقدم د . فتحى سرور بمشروع إصلاح التعليم أشار إلى هذا التقرير فى بيانه الذى ألقاه فى القاعة الكبرى بجامعة القاهرة . فالتقرير خطير .

ولقد اكتشف هذا التقرير : أن التليمذ الأمريكى عاشق للسندوتش والكافتيريا وملاعب الكرة والرقص والبنات !

أما السندوتش فمعناه أنه لايجد لذة فى الطعام . . أو فى الجلوس إلى المائدة . . مع الناس . . مع أصدقائه أو والديه . . وإنما يفضل السندوتش فى ورقة والجلوس وحده أو فوق الترابيزات فى أى مكان .

أما خطورة السندوتش فهى أن التلميذ قد أحب هذا النوع من الطعام . . أى الرغيف الذى به شىء من اللحم والطماطم والبطاطس . .

وأنه يحب الكتب والمجلات والمحاضرات التى لها شكل السندوتش ومذاقه . . شىء من كل شىء . . شىء سريع خاطف . . فلا قدرة له على المائدة أو الوليمة أو تناول الطعام على مهل والحديث أثناء الطعام . . أى أنه لايفضل الكتب والمحاضرات الطويلة والتأمل فى الذى قرأ والذى سمع !

ولذلك هرب من المدرجات إلى الكافتيريا . . يستأنف الكلام والضحك . . أما المدرجات والمعامل فلا يحضرها إلا القليلون جدا من

الطلبة الجادين . وعاشق السندوتش يفضل النشاط الرياضى . فالرياضة صحة وشباب وفلوس وبنات ورقص وشهرة . . ويكفى أن تنظر إلى شكل العلماء وشكل أبطال الرياضة . فإنه ولا أحد يعرف العلماء ولايراهم وإذا رآهم فإنه وهو يمضع اللبان يقول : وإيه يعنى ؟ ثم إنى لا أحب أن أكون غليظ المنظار وقد انكسر وضاع عمرى . . والمقابل : لاشىء . . او مقال هنا أو هناك . . ولكن نجوم الكرة . . ونجوم السينما فهم المثل الأعلى : الشباب والشهرة والفلوس !

وكان من الممكن ألا يتغير أى شىء فى أمريكا لولا هذه الصدمة . . ولأن الصدمة كانت عميقة ، أصابت كبرياء أمريكا وعلومها وعلماءها وشعبها ، فقد قفز الأمريكان إلى البحث عن العلاج . وقرروا . وعزموا . ووجدوا العلاج .

وفى نفس الوقت عايش العالم كله ما حدث . ولكن أحدا لم يتأثر . . لم يثر . . لم يثأر . وإنما الشعوب الحية القادرة هى التى قفزت من الإهانة إلى التفوق . .

إن عالمنا المصرى الجليل رفاعة الطهطاوى قد أصابته صدمة عنيفة عندما كان فى فرنسا . وقد حدثنا الطهطاوى فى كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) عن مدى إعجابه بالشعب الفرنسى . فقط لاحظ أنهم يراعون الشروط الصحية . فهم لايأكلون بأصابعهم . ثم إنهم إذا جلسوا إلى الطعام كانت عندهم (طبلية) عالية . . يقصد ترابيزة سفرة . . وأهم من كل ذلك فإنهم يتكلمون ويتناقشون أثناء الطعام . . فليس الطعام هماً يريدون أن يفرغوا منه . . إنما الطعام مناسبة اجتماعية لتذوق الفكر والحوار . .

وعندما ذهب إلى باريس أدهشه أن المرايا إذا وضع إلى جوارها أصابعه . فإن الأصابع تظل بلونها وحجمها الطبيعيين . . فليست مرايا باريس مثل مرايا القاهرة : مقوسة أو مقعرة

أما الصدمة الحقيقية لرفاعة الطهطاوى فهى : عربة الرش . . فقد رأى الفرنسيين يرشون ميدان (الكونكورد) بعربة الرش . . ويستغرق ذلك ساعتين أو ثلاثا . . بينما نحن فى مصر نرش الميادين بالجرادل وتستغرق هذه العملية يوما من الشروق إلى الغروب . وتمنى رفاعه الطهطاوى من الله سبحانه وتعالى (أن يفيض للكنانه مثل هذا الاختراع اللطيف) ؟!

فما الذى فعله رفاعة الطهطاوى الذى بعث به محمد على الكبير ليكون إماما لأبنائه عند الصلاة . . أما الأبناء فقد انصرفوا عن التعليم ، وأما هو فالذى تعلم وجاء يعلم مصر كلها . . لقد ترجم الطهطاوى الدستور الفرنسى . ورأى أنه من غير دستور لاعمل ولاتقدم ولا انضباط ولاحضارة. ثم إنه أيضا كان رائد الترجمة إلى العربية ورائدا للتنوير . .

إنها الصدمة التى فتحت دماغه وفتحت الطريق أمامه . . وأمامنا أيضا !

ولم يعرف التاريخ كله ثورة بيضاء بلا قطرة دم وإنما كثير من قطرات العرق ، كالتى قامت بها اليابان . فاليابانيون فوجئوا فى يوم من الأيام ببارجة أمريكية تقف فى ميناء طوكيو فى منتصف القرن الماضى . أول سفينة حربية بها مدافع . ولها بحارة يرتدون زيا أبيض موحدا جميلا . مفاجأة كبرى . . وتحت تأثير هذه الصدمة العنيفة اعترف اليابانيون بأنهم متخلفون تماما . ولابد من حل . قرروا . عزموا . حشدوا علماءهم . وبعثوا بعدد منهم إلى أوروبا وأمريكا ليعودوا يعلمونهم الطريق إلى التقدم .

عاد العلماء بعد شهور من هذه الصدمة . أما القرار فهو : نحن لانستطيع أن نبعث بالشعب انتهى القرار . فماذا فعلوا ؟

أتوا بعلماء من بريطانيا ليقيموا لهم السكك الحديدية والتليفون .

وأتوا بعلماء من ألمانيا لتطوير صناعة الدواء والمستشفيات .

وبعلماء من فرنسا ليضعوا لهم دستورا جديدا .

وبعلماء من إيطاليا ليضعوا برامج للتعليم ومدارس نموذجية . .

وجاء الخبراء الأجانب وعلموا ألفين من اليابانيين . وعاد الخبراء إلى بلادهم وتولى الألفان من المتعلمين اليابانيين تدريس ما تعلموه لمليون ياباني . . وعلموا وتعلموا وتقدموا وأقفلوا الأبواب عليهم . وتطوروا وتصدروا وتفوقوا !

فما هو المعنى ؟

المعنى أنه لكى نتعلم لابد أن نتأكد من أننا فى حاجة إلى التعليم . وأن الذى نحن فيه جهل أو نوع من الجهل . أو الركود . وأن تشابه الناس فى الأفكار وانطباقنا بعضنا على بعض ليس مظهرا من مظاهر الصحة ، وإنما هما صورة من صور الجمود . لابد أن نكسر الجمود لابد أن نكسر قشر البيضة . . لابد أن نقفس أن نخرج من الطوق الحديدى . هذا الطوق الذى حول رؤوسنا من الداخل والخارج صنعته وسائل الإعلام المقروءة والمرئية التى تسقينا جميعا من ماء واحد . . وتقدم لنا نوعا واحدا من الفكر والمشاكل المفتعلة والحلول الجاهزة . . واليأس العام من أن يكون هناك ما هو أحسن . . أو ما هو أفضل . . وإن المثل الأعلى للإنسان القاصر المعلومات مايريد ــ مايريد الجهاز وصاحب الإعلان والمسئول ويبقى المشاهد سلبيا حتى يعجز تماما عن الخروج من هذه البحيرة العسلية . . أى التى امتلأت بالعسل المعطر . . وهو لايقوى على أن ينزع نفسه منها . لايقوى على إنقاذ نفسه من (الموت السكرى) . . تماما كما تقع الذبابة فى طبق العسل . . إنها تحبه وقد أمسك بأطرافها . . فهى تحبه

حتى الموت . . تصور أن الذبابة تقاوم انظر . . ثم انظر إلى نفسك . إنك أنت لا تقاوم . وأنت لا ترى ذلك مهما . لأنك مبسوط كده . وكل الناس المبسوطين كده ، ليسوا هم الذين يدفعون أنفسهم إلى الأمام . . وشعوبهم أيضاً !

وهناك صدمة أخرى تفتح باب النجاة من (شمولية) التليفزيون . .

هل تذكر العسكرى الذى يمشى فى الحوارى ليلا ويقول : مين هناك ؟

أكثر القراء لم يروا ذلك إلا فى الأفلام القديمة . هذا الرجل نتحدث عنه دائما لأنه كان رمزا لهيبة القانون . . إذ يكفى أن رجلا بسيطا يطلق هذا التحذير حتى يرتبك اللصوص . .

ونحن نذكر هذا العسكرى ونضحك لأنه لم يعد له وجود . . وأنه تجاوز عمره الافتراضى وظهر أمامنا فى الزمن الخطأ . فلم يعد مثل هذا الرجل يخيف أحدا ، وإنما هو يبعث على الضحك . . ونضحك !

ثم اختفى هذا الرجل وظهر رجل المباحث : المخبر . . يرتدى الجلباب وفوقه البالطو والطاقية والمنظار الأسود ويحاول ألا يلفت الأنظار إليه . .

واختفى هذا الرجل ولجأت أجهزة المباحث والمخابرات إلى ما لا نهاية له من الناس رجالا ونساء .

والجاسوسية قديمة جداً . . قديمة منذ أن بعث موسى عليه السلام بعشرة من رجاله إلى أرض كنعان (فلسطين) ليعرفوا أى نوع من الناس . . وأى نوع من الحياة هناك . . فعاد اثنان منهم يقولون : إنها أرض اللبن والعسل .

أى فيها مزراع كثيرة تعيش عليها حيوانات تدر لبنا ، وفيها زهور يعيش عليها نحل العسل . . وموسى عليه السلام رأى أرض فلسطين ولم يدخلها.

وفى كل العصور جواسيس من كل لون ونوع .

وهناك أجهزة علمية دقيقة جبارة تحكم الكرة الأرضية وتشعل الحروب وتقتل وتحارب وتهدم . . إنها المخابرات الأمريكية وكى . جى . بى الروسية والأستاشى الألمانية الشرقية وكان الجستابو أيام هتلر والموساد الإسرائيلى . .

إن هذه الهيئات الكبرى التى تستخدم العلماء والأطباء والمهندسين والمجرمين واللصوص والتى تبيع المخدرات وتزور العملات . . إنها سلطات جبارة لها هدف واحد : الحصول على المعلومات .

فهى أجهزة مخيفة للحصول على المعلومات وترويج المعلومات والمعلومات المضادة . فلها هدف واحد : أن تعرف أسرار العدو الحربية والصناعية ، وهى تستخدم كل الأساليب غير المشروعة من أجل الحصول على هذه المعلومات . . ولذلك تستخدم الأجهزة الالكترونية تضعها فى كل جيب وكل حائط وكل كوب وتحت السرير وفى التليفون وفى السيارة . .

وهى معترف بها دوليا . . وكل الدول مهما كانت صديقة تتجسس على الدول الأخرى . .

ويوم كان السادات فى القدس كان يتطلع من حين إلى حين إلى السقف ليعرف إن كانت هناك أجهزة تنصت (تصنت : خطأ لغوى) . . وكذلك الرئيس كارتر عندما نزل فى نفس جناح السادات كان ينظر إلى السقف ـ هو الذى قال ذلك فى مذكراته . .

وفى لقاءات كامب دافيد قرر الرئيس كارتر عدم استخدام أى أجهزة للتنصت على المصريين واليهود ـ خوفا من إثارة قضية لا مبرر لها . . ولأن كارتر لم تكن لديه أجهزة ليعرف ماذا تقول الوفود فقد كتب فى مذكراته أنه

سمع ضوضاء فى الجانب المصرى واستنتج أن اسامة الباز وآخرين يخططون لاغتيال السادات ؟ ! فاستدعى مستشار الأمن القومى برزنسكى ليرى ماذا يمكن عمله . . ولكن عندما رأى الرئيس السادات قد بدأ رياضة الصباح ، استراح تماما !

ولما كنت مع السيد كمال حسن على فى القدس ، وهو رجل المخابرات ، كنا نلاحظ أن الراديو الموجود فى الغرفة يعلو صوته إذا سكتنا وينخفض تماما إذا تكلمنا . وكان يضحك ويقول : أليسوا يعرفون أننى رجل مخابرات . . وأننى لو أردت أن أدلى بسر ، ، فلن أقوله فى الغرفة ؟!

إنه عرف دولى لا خلاف عليه بين جميع الدول .

والأمريكان لاحظوا أن عدداً كبيراً من موظفى السفارة فى موسكو قد أصيبوا بالسرطان . ثم اكتشفوا أن فيضا من أشعة الليزر يطلقه الروس على كل موظفى السفارة . . ثم قرر الأمريكان ترك السفارة كلها وبناء واحدة جديدة . . وذلك عندما اكتشفوا أن أجهزة التنصت فى كل مكان فى المبنى . . ووراء الجدران وتحت المكاتب وفى مفصلات الأبواب والنوافذ وأجهزة التكييف .

فما المعنى ؟

المعنى أننا فى عصر المعلومات الكثيرة جدا التى ننشرها وننشر معلومات مضادة لها . وإن هذا واضح جدا فى التليفزيون . . عشرات الشركات التى تنشر على الناس ما يريدون وما لا يريدون من المعلومات والمعلومات المضادة حسب رغبات الاعلانات التى تدفع ألوف الملايين ضد اللحوم ومع اللحوم وضد الخضراوات ومعها وضد الأوزون ومعه . ثم إذاعة ما لا نهاية له من المعلومات التافهة والأخبار المخيفة .

والنتيجة : أن النـاس تشابهوا جدا فى معلـوماتهم وأفكارهـم وأسلوب حياتهم . وأصبحوا مثل زجاجات الكوكا متطابقة فى الحجم واللون .

وأصبحت الصـور التى لديهم واحدة . فمثـلا : الزعيم لينين لـه ذقن عريضـة . . وستالين له شـارب طويل وهتلر لـه قصة . . ومارلين مـونرو أطار الهواء ثوبها أمام عشرات الألوف مـن القوات الأمريكية فى فيتنام . . وسعد زغلول رافعا يده يخطب وإبراهيم باشا فوق حصانه . . صورة محددة ثابتة وكليشهات واحدة . . وكذلك كل أفكار الناس .

وقد أدى التليفزيون إلى نقص توزيع الصحف والمجلات والكتب .

ولكـن فجأة حـدثت صـدمة خطيرة لم تظهـر عندنـا بعد ، ولكـن فى أمريكـا . . ففى أمريكـا زادت شركات الإذاعـة من ألف شركـة إلى سبعة آلاف شركة فى سنة ١٩٨٠ فالناس يفضلون الإذاعة المنوعة على التليفزيون المحدود . . مائة قناة . . ولكن الإذاعة أكثر من ألف برنامج يوميا . .

ثـم صـدمة أخـرى : فقـد ظهـرت صحـف إقليمية . . تهتـم بحـال المواطنين فى العـالم . . فالتليفـزيـونـات العالميـة تهتـم بـالدنيـا . . بكـل الدول . . خبر مـن هنا وخبر من هنـاك . . ومعلومـة خاطفة وإعـلانات تافهة . . ولكـن الصحف المحلية تضع المواطن فى الـريف فى المقام الأول وتهتم به اهتماما بالغا بمشاكله وحياته .

ثم صـدمة أخرى : ظهـرت المجلات الإقليمية والمتخصصـة . . مجلة لكرة القدم ومجلة للتنس والانزلاق والمصارعة والملاكمة . . مجلة للمهندس ومجلـة للطبيب . . ومجلـة للحـديقة ومجلـة للكـون . . ومجلة للكـاميرات القديمة ومجلة لطوابع البريد .

وهبط توزيع الصحف الكبرى التـى لا تختلف كثيرا عن التليفزيون فى (شمولية) المعلومات والآراء والأخبار .

ولكن أهم من هذا كله : ظهور شركات الفيديو . . أى الشركات التى تعطيك حق أن تختار الفيلم أو الموضوع أو القصة التى تعجبك فتظهر على الشاشة عندك فى البيت . . مقابل مبلغ من المال . . ففى أى وقت تضغط على زرار لتجد على الشاشة أمامك كل ما تريد من موضوعات وقضايا وأفلام ومباريات ومحاورات . .

وهكذا استرد المشاهد حريته فى أن يعرف ما يعجبه . . وفى أن يختلف عن بقية الناس . . فلا يكون زجاجة كوكا أو قالبا من الطوب أو فردة حذاء . . والفردة الثانية عند جارك !!

وقد كان التليفزيون ولايزال يقوم (بتوءمة) المشاهدين . . أى تجريدهم من أية مزايا أو صفات خاصة . . وجعلهم متشابهين متطابقين . . فاذا جلس الواحد إلى جوار الآخر لم يجد ما يقوله . فهو يعرف الإجابة مقدما . . فاستولى الصمت على الناس . وانعدمت الصلات الإنسانية والوشائج العائلية .

وكان الأديب الفرنسى أندريه جيد ينصح الشبان بقوله : ابعدوا عن الذى يشبهكم ! أى يبتعدون عن الشىء الشبيه بهم ، وعن الشخص الذى يتشابه معهم فى كل شىء . . حتى يجد الإنسان شيئاً مختلفا فى إنسان مختلف . . ولكن الذى لايرى إلا نفسه فى المرآة فقد حبس نفسه فى نفسه . . وحكم على نفسه بالإعدام .

وفى أساطير الاغريق . .

كانت هناك ثلاث أخوات اسمهن : أخوات الجرجون كل من ينظرن إليه يتحول حجرا . . وهكذا تحولت الدنيا كلها حولهن إلى صحارى حجرية . . فكل شىء ينظرن إليه يموت . . ويصبحن وحدهن الأحياء فى عالم ميت ـ منتهى العذاب !

وأخيرا لقيت أخوات الجرجون نفس الجزاء . . فقد تخلص منهن أحد الأبطال . . عندما وضع أمامهن مرآة . . فلما نظرن إليها تحولن إلى أحجار!

والإنسان يصبح كبنات الجرجون إذا لم يجد إلا نفسه فى كل مكان . . وفى كل أخ وصديق وجار . . فهى حياة قاحلة ماحلة . . وإذا وجد الإنسان مرآة له . . فلابد أن ينتحر هو الآخر وأن يموت .

ولذلك يجب أن نبدأ التحرر من ربقة التليفزيون ومن استعباد الصحف التى (تفبرك) الناس وعقول الناس وأحلامهم وطموحاتهم وتزيف يومهم وليلهم . .

ونحن لم نصل إلى ما وصلت إليه أمريكا من عبودية للتلفزيون .

وفى نفس الوقت لم نشبع بعد من التليفزيون والصحف الكبرى . . ولكن سوف يجىء الوقت . .

وأنا ألفت النظر إلى ذلك واستعجل الخلاص حتى لا نكون عبيدا لوسائل الإعلام التى تتولى مسحنا ومسخنا ومحونا ـ مسح ملامحنا ومسخ عقولنا ومحو شخصيتنا . . فحاول أن تهرب قبل فوات الأوان وأولادك فى يدك !

ولم يكن الإنسان مهمًّا في كلّ العصور!

وأنـت جالـس أمام أى تليفـزيون تـأكل . . تشرب ــ تسرح . . فماذا ترى؟ ماذا يقال لـك ؟ وماذا تحب أن يقال لك ؟ ما الـذى اعتدت عليه ؟ ما الذى عودوك عليه ؟

الدنيا أصبحت قريبة جدا . . فـأنت ترى الكواكب الأخرى . . وترى الثقوب السـوداء التى تـأكل النجـوم فى السماء . . وترى القـارات وأعماق المحيطـات . . وترى الشعـر فى سيقان لاعبـى كرة القـدم فى أمريكـا . . والدموع واحـدة واحدة فى عيون الأطفال الجياع فى روانـدا . . والذباب فى عيون الأطفال المصريين ومثل هذه الصور ذباب على وجه مصر . .

والدنيا اتسعت أمام التلسكوب والمراصد الفلكية . . والدنيا كبيرة جدا تحت الميكروسكـوب . . فقد استطـاع العلماء أن يجعلوا صـورة الخلية أكبر مليـون مرة . . فـأصبحت على الشـاشـة كأنها أكبر ميـدان فى الدنيـا . . وعندى فيلم صـورته كاميرا وضعوهـا فى رحم الأم أثناء لقاء الحيـوان المنوى بالبـويضة . . وسمعـت صوت الحيـوانات المنـوية فى صراعهـا من أجـل الوصول إلى البويضـة لتمتد الحياة وينقل هذا الحيوان الضئيـل كل صفات الأب والأم ويسيطر على عملية النمو من خليـة إلى علقة إلى مضغة والعظم واللحم والجهـاز العصبى والمخ الإنسـانى . كيـف ؟ إنها عظمة اللـه . . والتطور العظيم للطب وأدوات الطب . .

والتليفزيون والإذاعة والسينما والصحف كلها تصب المعلومات والحكايات والمشاكل التى يريدها المشاهد والتى تريدها شركات الإعلانات والدولة . .

وهذه الأجهزة التى صنعها الإنسان أصبحت أقوى من الإنسان . . وأكثر قدرة على الانتشار والنفاذ إلى أعمق أعماق الإنسان . وأقوى على الإقناع . .

ولأنها أقوى وأجمل وأعمق فقد جعلت الناس يتشابهون فى أفكارهم وسلوكهم وخيالهم وأحلامهم . . أو انعدام الخيال وموت الأحلام . . أو استسلامهم أو رفضهم أو تمردهم . .

فالذى تقوم به هذه الأجهزة فى العالم كله هو (غسيل مخ) لألوف الملايين . . ووضع فكر جديد ومشاكل جديدة أيضا . .

ولاتنس أن الإنسان هو الذى اخترع كل هذه الأجهزة . ثم صار ضعيفا أمامها . هو جعلها كبيرة جبارة ، فجعلته صغيرا ذليلا ذلولا . .

فالإنسان الذى صنع القنبلة الذرية يخيف بها عدوه ، قد أخاف بها نفسه أيضا . وجعلها كبيرة ، فجعلته صغيرا . .

وفى كل مراحل التطور التاريخى كانت (التكنولوجيا) ـ أى علوم وفنون تطوير الأدوات التى هى أسلحة الحياة والصحة والموت ، أهم كثيرا جدا من الإنسان الذى اخترعها . . بل لم يكن الإنسان مهما فى الدرجة الأولى فى كل العصور . . فالإنسان أقام الأهرامات على جثث عشرات الألوف من العمال والفلاحين . . والإنسان أقام سور الصين العظيم . . والإنسان حفر قناة السويس وبنى السد العالى . . وهو الذى صنع الصواريخ وسفن الفضاء وأنفق ألوف المليارات التى كان يمكن إنفاقها على الفقراء وعلى علاج المرضى . ولكن المهم هو هذه الأبنية وهذه الصناعات . . أما

الإنسان نفسه فليس مهما . الإنسان المهندس الإنسان المخترع الإنسان الحالم هو الذى يفرض فكره ويطبعه بالدم والحديد والنار.

والحروب التى أشعلها الساسة والزعماء قد أهلكت مئات الملايين دون أن يهتز الزعيم أو القائد . . ففى الخمسة آلاف سنة الماضية لم نعرف السلام إلا مائتين وعشرين عاما . . السلام أو وقف إطلاق النار بين حربين . وفى هذه الحروب ماتت الملايين . فى الحرب العالمية الثانية وحدها مات مائة مليون نسمة . . والبيوت والمصانع والطرق . ولكن نظرية الزعيم وفكره وخياله هو الذى يهم . . والطائرات والصواريخ والغواصات والقنابل ونجاحها فى مهمتها هو الذى يهم . ونجاحها هو إبادة الملايين من الناس . .

ولما دخل الإنسان فى عصر الآلة والعقول الألكترونية ، أدى ذلك إلى تغيير فى الحياة وأسلوب الحياة . . حتى أصبح المثل الأعلى للإنسان أن يكون هو نفسه مثل الآلة : منضبطا . وفى نفس الوقت لا يعرف الخلل . فهو ـ إذن ـ قد صنع الآلة فصنعته الآلة .

وأصبح مثله الأعلى أن يكون (قطعة غيار) فى آلة ضخمة . . هذه الآلة الضخمة هى الشركة . . هى المؤسسة . . هى المجتمع . . هى الحزب . . هو يموت وتعيش الآلة . .

فالمطلوب من الإنسان أن يكون (روبوت) آلة منضبطة مطيعة . . لا إنسانيا !

فالمهم هو : الانضباط . . النظام . . السير فى الطابور . . وينسى أنه إنسان . . وأن يتذكر دائما أنه آلة . . هذه الآلة تتلقى الأوامر وتنفذها دون أن تفكر . . فأنت تضغط على زرار يتكلم الراديو ويضىء النور فى الغرفة . وتدور المروحة . . هى تطيع دائما . وأنت أيضا . فأنت تعمل

فقط . أما التفكير فلغيرك . ولو فكرت كل قطعة غيار فى طبيعة عملها أو فى الذى سوف تقوم به ، لتوقفت الآلة كلها . . وفى الجسم الإنسانى نجد أن القلب لايفكر منذ الولادة حتى الموت . . إنه يضخ دائما وحتى الموت . . والعقل يفكر ويتذكر ويختزن ويقرر دون أن يكون لك دخل فى نشاطه . . وإنما فقط فى توجيهه ولكن من غير توجيهك يعمل . . ولو فكر القلب ولو فكرت المعدة والكبد . . لتعطل سير هذا الجهاز الدقيق الذى هو جسم الانسان . .

وقد عرفت عددا كبيرا من رواد الفضاء الأمريكان ورأيت فى السعودية عشرات من رواد الفضاء الروس والأمريكان والألمان وجلست إليهم . لم يختلفوا . فقبل أن يركبوا السفينة دربوهم تدريبا شاقا على أن يكونوا آلة . . لا رأى ولا إرادة لهم . عندهم أوامر وبرامج ينفذونها فقط . . لأنهم لايعرفون ما يعرفه العلماء الذين بعثوا بهم . . بل إن العلماء على الأرض ينبهونهم إلى أن زرارا مفكوكا فى البنطلون . . إلى أن قطرات من العرق قد ظهرت على وجوههم إلى أن قلوبهم تدق أكثر لعله يفكر فى زوجته أو أولاده . . كل ذلك ممنوع . . لأن له مهام محددة . والوقت قصير والتكاليف فادحة والتحديات هائلة .

وهذا التدريب الذى يتلقاه رائد الفضاء هو (غسيل مخ) أى تجريده من مخاوفه وكل عواطفه . . وعزله تماما عن الأرض وجو الأرض وأهل الأرض . . فالمطلوب هو أن يكون مطيعا ككل العقول الألكترونية التى أمامه . .

أى أن العلماء على الأرض قد قاموا (بتخليقه) حتى يكون كائنا آخر . . يكون آلة تدير آلة وتوجه آلة وترصد وتسجل ما يظهر على شاشة الآلات الأخرى ويبعث بها إلى الأرض . . وأن يتحدث طوال الوقت كالبغبغان عن كل شىء حتى لا يسرح . . ولأن المعلومات ثمينة . . حتى وهو يموت يجب أن يقول . . لأن موته لايهم . .

المهم هو هـذا الذى يقول والذى سـوف يكون مفيدا لرواد آخـرين من بعده !

وقد سـألت د . فـاروق الباز : عن الـذى تدفعـه الدولـة لهؤلاء الرواد الشجعان .

فكان جـوابه : ولا حاجة . . إنهم متطـوعون . ولا توجد شركـة تأمين واحدة تؤمن على حياتهم . لأن رحلات الفضاء ليست مأمونة ذهابا و إيابا . . وإنما تحاسبهـم الدولـة كجنود وتعطيهـم بـدل سفر عـن الليالى التى ناموها خـارج بيوتهم ! ثم إنهم يوقعون على ورقة قبل سفـرهـم بقبولهم هذه المغامـرة وأن الدولة غير مسئـولة عـن أى شىء يحدث لهم . . ولا يحق لهم ولعائلاتهم أن يطالبوا الدولة بأى تعويض !

إنها ـ إذن ـ رحلات انتحارية . . قتـل . . إنهم ليسوا أناسا و إنما أناس بلا إنسانية . . بلا إرادة !

وقد حدث لى شىء من ذلك عندما سافرت مع قوات مصربقيادة اللواء الشاذلى إلى الكـونغو لمسـاعدة الزعيـم لوومبـا تحت علم الأمـم المتحدة . كانـت الطائرات الضخمـة لنقل السـلاح . . المدافع والقنـابل وسيـارات الجيب . . وركبـت إحدى هذه الطائرات ولكـن قبل أن تدخـل الطائرات الأمريكية العملاقـة جاء ضباط المخابرات الحربية المصريـة وطلبوا إلينا أن نوقع على ورقة ـ حمدى فؤاد ومحمد عبد الجواد والمصور أحمد يوسف وفوميل لبيب وأنا ـــ الورقة تقول : إن مصر غير مسئولة عـن أى شىء يحدث لنا . وإننا بمحض اختيارنا ذهبنا فى هذه الطائرات إلى الكونغو !

وتضـايقنـا لهذا الموقـف الرسمـى . ولكنـه أسلـوب دولى . . فنحـن كالجنود . ولا ضمان للجنود أن يعودوا إذا ذهبوا للقتال وكذلك الرواد . . والفرق بيننا وبين الرواد أننا لم نتحول بعد إلى روبوت . . وأننا ـ مع الأسف ـ لم ندرك أننا بسرعة قد أصبحنا قلعـة من الحديد . . قنبلة . . بندقية . .

فردة كاوتش . شيء ما . . لايهم إذا ذهب ولايهم إذا عاد . . نحن الذين اخترنا أن نكون شيئا . . ونضرب دماغنا فى الحائط بعد وقبل ذلك !

حدث للإنسان كل ذلك منذ اخترع الآلة ومنذ تحكم فيها . . ومنذ تحكمت فيه . . ولذلك لم تكن الشيوعية أو النازية أو الفاشية أو الشمولية شيئا شاذا . . ولا غريبا على الناس . فقد انضبطوا وساروا فى الطابور واتخذوا أرقاما فى بطاقاتهم النقابية . . وأصبحوا (خانة) من خانات الأوراق فى ملفاتهم : عامل . . أسطى . . مساعد مهندس . . مهندس . . عضو نقابة . . رئيس النقابة . . عضو اللجنة المركزية . . أمين مساعد . . أمين . . الخ . فالناس فى الدنيا قد استعدوا للشيوعية والنازية اللتين فرضتا عليهم أن يكونوا جزءا فى آلة . . أن يمشوا فى الخط . . وأن (يبلطوا) فى الخط أيضا . . فليس من حقهم التفكير أو التدبير . . فلا فكر ولا إرادة . . والمهم هو النظرية وليس الذى يطبقها أو تنطبق عليه . .

المهم هو التكنولوجيا وليس الإنسان . .

فالدولة الشمولية ليست إلا تجسيدا لإرادة فرد . . أو حزب على رأسه فرد . وهذا الفرد هو الذى ابتلع كل الأفراد . . أفكار وإرادة كل الأفراد . ابتلع أفكارهم وأفرز فكره هو . . ابتلع عزيمتهم لتكون عزيمة واحدة . . إنه عصا موسى التى ابتلعت كل الحبال التى ألقاها السحرة . . ولم تبق إلا افعى واحدة . . عصا واحدة . رجل واحد صاحب الرأى والحكمة والقدرة والموفد من السماء . . كل الزعماء يرون أنهم نخبة السماء للأرض . .

فما الذى يستطيعه المفكر أو المصلح أو صاحب الرسالة وسط هذا الطوفان من كل شيء تافه وكل شيء له معنى . . ما الذى يقدر عليه فى مواجهة الإرادة الواحدة وانعدام الإرادات الأخرى . . وفى الفكرة أو النظرية أو انعدام الفكر أو النظر ؟!

أما الإجابة عن مثل هذه الأسئلة فموجودة فى كل المسرحيات التى قدمت لنا السفاح الرومانى الإمبراطور (كاليجولا) . فلا بد أن يظهر هذا الإمبراطور الدموى جالسا فى شرفة . والشرفة هذه تطل على هاوية سحيقة . . ويشير الإمبراطور بيده أو برجله . . فيسرع رئيس الوزراء ووزراء الثقافة والصحة والحرب إلى (جرجرة) الشعراء والفنانين . المربوطين بالحبال ليقفوا صفا واحدا أمام الإمبراطور . . ويقفون مكسورى الظهور والرءوس . . وعليهم أن ينتظروا الإمبراطور حتى (يسكر) لأن الإمبراطور أقبل على شراب النبيذ منذ الصباح . . فإذا أصبح الإمبراطور فاقدا للوعى يبدأ المهرجان العظيم !

ويتقدم الوزراء يساندون الإمبراطور لكى يعتدل فى جلسته قليلا . .

وينحنى الوزراء وتنكسر رقابهم على صدورهم انتظارا للنطق الإمبراطورى السامى . ويجىء النطق حرفا حرفا . وتكون عبارته غير واضحة ، فينعقد مجلس الوزراء بسرعة ويقرر معنى واحدا للكلام الفارغ الذى نطقه الإمبراطور .

جلالته يريد أن يقول : إن مسابقة سريعة بين الشعراء موضوعها أن صرصارا أعرج تتغزل فيه عصفورة عمياء فماذا تقولون ؟

ويتقدم رئيس الوزراء يخرج الصفارة من جيب الإمبراطور لينفخ فيها ويبدأ على الفور الدورى العام والكأس بين شعراء الإمبراطورية .

الشاعر الأول : من قال إن الصرصار أعرج ؟

وهنا تنطلق صفارة الإمبراطور . ومعناه أن الشعر لم يعجب الإمبراطور. ولذلك يجب أن يقفز الشاعر فورا إلى الهاوية .

الشاعر الثانى : لولا الإمبراطور . .

وتنطلق الصفارة : ويقفز الشاعر إلى الهاوية .

الشاعر الثالث : لولاى أنا . .

وتنطلق الصفارة : ويقفز الشاعر .

الشاعر الرابع : ما أروع الهاوية . .

وتنطلق الصفارة : والشاعر يقفز .

الشاعر الخامس والسادس والسابع والعشرون معا : يحيا الإمبراطور . .

ويتقدم الشعراء الباقون وفى صوت واحد يقولون : لا حياة من غير الإمبراطور . .

ويشير الإمبراطور إلى الوزراء والشعراء الأحياء فيلتفون حوله ويساعدونه على الوقوف وبدلا من أن يلقى الإمبراطور بهم إلى الهاوية جميعا . . فإنه يكتفى بالقاء الصفارة إلى الهاوية ! فما المعنى ؟

المعنى أن القوة المطلقة تتحول إلى نوع من السخافة والاستهانة بحياة الناس وأقدارهم . . ولا يملك الناس إلا الطاعة العمياء خوفا من الحياة الذليلة . . إنهم لا يترددون لحظة فى اختيار الموت ، إذ كانت الحياة بهذه السخافة . . بهذا العبث . .

والإمبراطور هنا هو التليفزيون والإذاعة والصحف فى كل العالم . . إنها مصانع للتفاهات والسخافات . . إنها تفيض بأفكار وصور لا ضرورة لها فى بناء الإنسان . . إنها فقط تملأ دماغه وخياله وأحلامه بما لاينفع . .

والتاريخ يحدثنا عن إحدى الليالى عندما جلس الإمبراطور كاليجولا يشكو الملل والقرف . . فالناس حوله يرتدون زيا واحدا . . ويقفون إذا وقف . . وينحنون إذا جلس . . ولما ضاق بالسجاجيد الخشنة على الأرض . . أتوا له بعشرات النساء يتمددن متجاورات ناعمات ليمشى فوقهن بحذائه . .

وفى إحدى هـذه الليالى التفت إلى الـوزراء ثم تساءل الإمبراطـور : من هؤلاء !

فكان ردهم جميعا : عبيدك !

فتساءل الإمبراطور : من هذا الذى يجيب عن سؤالى ؟

فقيل له : مائة من عبيدك !

ـ وما الذى جعلهم ينطقون بعبارة واحدة ؟

قيل له : إنها أوامرك !

فقـال الإمبراطـور كاليجـولا : مـاداموا ينطقون عبـارة واحـدة . . فما حاجتـى إلى مائة يتكلمـون كأنهم واحد . . ويتحـركون كـأنهم واحد . . اقتلوا ٩٩ منهم . . واتركوا لى واحدا !

وقتلوهم جميعا . .

ونحن أمام طوفـان المعلومات الواحدة والأفكار الـواحدة فى الصحف والمجـلات نقتل الملايين . . كـأننا نقتلهـم . . لأننـا نجعل منهـم صوتـا واحدا وصورة واحـدة . هذا هو الطوفان . . هذا هـو العدم أو الإعدام أو الانعدام نراه ونسمعه ونردده ونضيق به . . ونقرف أن نكون جميعا هكذا . . صدى لبعضنا البعض . . ببغاوات . . تسجيلات صوتية متكررة . .

هـذا هو التخلـف العقلى . . هـذا هو التعطيـل المزمـن لمسار التقـدم الإنسانى . . والـرومان كان لهم كاليجولا وكـان لهم نيرون . . ولكننا أبناء العصر الحديث عندنا عشرات الألوف من هـؤلاء الأباطرة السفاحين الذين يحولـون الناس بـالإرهـاب الإعلانـى والغنائى والموسيقـى إلى قـوالب مـن الطوب . . إلى أكواب فارغـة يملئونها بكل ما هو تافـه من الكلام والطعام والشراب . . أى أنه إعدام بالجملة للإبداع فى الفكر والفن والأدب . .

هذه هى المحنة التى تواجهها كل الشعوب ولابد أن تتدارك ما فات . . ما فات عليها . . ما فوتوه عليها . .

وهذا هـو السبب الحقيقى وراء إصلاح كـل برامج التعليم والثقـافة فى كل الدنيا ـ لا أعرف بوضوح ما الذى نعمله فى مصر . ولا أعرف بالضبط إن كانـت هذه المعـانى قـد أقلقت الآبـاء والأمهات على صغـارهم . . أو أقلقت المفكرين والمصلحين على شعوبهم !!

فإن لم يحدث ذلـك حتى الآن فهـذه دعوة حـارة لأن نبادر بـذلك . . وإلا انغلق علينـا باب الـدخول إلى القرن الـواحد والعشريـن . . لأننا فى غياهـب القرن السـابع عشر متطلعون إلى القـرن الذى يليـه ـ وإن كـانت نتائج الحائط تؤكد لنا أن نتشعبط فى سلالم القرن الواحد والعشرين !

محمد نجيب قال
ولم يسمعه أحد !

أرجو متابعتى فإننى أتحدث طوال الوقت عنك . .

وأنت جالس مع الناس . ماذا تقول ؟ وماذا يقال لك ؟ أنت صدى الآخرين والآخرون صداك . نحن نقول نفس الكلام . ونوزع علامات الاستفهام والتعجب بالعدل بين كل الكلمات . ومعنى ذلك أننا نتساءل ولانجد الإجابة . ونندهش ولانجد توضيحا من أحد . .

نحن مشغولون بقذارة شوارع مصر .

نحن مشغولون بتلوث هواء مصر ومياه مصر . ففى كل هواء وماء وكل طعام سموم . هذه حقيقة مؤكدة . ونحن نتحدث عن سرقات ونهب وسلب ورشاوى . ولأننا نتحدث كثيرا وأن هذه الحكايات والاتهامات لبانة فى كل فم . . أو لبانة واحدة فى كل الأفواه ، فإننا قد مللنا الطعام الواحد واللون الواحد . ولم نذهب إلى أبعد من الملل . ربما أضفنا إلى هذه الحكايات قصصا أخرى من عندنا أو أطلقنا عليها النكت ، أو أضفنا من حولها قصصا هى التى تراها على المسارح الهزلية ، والأفلام السينمائية وبعض المسلسلات . والمعنى أننا نعرف كل شىء . ولكن المعنى الآخر هو

أننا نعرف كل شيء ولا نفعل أي شيء . فنحن ندين أنفسنا ولا نحاكمها . . فبدلا من استنكار التفاهة وطوفان السلبية ، فإننا نقر ونعترف بكل ذلك . . وعجزنا عن فعل شيء !

فإذا أردنا أن نهز الماء الراكد والهواء الخانق ، فإننا نحركه بأيدينا . تماما كما نجلس أمام حوض ونهزه لكى نصنع موجا وهميا . والغريب أنك تصدق أن الموج بفعل العواصف . . بفعل الطبيعة وليس أنت الذى صنعت الموج ونفخت فيه لكى تهزه ولا تحركه !

ولذلك فإننا نجد قضايا مستعارة تشغل الناس . قضايا قديمة نعيد تصنيفها وتعديلها ومناقشتها كأنها قضايا جديدة . . ولأنها قضايا غريبة عن الواقع فإننا نتحمس لها وندعو الناس إلى ذلك . ويمشى وراءنا الناس . مع أن الذى نناقشه لامبرر لوجوده إلا عندنا نحن . . لأننا مفلسون . .

فنجد النقاد فى الأدب يناقشون الشعر الحر والشعر العامودى هى قضية محسومة من ستين عاما . وليس فيها جديد . ولا أحد له الحق فى أن يلوم أحدا أنه ينظم الشعر على هذا النحو أو النحو الآخر .

ونناقش قضية المضمون والشكل ـ وهى قضية قديمة قدم الشعر نفسه !

وفى بعض البلاد العربية ـ وهذه مهزلة ـ يتحدثون عن الفلسفة البنيوية . . وهى فلسفة أوروبية لها علاقة باللغات الأوروبية والأساطير وأصالة اللغة اللاتينية .

وهى قضية مستعارة لانعدام القضايا الأصيلة أو الأصلية فى هذه البلاد . .

وعندنا فى مصر قضية : الأصالة والمعاصرة . وهى قضية مضحكة أيضا . ولامعنى لها . ففى كل العصور كان هناك القديم ، والجديد . .

ومحاولة التوافق أو التوفيق أو التلفيق بينهما . ولا أحد يستطيع أن يحسبها : كم فى المائة أصل وكم فى المائة معاصر . .

وهى تشبه أن تقف أمام المرآة بملابسك الكاملة وتحسبها : كم فى المائة من ملابسك ومحتوياتها مصرى وكم أوروبى أو أمريكى . . وماذا يحدث لو أن كل الذى ترتديه مصرى أو كله أمريكى ؟ ما المعنى . مادلالة ذلك على نفسك وبلدك ووطنك ومستقبلك ؟ أو تسأل نفسك كم عدد الأفلام والأخبار والبرامج المصرية والعربية والعالمية التى شاهدتها على الشاشة فى أى يوم . . وما المعنى إذا كانت كلها مصرية أو كلها عربية أو كلها أجنبية . . لم يعد هناك فاصل واضح بين الذى نذيعه من مصر والذى يتدفق علينا من الأطباق فوق الأسطح . . إن هذه الأطباق قد قاربت بين أفكار الناس فى كل الدنيا . وتسلطت عليها وتسلطنت أيضا . وأكدت سلبية الناس هنا وهناك . . وأثبتت قوة التليفزيون وعملقة القائمين عليه . . ونجاحهم فى جعل الناس قوالب فكرية وسلوكية . . وجعلتهم سلبيين عاجزين عن فعل شىء . . كالخروج من هذه البحيرة الراكدة الملونة . . أو نجاتهم من طوفان الإعلان والإعلام !

هذه هى بعض الحقيقة .

فما الذى يفعله الكاتب أو المفكر أو المصلح ؟

إن الكاتب هو الرجل القادر على اكتشاف أفكار جديدة . . أو كشفها . . وتبصير الناس بحالهم . فإذا عرف الناس حالهم ومآلهم . انتقل بهم إلى مرحلة أخرى . وهى أن يرفضوا موقفهم الذليل العليل . وأن يفعلوا شيئا لإنقاذ أنفسهم وبلادهم ومستقبلهم . ولذلك يجب أن نقدم للناس شيئا . . قاربا للنجاة . . جسرا فوق بحيرة التفاهة . . ما هذا الجسر ماهذا القارب ؟ إنه الأفكار الجديدة التى أثارها الكاتب والتفت

الناس إليها . . أى أنه قدم للناس دليل العمل . . دليل الخروج . . دليل التمرد والثورة على أنفسهم .

فإذا أصبح الدليل أو برنامج العمل فى متناول الجميع ، كان الكاتب قد حقق أعظم أمانيه . . أما الباقى فالجماهير قادرة على أن تفرز من أعماقها مفكرين جددا وكتابا لامعين . . وبذلك يحمى المجتمع نفسه من نفسه . . بأن تتولد فيها ومنه أفكار جديدة تهديه وتشد أزره وتصلب عوده وتسوى الأرض تحته وتنقى الهواء من حوله وتباركه خطوة خطوة . .

إن مواطنا مصريا مسكينا حيا وميتا قد نبهنا إلى ذلك ولكن أحدا لم يدر به وبما يقول . . ذلك الرجل المسكين هو أول رئيس جمهورية لمصر إنه محمد نجيب الذى عذبه وأهانه ومسح به الأرض الرئيس عبد الناصر . . عذبه فى نفسه وفى ولده وفى زوجته وفى قبره . ففى كتاب محمد نجيب (كنت رئيسا لمصر) يقول : إنه سافر إلى لبنان فوجد الشعب اللبنانى قد تظاهر ضد وزير الخارجية الأمريكى دالاس !

ويقول : كانت زيارة دالاس لمصر قد مضت هادئة . إلا أن الكاتب الكبير أحمد أبو الفتح كتب مقالا ينتقد فيه تصرف سفيرنا فى واشنطون أحمد حسين الذى هرع إلى القاهرة ليكون فى استقبال دالاس بعد سفره لأمريكا بعشرة أيام . . وبعد تقديم أوراق اعتماده بخمسة أيام . وقد دفعنى موقف الشعب اللبنانى إلى التساؤل : لماذا لم تتحرك مصر فى تظاهرات ضد دالاس ؟

ويجيب محمد نجيب عن هذه التساؤلات بقوله ـ وقوله الحق : أرجعت ذلك إلى عدة عوامل : منها ثقة الجماهير فى وطنية الثورة ومنها إلغاء الأحزاب السياسية التى كانت تحرك الجماهير . . ومنها أيضا أننا لم نستطع خلق تنظيم قوى يكتشف ثقة الناس . فهيئة التحرير تكونت فى ظروف لا

تسمح بخلق تنظيم سياسى قوى . . لأنها اعتمدت على العسكريين الذين لا يحسون بالعقلية الشعبية ، ولا يجيدون المرونة السياسية . . وانتشر الضباط فى مختلف تنظيمات الهيئة على امتداد الجمهورية . . وكانت هناك حساسية قد بدأت تظهر بين المدنيين والعسكريين بعد أن أساء التصرف عدد من العسكريين . . ولذا فإن تنظيمات هيئة التحرير قد خلت من الشخصيات السياسية النظيفة التى مارست العمل السياسى قبل الثورة . وعفت عن الانتساب إليها العناصر الحزبية التى كنت أتمنى أن تلحق بها . ولم يعد يتهافت عليها إلا نوع جديد من المتسلقين والانتهازيين ــ وكان مفروضا أن تكون هيئة التحرير هى أساس وحدتنا الوطنية فى مواجهة قوات الاحتلال ، ولكنها تحولت مع الأسف إلى هيئة ضعيفة متهالكة لا تظهر إلا فى الاجتماعات العامة حيث أجادوا جمع الجماهير للاستماع إلى الخطب فى السرادقات .

ويقول ــ وهو أحسن الكلام : كنت أتمنى أن تنطلق فى القاهرة تظاهرات عند زيارة دالاس الذى قلت عنه لزملائى إنه (تاجر أحلاف) يود أن يرغمنا على شراء بضاعته . ولكنى لم أكن أود أن تكون حركتها بإشارة من السلطة . . كنت أود أن تكون حركة ذاتية نابعة من عواطف الجماهير . ولكن يبدو أن الإجراءات الاستثنائية التى اتخذت بتشكيل مجلس الثورة ومحاكمات الضباط واعتقال السياسيين قد أضعفت من مبادرات الجماهير فى التعبير عن رأيها وإرادتها ! !

انتهى تحليل الرئيس محمد نجيب لعقلية ووجدان الشعب المصرى الذى لم يكن قادرا ولا واعيا للموقف ولاعنده رغبة ، ولو كانت عنده رغبة فليست عنده إرادة ، ولو كانت عنده إرادة فإنها صدى وظل للإرادة الشمولية للنظام العسكرى فى مصر . وهذه حال الشعوب فى كل الدنيا عندما تفقد الرأى والرؤية والإرادة . إنها فى هذه الحالة ليس لها رأى .

وإنما تحتاج إلى من يوضح لها نفسها ، ويعرض عليها حالها . . ويساعدها على أن تخرج مما هى فيه . هذه مهمة الكاتب .

ولكن الكاتب أضعف من السلطة . وهو يعلم ذلك .

ولكى يعيش أطول لابد أن يقول أقل .

ويجب ألا تدفعه الجماهير إلى أن يقول أكثر ، فيقطعوا لسانه أو رزقه .

والكاتب مثل النبى يونس فى بطن الحوت . والحوت هى الجماهير . فقد ابتلعه الحوت . واحتفظ به ونزل به إلى قاع البحر . وفى بطن الحوت دعا يونس ربه . فاستجاب له . وخرج من بطن الحوت . فما المعنى ؟ المعنى هو أنه لابد من الجماهير لإصلاح الجماهير . ولكن الجماهير مثل الحوت تستطيع أن تبلع دون أن تلتهم . . وإذا ابتلعت أن تلقى به على شاطىء الأمان ليواصل رسالته . .

ومهما كانت الجماهير حوتا جبارة فلا غنى عنها . فالكاتب فى غياب الجماهير ليس كاتبا . كالذى يخطب فى الصم البكم . . أو كالذى يضىء للعميان . فالكاتب يكتب للجماهير وضدها ومن أجلها . ينقدها لكى تكون أفضل . ويهاجمها إذا طغت على حريته أو قضت عليه . . والجماهير كالأطفال يجب أن نفرض عليها الدواء . والأطباء والمدرسون لاشعبية لهم عند الأطفال . وكذلك الكاتب يحبه الناس ويثورون عليه أيضا . . يحبونه أن يسليهم ويكرهونه أن يقنعهم .

ولكنه يفضل أن يكون صادقا مكروها ، على أن يكون كاذبا محبوبا .

والجماهير لأنها أقوى ، فهى كالدولة ترى أنها على حق . والجماهير التى تستشعر ضعف المبادرة فى الفكر ، فإنها تغطى هذا النقص بقوة العضلات . .

وكلما أحس العقل بالفراغ والهيافة ، قام الغرور فملأ هذا الفراغ . .

ولذلك يجد الكاتب نفسه يحارب عدوين فى وقت واحد الفراغ والغرور!

ولكن أين أرض المعركة ؟

إنها نفس وسائل الإعلام . . فى الصحف وفى التليفزيون وعلى المسرح . .

والكاتب منا كالسفينة تطفو على الماء وتقاوم الماء ولا يغرقها إلا الماء . .

والكاتب كالطائرة يطفو على الهواء ويقاوم الهواء ولايحطمه إلا الهواء . .

فهو يعيش بالجماهير ولها وضدها !

بعض الكتاب فى مواجهة الظروف الصعبة ابتلعوا ألسنتهم . وصمتوا .

وبعض الكتاب مثل الفراعنة كتبوا وصاياهم على جدران القبور وتوابيت الموتى . .

وبعض الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن بلادهم قد استعدت لاستقبالهم وأفكارهم الجديدة فكانوا يقرءون منشوراتهم على النواصى . . وبعض الرسامين قد نقشوا لوحاتهم على أرض الشوارع والميادين . .

ولكنهم قالوا كلمتهم ومضوا أو وقفوا إلى جوارها . . وانتظروا هل تتوقف الأقدام سعيا إليهم ، وهل تغمض الدولة جفنيها وتطبق شفتيها ويكون ذلك إيذانا منها للكتاب بأن يمضوا حتى النهاية . . نهاية الكلام أو نهايتهم !

وفى إحدى المسرحيات الوجودية للكاتب الشاب هانس اشفارتس يدور حوار بين الفيلسوف وتلامذته بعد أن تخرجوا فى الجامعة بيوم واحد . وقد حزم كل واحد ملابسه عائدا إلى ريف بلاده . وقد ظهر الابتهاج على

وجوه الشبـان ولكن استاذهـم طلب منهـم أن يتمشوا معا كما كـان يفعل فيلسوف الإغريق أرسطو مع تلامذته . .

قال : سعداء أنتم ؟

ـ طبعا انتهى كل شيء .

قال : انتهى هنا ليبدأ هناك . . فكل شيء هنا كان من أجل هناك . . كنتم تلامـذة هنا لتكونوا أساتـذة هناك . . كنتم أطباء هنـا للقاء المرضى هناك . . من قال إن كل شيء انتهى ؟ بل كل شيء قد بدأ . . كنتم على أكتافى . . وسوف يكون الشعب كله على أكتافكم . .

ولكنك يا أستاذ قـد وضعت الدنيا كلها فوق دماغنـا . . وأنت عندما كـانت الـدنيا فـوق دمـاغك ، كنـت رشيـق الخطوة سهـل العبارة واسـع الصدر . . فكيف ذلك ؟

قال : ان أطلس بطل الإغريق كان يحمل الكرة الأرضية فوق دماغه ولم يتوقـف عن الأكل والشرب والرقـص . . ولم نشعر بذلك . . فكـل أستاذ هو أطلس . . وكل مصلح وكل صاحب رسالة . .

من أين نبدأ ؟

قال : من هنا

كيف ؟

قال : من هـذه اللحظة . . فأنتم جميعا سوف تنطلقـون كل واحد إلى طريـق . . وسوف تشغلكـم هموم الناس عـن همومكـم . . وسـوف تؤدى أمـراض النـاس إلى صحتكـم وعـافيتكـم . . فصحـة الطبيـب فى شفـاء مرضاه ، وصحة الشاعر فى غنـاء مستمعيه ، وصحة الفيلسوف فى سلامة أفكار الآخرين . .

ولو اعترضونا وعارضونا ؟

قال : طبيعى أن يفعل الناس ذلك . . أنتم عارضتمونى كثيرا . . وعصيتم أوامرى . . وأنا رأيت فى ذلك مظهرا من مظاهر الحيوية والحرية . . وبعد ذلك اتفقنا على كل شىء . لماذا ؟ لأن الغموض الذى ضايقكم تعاونا جميعا على توضيحه وبعد توضيحه على اقتناعكم به ، وبعد اقتناعكم تناقشنا مرة أخرى على سبيل اليقين . . ولم نعرف فى التاريخ مصلحا لم تشنقه الجماهير . . وكثير من الأنبياء قتلوهم . . ونوح عليه السلام قد ضاق بأهله ودعا الله أن يهلكهم جميعا . . لأنه لا أمل فيهم . . ولا أمل عنده فى إصلاحهم . .

أنا أبى كان طبيبا فى الريف وانتقلت إليه العدوى فمات . .

قال : غلطة أبيك أنه أحس لحظة واحدة أنه أقوى من المرض . ولذلك لم يحتط كما كان ينصح به مرضاه .

وأنا أبى كان مهندسا وسقط من فوق الكوبرى الذى بناه . .

قال : ليست غلطة الكوبرى . . ولكن سقوط والدك جاء دليلا على إهماله . وهى عقوبة يستحقها .

أنا يا أستاذ كنت أتمنى أن أتزوجك . . صحيح أننى صغيرة فى السن . . ولكنى جميلة ومحبة لك وقادرة على توفير وقتك لما ينفع الطلبة . . وفى نفس الوقت سوف آتى لك بأحسن ذرية وأطبق عليها كل تعليماتك فى التربية والأخلاق . .

قال : هذه مشكلتى معك . . ولا أعلق عليها الآن بشىء . . فأنا مشغول بما هو أهم منى ومن أولادك . . مشغول بمستقبل هذا الجيل . . ومستقبل الريف على أيدى الذين أفنيت عمرى فى تعليمهم وتربيتهم وتشجيعهم منتظرا تلك الساعة التى دقت فيها ساعة العمل من أجل الوطن . .

أما المفـاجأة فى نهايـة مسرحية (كانـوا هنا وهناك) لـلأديب الفـرنسى اشفارتس فهى أن الأستاذ بعد سنتين ذهب يتفقد حال تلامذته . . فسمع كل ما لا يرضيه . . لقد مكثوا أياما وبعد ذلك اختفوا . وحاول الأستاذ أن يعرف ماذا جرى لتـلامذته ؟ وماذا كانت جـدوى دراسة الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس ؟ لم يجد لهم أثرا . .

وعندما عاد إلى بيتـه فى مدينة باريس وجدهـم جميعا هناك وقد تغيرت ملامحهم وملابسهم . وسألهم غاضبا : ماذا جرى لما قلت وقلتم ؟

وكان جوابهم الذى اتفقـوا عليه : يا أستاذنا كل مـا قلت صحيح . . وكل الذى تعلمناه صحيح . . وشرف لنا أن نكـون تلامذتك . . ولكنك يا أستاذنا ربطتنا إلى بابك وشباكـك . . وحبست عيوننا فلا نرى سواك ، وآذاننا فلا نسمع غيرك ، وعقلنا فلا تفكير إلا فيما تقول لنا . . ولكن . .

قال صارخا : ولكن ماذا ؟ !

قالـوا : ولكننا عندمـا كنا تلامـذتك لم نر مـواطنا واحدا . . لقـد كنا وحدنا معك ! ! . . فلما ذهبنا إلى الناس وجدناهم ولكنهم لم يجدونا . . لم نتعلم لغـة الناس . . والناس لا يعرفـون لغتنا . . وليسوا فى حاجـة إلى ما نقول . . انهم فى حـاجة إلى كـلام آخر ونظريـات أخرى ووجـوه وأصوات وعقول من طراز مختلف . .

قال : غلطـة فظعية . . فـأنتم لم تكونـوا فى حاجـة إلى واحد مثلى . . نحن أقمنا قصورا فى الهواء . . ومدنا فى السماء وجردناها من البشر ، فأنتم لم تذهبـوا إلى الناس وإنما أنتـم سقطتم فوق أدمغـة الناس . . فـأسقطكم الناس . شكرا لله أنهم لم يقتلوكم !

ولكنهم يا أستاذ استحلفونا أن نفعل ذلك نيابة عنهم . . ثم أطلق كل واحد منهم النار على رأسه !

والمعنى : لابد من الناس . . فكل شيء يجب أن يكون لهم . . وأن يبدأ منهم . . وأن يتعاون المفكر والمصلح مع الناس لكى يصحح ويوجه . .

ويرفعهم إلى فوق وتجيء من بعده أجيال تواصل رفع الناس ورفعتهم !

ولم نقرأ ابن خلدون وعبد الرحمن بدوى !

إن أكثر مشاكل هذا الزمان قد عرضها وتعرض لها وعرض بها أيضا : العقاد وطه حسين والحكيم وسلامة موسى ود. أحمد زكى والسنهورى وأديب عاش ومات دون أن يدرى به الكثيرون هو عثمان نويه . .

فما الذى حدث ؟

ان هؤلاء المفكرين قد قالوا كثيرا وفى موضوعات شتى . هذه الموضوعات كانت مثل موج البحر تطغى أمواجه بعضها على بعض . ويجد الناس متعة فى النظر إلى المفكر كأنه حاوٍ ، يخرج الكتكوت . . من البنطلون والبيضة من أنفه . ويعجبون به وينسون أن يتوقفوا عند الذى قال. والكاتب الذى يسع عقله أمورا كثيرة قد جنى على نفسه . فهو اختار أن يكون موسوعيا ، أو أنه لم يستطع إلا أن يكون كذلك . . تماما كالذى له معدة قوية يأكل أى شىء فى أى وقت . ولكن المريض الذى يعيش على طعام واحد ، وأعمى الألوان الذى لايرى إلا لونا واحدا ، فهو أوضح ومن السهل معرفة أوله وآخره . ولكن الذى جعل عقله يستوعب كل ما حوله من كل شىء ومن كل لون ومن كل علاقة ، جعل نفسه صعب المنال . . أقوى من أن يصنفه أحد أو يحتويه اسم . . ولذلك

كانت كل القضايا المعروفة سياسيا وأدبيا ونفسيا هى هى . ولكن لأن أحدا لم يقرأ لهؤلاء الكبار ، فهو يراها جديدة . والناس أيضا .

صحيح أننا يجب أن نقرأهم اليوم وأن ننساهم أيضا . نقرؤهم لأنه من الضرورى أن نهتدى . . وأن نضىء لأنفسنا طريقنا بهم . فالماضى لا ينفصل عن حاضرنا كما أن حاضرنا لاينفصل عن ماضينا . . وهذا الماضى كان فى يوم من الأيام أملاً للناس . . أى كان مستقبلهم ثم صار حاضرهم . . وأصبح اليوم ماضيهم . ولذلك يجب أن نقرأه وأن نتوقف عنده وأن نمضى بعيدا عنه . لأن لنا مشاكلنا . ويجب ألا نجعل حاضرنا صورة أخرى من ماضينا . وإلا كان معنى ذلك أننا أدرنا وجهنا للذى كان وظهرنا للذى سيكون !

كما أن عندنا عددا من المفكرين قالوا وكأنهم لم يقولوا . فلم يلتفت الناس إليهم . ولكنهم قالوا .

فابن خلدون مثلا وضع أسس فلسفة علم الاجتماع . وإن لم يدرك أنه قال شيئا جديدا . ولأنه كان جديدا فلم يستوعبه الناس فى زمانه . فكانه قال ولم يسمعه أحد . . وإنما جاء الغربيون فأشاروا إلى (مقدمة) ابن خلدون على أنها المحاولة العلمية التاريخية الوحيدة فى العصور القديمة لدراسات المجتمعات الإنسانية دراسة علمية . هنا فقط التفتنا إلى الرجل الذى مضى مجهولا من زمانه . .

وفى مصر المعاصرة أيضا كان أستاذنا دكتور عبد الرحمن بدوى ، أستاذ أساتذة الفلسفة الحديثة . . وأول من فتح لنا وعلينا كل روافد الفكر الغربى المعاصر . . بمنتهى القوة والاقتدار . ولكن القليلين تأثروا به . وأحسوا به . . ولذلك هاجر من مصر إلى ليبيا ، وأهانوه هناك . ثم هاجر إلى الكويت واستقر الآن فى باريس . يقرأ ويكتب لغيرنا . .

ففى روايـة (هموم الشباب) لعبـد الرحمن بدوى وضـع منشورا ثـوريا للشباب فى مصر . . واستوحـى من الماضى برنـامجا للعمل فى المستقبل . ولم يقرأ أحد هذه الرواية . والذين قرءوها نسوها أو تناسوها . فكأنه لم يقل لنا ، وإنما لأجيال من بعدنا !

وكذلـك د . زكى نجيـب محمود ، وهـو مفكر مصرى عميـق الشعور قوى العبارة . جـاد . صارم . نافذ . ولم يلـق ما يستحقه من التكـريم . كان ينتظـر كلمة واحدة مـن الأستاذ العقاد . كـأن يقول له مثـلا : أنت أحسـن كاتـب مقـال فى الأدب الحديث . ولكـن العقـاد لم يقلها . وقـد سمعت ذلك من د . زكى نجيب . وكان فى غاية الأسى والحزن . وكتب د . زكى نجيب محمود مضيئة مشرقة لامعة كاوية . . دافعة لأن تفعل شيئا فى أنفسنا وفى عقـولنا وفى بلادنـا . . ولكن الرجـل اختار أن يكون بـاهرا يعمى الناس فلم يروه . وأن يكون مدويا يمزق آذان الناس فلم يسمعوه . فكأنه قال وما قال . .

ود . جمال حمدان عـاشق الأرض والحجـارة والجبـال والوديـان والأنهار وكانت هذه المظاهر الطبيعية تتحدث إليـه هو وحده . وكان حديثه شعرا وغزلا . . فلم يكتب أحد عن أرض مصر وجو مصر وكل ما هو مصرى . كما فعـل جمال حمدان . وأطـال فى الـذى كتـب . . ألـوف الصفحـات للكتاب الـواحد . وهـذا المفكر الكبير العـاشق الـولهان . وجد لـه ناشرا عاشقا مجنـونا به . . فأنفق أمـواله على إصدار مثل هـذا الكتاب فى ألوف الصفحات عن (شخصية مصر) وعبقرية المكان . وأنت عندما تقرأ مثل هذا الكتاب تحتـار هل الكاتب مـؤرخ ؟ هل هو جغرافى ؟ هـل هو قارئ كف ؟ شـاعر؟ . . صوفى ؟ . . درويـش ؟ . . عاقـل ؟ . . مجنون ؟ . . من المؤكد أنه عاقل وأنه مجنون بمصر . ولكـن أحداً من المفكرين فى زمانه قد انتقلت إليه عدوى الجنون بمصر . .

والذين ترجموا (دائرة المعارف الإسلامية) وماتوا جميعا . . وكان آخرهم إبراهيم زكى خورشيد . .

والذين ترجموا أروع وأجمل كتاب فى التاريخ والسياسة والأدب والفن والصناعة والدين ـ أقصد (قصة الحضارة) للمؤلف الأمريكى ول ديورانت وزوجته اريل . . هؤلاء جميعا قالوا الكثير جدا عندما عكفوا مخلصين متفانين على تقديم هذه الموسوعة الرائعة بلغة عربية بديعة قويمة . .

والذى ترجم لنا جانباً من كتاب (وصف مصر) فى عشرة أجزاء . . وهو أروع ما كتب شبان الحملة الفرنسية . وأصدق تحليل وتوصيف لمصر أرضا وأهلا وزيا وعادات وتقاليد وتاريخا . . ترجم عن هذا الكتاب زميلنا فى مجلة (أكتوبر) زهير الشايب . . يرحمه الله قام بهذا العمل الشاق وحده . . عاش متواضعا ومات منسيا . وقد قال الكثير جدا عندما نقل إلينا ماكتبه غيره . عرفنا منه أن فى مصر شبابا عالما فدائيا مخلصا متفانيا فقيرا متواضعا . .

وهذا هو النموذج الذى تحتاجه مصر فى نهضتها . . حين نجعل الإخلاص منهجا ، والصدق أسلوبا ، والموت فى سبيل ذلك دينا حنيفا . .

آه لو كان صاحب الرؤية هو صاحب الرأى . .

آه لو كان صاحب النظرية هو القادر على تطبيقها . .

فلا يزال الكاتب يحلم بأن تنبت للجماهير أحجار فى أيديها . . يلقى بها على الفساد والظلم والجهل . .

ويحلم بأن يثبت فى أصابعها أظافر ومخالب . .

ولكن يشعر الكاتب بحزن عميق عندما يجد أن الجماهير فى بلاده تنبت لها ألسنة بدلا من الأظافر . . فيكون للمواطن عشرون . . أربعون لسانا تتكلم فى وقت واحد و يلعن بعضها البعض .

فقط القوة هى التى تقطع الألسنة . . والكاتب هو وحده الذى يحاول أن يعيد كل شىء إلى مكانه . فاللسان فى الفم . . وهذان التجويفان للعين . . وللأذنين . . وأن يكون العقل فى الدماغ والقلب فى الصدر . . وأن يمشى الإنسان مُستقيما قويا

ولكنها مشكلة كيف يكون قويا والأفكار معوجة !

ولا تزال من أحلام صاحب القوة أن يكون صاحب الرؤية . . صاحب النظرية . .

فالكاتب يريد القوة لتطبيق أفكاره . .

والقوى يريد النظرية ليرشد بها أفكاره . .

فالفكر من غير قوة هذيان

والقوة من غير فكر عنف . .

والمثل الأعلى هو : القوة الرشيدة أو الرشد القوى . .

ولذلك استعان الأقوياء فى كل العصور بأصحاب الفكر إلى جوارهم . . أو أصحاب النظرية . . فالإسكندر الأكبر كان إلى جواره الفيلسوف ارسطو . .

وكان روزنبرج إلى جوار هتلر . .

وكان داتسيو إلى جوار موسولينى . .

وعندما سقط موسولينى حاولت إيطاليا إقناع الفيلسوف كروتشه أن يكون رئيسا لها فرفض . .

وحـاول عبد النـاصر أن يـأتى بلطفـى السيـد رئيسـا لمصر ، فاعتـذر وحاولـت إسرائيل أن تقنـع العالم الفـزيائى ايشتين أن يكـون أول رئيس لها فاعتذر قائلا : إننى أعرف جانبـا ضئيلا من الكون ، ولكن لا أعرف شيئا عن طبيعة الإنسان !

وكان للفيلسـوف الإغريقـى أفلاطون كتـاب اسمه (الجمهـورية) أو الدولة المثالية أو المدينة الفاضلـة . . وطلبوا إليه أن ينفرد بإحدى الجزر وأن يطبق آراءه على الناس . . فيكون هو الملك وهو الفيلسوف . . الفيلسوف الملك . ولم يستطع أن يطبـق آراءه . . فلا تزال المسافة شـاسعة بين أفكار الإنسان والواقع . . ولا يزال الواقع يستعصى على الفكر . . هو يحتاج إلى وقت لكى يطوع أحدهما الآخر . . أو يطيع أحدهما الآخر

وهذه مهمة الكاتب أن يكون صاحـب الرؤية وأن يقنع صاحب القرار وأن يقنع الجماهير بهذا القرار - إنها مهمة صعبة !

وكان عمـر بن عبد العزيـز مقترا لا ينفق إلا القليل على الكثيريـن من الناس . فهـى أموال المسلمين . وليـس من حقـه أن يبددهـا كيفما شاء . وفى يوم سـأله أحـد الجالسين إليه : يـا أمير المؤمنين . أمرك عجيـب . . تمسك المال عن مستحقيه بينما تنفقه بسخاء على العلماء . .

فأجـاب : مجلس العلماء هـو تلقيح للعقول . وهـذا لايمكن تقـديره بثمن . فإن وجد الحاكم فكرة أو طـريقة أو وسيلة لعلاج أمراض الناس . يجب ألا يتردد فى أن يجزل العطاء على أصحاب الفكر . .

وأقوى صورة لما أقول : صاروخا القاهر والظافر . .

صاروخـان صنعناهما وأطلقنـاهما فى الفضاء . . بـلا عقول الكترونيـة لتوجيههما فكانا نموذجا للقوة الغاشمة . .

أما مـا تفعله الدول فى زمـاننا فهـو إن لم يجدوا المفكر الواحـد يجلس فى المقعـد الملاصق للحـاكـم ، ذهبوا يعـرضـون مشـاكلهم على المؤسسـات العلمية . . ومعاهـد البحث مقابل مبلـغ من المال . مثلا : لقد عـرضت أمريكا مشكلة السلام بين مصر وإسرائيل على (معهد بروكنجز) . . وقام هذا المعهد بـدراسة الوضع . وقدم تقريـرا . هذا التقرير هو الـذى قدمته أمريكا فى كامب دافيد ووافقت عليه إسرائيل ومصر وأمريكا .

وقد نشرت مجلـة (أكتوبـر) هذا التقـرير ، وظهـر يوم سفـر الرئيـس السادات إلى أمريكا . وأذكر أن المشير الجمسى على سلم طائرة الرئيس قد طلـب منـى أن ألفـت نظـر الـرئيس إليـه . وفعلـت . وكـانـت دهشتـه وصدمته . فلـم يتصور الرئيـس السادات أن هذا الاتفاق السرى قد أصبح علنيا هكـذا . هذا التقريـر قد ترجمه زميلنا فى مجلـة أكتوبر : عبـد العظيم حماد . .

وكل مشـاكل الدول الكبرى لا تتـولى الحكومة حلهـا وإنما المؤسسات الأهلية . .

وهـم الآن يدرسـون مشكلة البطـالـة فى الشرق الأوسط . . ومشكلـة المياه . . ومشكلـة إنعاش غـزة . . ومشكلة الأقليات العـرقية واللغـوية فى الشرق الأوسط وغيرها وغيرها . .

فالمشاكل كثيرة ومعقدة لا يقوى على حملهـا كاتب أو مفكر وحده . . أو تحتويها نظرية واحدة !

وغير هـؤلاء المفكـريـن كثيرون . . وكلهـم رواد فى صحـارى الحيـاة الحديثة . . أو بحار المتغيرات بيننا وحولنا . .

وليس من الضرورى أن يكون الكاتب من أوله لآخره (نوحا) جديدا . فلـم يحدث فى التاريـخ إلا قليلا أن أشعـل كتاب واحـد الثورة فى عقـول الناس . .

ولكن معظم المفكرين والمصلحين عندما يتحدثون عن (نقطة التحول) فى حياتهم تكون حادثة تافهة . . نحن نراها كذلك . . أو عبارة يسمعها من أم أو من خادمة أو من أحد الباعة فى الطريق العام .

فكيف حدث ذلك ؟

إن الكاتب قد امتلأ بالمعانى والهموم . وكل الذى ينقصه هو عود كبريت . . شمعة . . مصباح يضئ أمامه . . ويكون هذا الضوء : عبارة . . حكمة . . قصة . صفحة فى كتاب .

ليس هذا فقط . وانما أى مفكر أو هؤلاء المفكرون جميعاً قد تشبعت نفوسهم برأى أو نظرية أو رؤية وكل الذى ينقصهم هو هزة . . زلزلة . . تماما كما تهتز شجرة تحملت بالثمار . . فتتساقط كلها مرة واحدة . . أو كما تظل تحرك أصابعك على حقيبة ذات أرقام . . فجأة تجد الحقيبة قد انفتحت . . لقد أصابت أصابعك الأرقام التى تنفتح بمقتضاها . .

وهناك (الرأى القنبلة) . . أى الرأى الذى تراه أو تسمعه فيكون قنبلة تنفجر فى حياتك . . فى هدوئك . . فى لامبالاتك . .

وهناك (الرأى الثورة) . . أى الرأى الذى يتحول إلى سلك من الديناميت فينسف كل ما حولك !

كم عدد الذين قرءوا كتاب(الأمير) للفيلسوف الإيطالى ماكيافللى . . ملايين طبعا . ولكن رجلا واحدا درسه وحصل على الدكتوراه وطبقه على حياته وعلى الناس . . انه الزعيم الإيطالى موسولينى . .

وإذا قرأت حياة المصلحين والمفكرين فسوف تجد أن كل واحد منهم قد هزه رأى أو شخص . . وانت تمر على هذا الرأى وتلتقى بنفس الشخص فلا يثيرك ولايهزك . ولكن شخصا آخر قد تهيأ له . . وانتظر حتى أتيحت

له لحظة الإبـداع أو الإصلاح أو الانطلاق . . فكان الـذى لم يحدث لأحد من قبل !

ونحن هنا لا نتباكى على الذى كـان وانتهى . . فكل زمان له كتاب ، وكل كتـاب له زمان . . فما الـذى عندنا الآن ؟ ومـا الذى نريـده أو نقدر عليه الآن ؟

إن طـوفـان التفـاهـة والهيـافـة والسخـافـة والاستخفـاف يمـلأ كـل الصحف . . فماذا تجد فيها ؟ ماذا تجد فى المجلات ماذا تجد على الشاشة ؟ . . براكين مـن النكت . . صواريـخ من العبـارات الجارحة . . وخماسين من الآفكار المشوشة . . ومطلوب وسـط كل هذا أن تجد نفسك وطريقك وهدفك . . وأولادك من بعدك أيضا .

ولابد أن تقـرأ الصحف والمجـلات وأن ترى التليفـزيون . لامفـر . . ولكـن ـ ألـف مرة ولكـن . . ولكـن يجب ألا تكون عبـدا لهذا الذى تقـرأ وترى . . يجب ألا يكون عالمك ودنياك هما صحيفة كـذا صباحا ومجلة كذا مسـاء وبرنـامـج كذا بعـد منتصـف الليل . . يجب أن تنسحـب . . وأن تحرص على قدراتك العقلية وأن تجد متسعا من الوقت لأن تفكر فى حالك ومالك وعيالك . . وأن تنقذ نفسك من طوفان اللا شىء واللا معنى واللا منطق الذى يجتاحـك من كل نافذة تفتحها . . مـن كل صحيفة . . من كل قناة من كل (دش) . .

رأيى : ارجـع إلى الكتب . أى كتاب تشعر معـه بالمتعة اقرأ تـأمل . . استمتع . . هذا إذا أردت أن يكون لك معنى أو قيمة أو دور . ومن المؤكد أن لك معنى وقيمة ودورا . !

من الحوادث المعروفة أنهم زفوا الأميرة مارى انطونيت إلى زوجها (العيل) لويس السادس عشر الذى لا تعرفه ولم تره . . وكان زواجا فاشلا عاصفا

. . وقد انتهى الزواج بإعدام الاثنين فى جحيم الثورة الفرنسية ، كانت ماري انطونيت تحمل فى حقيبتها مجموعة من الخطابات كتبتها أمها . وطلبت أن تقرأها بعد شهر أو شهرين من الزواج . . وكان ذلك قبل ظهور الراديو والفيديو !

قالت الأم إمبراطورة النمسا : ماريا تريزا : ابنتى أنت ذكية محبوبة وغالية علينا جميعا . ونحن لم نلق بك فى جهنم . وإنما أنت ملكة على شعب ذكى مثقف . وسوف تمتلئ حياتك بكل ما هو جميل ومثير . . ولكن يا ابنتى . مهما كان الزواج ملكيا ، فسوف يكون مملا . . وفى القصور يحاربون الملل بالخمر ــ لا تسرفى . . وبالإنفاق على المجوهرات والملابس الأنيقة ـ لا تسرفى . . وسوف تستمعين حكاية عن كل ما تقع عليه عيناك . . وسوف تكونين أنت حكاية ورواية عند كل من يرونك ومن لا يرونك . . الخلاص . . خلاصك أنت . . أن تنظرى من النافذة وأن تطيلى النظر وأن تسمعى وتتعلمى الإصغاء وأهم من كل ذلك : كتاب ـ مائة كتاب . . ألف كتاب تتقلب بين يديك . . أنها وحدها النور والنيران والثورة . . وتصبحين على خير . . وإلى غد مع رسالة أخرى .

أعظم تحية روحية من أم لابنتها التى أكلتها الثورة التى لم تشعر بها لا هى ولا زوجها !

الإبداع فردى دائمًا !

من حوالى خمسة وثلاثين عاما قرر وزير الأوقاف وعزم وتوكل على الله .

قرر أنه يجب عمل شىء لسذاجة الناس فى مصر الذين يترددون على أضرحة الأولياء الذين نسميهم فى مصر (أولياء الله الصالحين)

أما القرار فهو أنهم لا أولياء ولا صالحون . بعضهم أناس عاديون أقاموا لأنفسهم أضرحة . . بعض هؤلاء الناس لصوص . . وقرروا أن يقيموا لأنفسهم أضرحة يصلى حولها الناس ويدعون لهم . . ويكون الدعاء لهم شفيعا عند الله .

وعزم الوزير ـ واظنه د . البهى ـ على نشر حقيقة هذه الأضرحة وأصحابها . ثم عدل عن ذلك . فهو رأى أن نشر هذه الحقيقة سوف يجعل الناس يشعرون بالفضيحة . . فهو قد فضحهم أمام أنفسهم . وجعلهم أضحوكة لبعضهم البعض . ثم إنه لن يعوضهم عن ذلك بشىء آخر . فالمصريون لديهم إحساس فرعونى عميق بتقديس الموتى والتوسل إلى الله عن طريق أوليائه الصالحين ؟!

فهو لم يجد بديلا عن شعور الناس بالارتياح إذا ذهبوا إلى الأضرحة !

ومن المؤكد تاريخيا أن سيدنا الحسين لم يدفن فى مصر ـ لا هو ولا رأسه ولاقدماه ولالحيته . هذه حقيقة مؤكدة . نشرناها كثيرا جدا . . ولكن أحدا لم يأخذ بها . ولايزال من أهم معالم شهر رمضان المبارك الذهاب إلى مسجد الحسين ، وحى الحسين . .

وكأننا لم نقل شيئا . .

وفى يوم فكر مصطفى أمين وعلى أمين فى حملة صحفية لصرف الناس عن زيارة الأضرحة فقررا دفن حمار فى مكان ما وإقامة ضريح عليه ثم الدعوة إلى زيارة صاحب هذا الضريح لانه يشفى المرضى ويأتى بالأطفال من الأم العاقر والأب العقيم ! !

ثم عدلا عن هذه الفكرة . فمعناها أن الناس مغفلون وأنهم حمير يتبركون بالحمير . . وهى إهانة بالغة للناس ولأنفسنا . ولايعوضنا ويعوض الناس عن ذلك أى شىء !

فما الحل أمام الكاتب إذا كان الناس قد فسدوا وانحرفوا . . ما علاج هذا الفساد ؟ ما قول الكاتب إذا كان الدين قد فقد هيبته عند الناس والطبقة الاجتماعية قد فقدت جاذبيتها ؟

والأسرة لم تعد لها قيمة ولا هيبة ولا معنى ولا ضرورة ؟

فما الذى يفعله الناس بعد أن انهارت كل هذه القوى التقليدية . إن الناس يختارون لهم فكرا ونظرية . ويضعون لأنفسهم روابط بديلا عن الدين وعن الطبقة وعن الأسرة . هذه الروابط تكون لها قدسية الدين ، وقوة الطبقة ودفء الأسرة . وهل يجدون شيئا من ذلك فى المؤسسة التى يعملون بها أو النقابة أو الرابطة أو النادى الرياضى أو الجمعيات الخيرية . .

ولكن ليس هذا حلا ، وإنما هو حل بديل . . أو بديل عن الحل . .

ولذلك نجد المواطن المعاصر حريصاً على أن تكون فى جيبه بطاقة نقابة وبطاقة شخصية وبطاقة للنادى . . وهذه البطاقات هى (هوية) المواطن الذى له رقم مسلسل فى النقابة . . أو الذى له توصيف : عامل مساعد مهندس . . طبيب . . سكرتير . . رئيس . .

هنا يتأكد لدى الكاتب أو المفكر أن المواطن فى حاجة إليه إلى رأيه إلى هوايته . . إلى الوقوف معه وضده أحيانا . . المهم أن يكون هناك . .

وعلى الرغم من حاجة الناس إلى ما يعتزون به ويريحهم . . فإن قوى الدمار تظهر فيهم . . وهذه الرغبة فى التدمير ليس سببها أنهم لايريدون أحدا أو شيئا . . وإنما هو نوع من الضيق العام ينفسون فيه عن أنفسهم . . فبدلا من أن يتوكئوا على عصا أو رأى أو نظرية . . فإنهم يحطمون العصا التى يتوكئون عليها وصاحب العصا أيضا . . وبعد ذلك يبكون على هذا الدمار الذى دفعتهم الظروف إلى ارتكابه ؟

عندما عاد الرئيس عبد الناصر من روسيا وجد فى الصحف المصرية حملة عنيفة ضد توفيق الحكيم . والحملة تتهم الحكيم بأنه سرق هذه القصة وسرق هذه المسرحية . . وأن الناقد الفنى جليل البندارى قد ضحك عليه وروى له حادثة وقعت له فحولها الحكيم إلى مسرحية . . ولم يعرف أن جليل البندارى قد نقل إليه قصة فيلم رآه والفيلم معروض فى القاهرة . . ومعنى ذلك أن كل أعمال الحكيم بهذه الصورة !

وقبل ذلك هاجم الصحفى الكبير محمد التابعى الموسيقار محمد عبد الوهاب واتهمه بسرقة بيتهوفن ورافل وأوفمنياخ وغيرهم من الموسيقيين

العالميين . ولم يكن محمد عبد الوهاب إلا فنانا مثقفا يستمع إلى كل الذى حوله ويختار ما يتمشى مع ذوقه ويجعله ذوقا عاما لنا . .

وماتت حملة التابعى وبقى محمد عبد الوهاب سلطانا للطرب وإمبراطورا للموسيقى وأستاذا لأجيال معه ومن بعده . .

أما الحكيم فقد أنقذه جمال عبد الناصر الذى أصدر قراراً بوقف هذه الحملات وكانت حجته فى ذلك قوية . . فقال : إنهم فى روسيا ينسبون كل الاكتشافات العلمية لأنفسهم . فهم يقولون إنهم الذين اخترعوا التليفون مع أن الذى اخترعه جراهام بل الأمريكى . . وإنهم اخترعوا الراديو مع أن الذى اخترعه ماركونى الإيطالى . . وإنهم أول من عرف الصواريخ والعالم كله يعرف أن الذى اخترعها العالم الألمانى فون براون . .

وقال عبد الناصر : كيف يعتز الروس بما ليس لهم ، ونحن نهدم ما هو لنا ونابع من صميم شعبنا وفكرنا ؟!

حتى الروس أنفسهم قد ظهر بينهم من يقول إن كاتبهم العظيم شولوخوف الحائز على جائزة نوبل فى الأدب قد سرق روايته الكبرى (الدون الهادئ) وإن صاحبها الأصلى عامل بسيط . .

ويتساءل الناس أين هذا العامل لكى يعرض على الناس روايته المسروقة هذه . . ولابد أن يكون هذا العامل موهوبا . والموهبة لاتموت . . فالله قد خلقها لتظهر . . لتضئ . . ويكون الرد أن هذا العامل قد مات . . أو قتلوه . . فإن لم يكن هذا كذبا ، فهو يكشف عن روح التدمير فى الشعوب . ويكون التدمير أكبر دليل على أن مرضا قد استحكم وأنه فى حاجة إلى الطبيب الذى يشخص ويداوى !

ولايزال شكسبير العظيم هو الآخر موضع شك ويتساءلون : هل هو الذى ألف المسرحيات . . أو هو الفيلسوف بيكون أو هو غيره . . كأن الإنسانية تنكر على نفسها أن يكون فيها عبقرى . . فإذا ظهر طردوه من عظمته . . شرحوه . . بهدلوه . . ثم راحوا يلعنون أنفسهم !

وفى مصر قيل إن د . سعيد عبده كان يصحح لأمير الشعراء شوقى . . وقيل بل إنه نظم له أبياتا . . وعاش سعيد عبده بعد وفاة شوقى . . وعندما كان يقال له ذلك فلم يكن ينكره أو يؤيده . . والمعنى أن فيه شيئا من الصحة !

ولايزال شوقى أميراً لكل الشعراء . .

فما فائدة تدمير موهبة عظيمة . . ما جدوى تحطيم عبقرية فذة ؟ لا جدوى ولكنها غريزة التدمير والتحقير . .

وعند انتصار السادات فى حرب أكتوبر قيل : إن الذى انتصر هو عبد الناصر لأنه واضع الخطة . .

شىء عجيب : أن ينهزم عبد الناصر فى ١٩٦٧ وأن ينتصر فى ١٩٧٣ . . أن ينهزم حيا وينتصر ميتا ؟!

مع أن الهزيمة مصرية والنصر مصرى أيضا . . والجيش المصرى فى الحالتين هو الذى انكسر وهو الذى انتصر . . والفارق هو القيادة والتدريب والتدبير وحسن الأداء وبراعة السياسة !

ولكن التدمير غريزة فردية وغريزة شعبية أيضا !

وليس فى استطاعة الكاتب الذى يجد أهل زمانه فاسدين ، أن يتخلص منهم . . وأن يأتى بقوم غيرهم . استطاع ذلك رجل واحد هو

نوح عليه السلام . دعا أهله وأوصاهم وأرشدهم ووعدهم وتوعدهم وحذرهم وأنذرهم ، ولكنهم لم يستجيبوا . ولما رأوه يبنى سفينة بعيدة عن الشاطىء قالوا إن نوحا مجنون .

ولكن نوحا كان يعلم أن الطوفان قادم . وأنه لانجاة منه إلا من عصم الله . ولما ضاق نوح بقومه قال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا) .

وجاء الطوفان . وكانت السفينة قد اكتملت وأوحى الله إليه أن يحمل فيها أسرته وزوجين اثنين من كل الحيوانات . .

ولكن اثنين قد عصيا نوحا عليه السلام : ابنه وسيدة على كتفها غلام . .

أما الابن فقد قفز من السفينة وقال إنه سيلجأ إلى جبل . الجبل يعصمه من الماء . وقال له أبوه : لا عاصم اليوم من أمر ربى .

وغرق الابن العاصى . والذى جاء عصيانه تجسيدا لحكمة قديمة : أنه لا كرامة لنبى فى وطنه وفى أهله . لقد عصاه أقرب الناس إليه . .

أما السيدة فكان لها غلام . ولم تشأ أن تركب السفينة وذهبت إلى أحد الجبال . وكلما أدركها الماء صعدت حتى بلغت القمة . . فأدركها الماء حتى رأسها . . فرفعت ابنها فوق رأسها . . وأدركها الماء فغرقت ومن بعدها ابنها ــ فقد كانت إرادة الله أن يهلك كل من لم يطع نوحا عليه السلام !

وليس فى استطاعة الكاتب أو المصلح أن يأتى بقوم غير الذين فسدوا . . وإنما عليه أن يدعو وأن يشرح وأن يستقطب بعض الناس . . يستقطب نواة وبذوراً . . وجذورا . . وهداة للتطور . .

وفى زمن الـدعوة إلى النهضة أو التنـوير وفى مـواجهة السلطة صـاحبة الإرادة والقـرار . . يقف الكـاتب أمـام الهيئة . . امـام اللجان . . أمـام أشكال وألـوان من السلطات . ولكـن التاريخ يـدين للكاتـب الفرد . . والمفكـر الفـرد . . والأديـب الفرد . . لأن الفـرد هـو وحـده القـادر على الإبـداع . . هـو الذى فى داخلـه شرارة . . هـذه الشرارة هـى التى تـديـر موهبته وتضئ له وتضىء به . . ليتقدم الناس . .

ولم نعـرف فى التـاريـخ كلـه أن استطـاعـت لجنـة أو هيئـة أن تنظـم قصيدة . . أو ترسم لوحة أو تؤلف سيمفونية .

انه الفرد الواحد القادر على كل شـىء جديد . . ولذلك كان العذاب له والحقد عليه . .

وفى أعماق كل مبدع قصة سيدنا يونس والحوت . ويونس هو صاحب الرسالة . والحوت هو الناس . وهو يـريد أن يحتمى بالناس من الناس . ويريدون أن يعانقوه دون أن يحطموا ضلوعه . .

ولذلك فهو كثيرا مـا يذهب بعيدا عن الناس ليراهـم أوضح . . بعيدا عن الناس يكون له الهدوء والصفاء والنقاء والرواء . .

ثم يعود لهم . لابد أن يعود لهم . .

والنبى عليـه الصلاة والسلام كان لـه (غار حراء) يأوى إليـه فى الأيام ذات العدد : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . .

والمسيح عليـه السلام كانـت له البرية . . كانـت له الصحراء يـذهب إليها بعيدا ليرى أوضح وأعمق . .

والرهبان لهم الصوامع . .

والعلماء لهم المعابد والمراصد ، وكلها بعيدة عن الناس . . ومن أجلهم أيضا .

فالكاتب حين يبعد فليس هاربا ولا منعزلا ولاهو عزل نفسه ونفاها بعيدا عن الناس . .

ومن أهم مشاكل العصور الحديثة أن الناس صنعوا الآلة وقلدوها . وانضبطوا . . ولذلك كانوا يحلمون بالعودة إلى الطبيعة . . إلى الحياة البدائية . . كما فعل الرومانسيون فى أوروبا . . وكما نادى الفيلسوف روسو . . ولايزال الناس يحلمون بتلك الأيام الجميلة . . التى عاش فيها الإنسان على الفواكه وفى الغابات وفى الكهوف والخيام هربا من واقع الحياة الميكانيكية فى كل العواصم . .

وفى أمريكا ألوف الشبان يعيشون فى الاصطبلات ـ ويعبدون الأوثان ويختارون أناسا غرباء ليستسلموا لهم تماما . . أحد هؤلاء الأنبياء الكاذبين استدرجهم إلى غابات الأمازون ودعا إلى الانتحار الجماعى . وانتحروا . وكان انتحارهم دليلا على ضعفهم واستسلامهم وفى نفس الوقت هروبهم من سلطان الدولة وسيطرة الأب والأم والمدرس والقسيس . .

ولذلك فضلوا الموت فى الغابات . . فى الطبيعة البدائية التى لم يعد يراها أو يعيش فيها أحد . .

لقد أخرجوا أنفسهم من جنة القرن العشرين ، ودفنوا أنفسهم فى جنة القرن العشرين قبل الميلاد !

ولقد شهد القرن التاسع عشر أقصى درجة الرأسمالية : الاستعمار أو أعلى مراحل الاستعمار : الرأسمالية . .

أى عصر الفرد الذى يجمع المال ويكدسه ويجعل منه جبلا يقف فوقه . . إن لم يكن إلها فهو كالإله . . والناس تحته عبيد ، أو كأنهم عبيد . .

فهو يضع السلاسل الذهبية على أيدى الناس . . وعلى خيالهم وأحلامهم . .

وفى نفس الوقت عرف القرن التاسع عشر بزوغ الشيوعية وجبروتها . . وانتقالها من ألمانيا إلى أوروبا واستقرارها فى روسيا وفى الصين وانتشارها بعد ذلك قوى وأحزابا وعصابات فى كل الدنيا .

وظلت الحرب بين نارين . . الشيوعية ــ أى قوة الجماهير ــ وبين الرأسمالية أى القوة الفردية .

حتى انهارت الشيوعية فى هذا القرن ومن عشر سنوات فقط .

فما هو هذا الصراع ؟

إنه صراع بين النظرية التى تجعل الناس مثل أعواد الكبريت فى علبة . . كل الناس أعواد كبريت متشابهون . . تضعهم أو تفبركهم الدولة . . وتشعل فيهم النار . . لا فرق بين عود وعود . . ولا يصح أن يكون هناك فرق . . والناس أعواد كبريت أو أكواب أو أحذية . . وفى ذلك مساواة مطلقة . . والمساواة التامة هى العدل العنيف . . تماما كما تساوى بين أصابع يديك بالسكين . . فتقطعها لتتساوى مع أصغرها . . وليس إطالة الأصابع لتتساوى مع أطولها .

والإنتاج جماعى . .

والإبداع فردى . .

فالذى اخترع هذا المصنع فرد بعد بعد فرد فى عشرات أو مئات السنين . . ولكن الإنتاج والوفرة من صنع الكثيرين . . من صنع العمال . . أى الأدوات المشابهة . . أى الأدوات التى هى قطع غيار فى جهاز واحد : المصنع . . أو المجتمع . . أو الدولة . .

وحتى لا يمتاز أحد عن أحد ، فالكل سواء فى الأجور وفى الدرجات وفى عضوية الحزب أو المنظمة . .

ولم تسفر الشيوعية إلا عن المساواة التامة فى الجوع والتعب والإرهاق والتخلف . . ولكن فى نفس الوقت انفرد أقطاب الحزب الشيوعى ، أو أمراء الحزب الشيوعى بكل صفات الرأسماليين . . فلهم قصور ولهم خدم وحشم وطهاة . . ولهم عربات تدوس القانون ولهم الصفوف الأولى من الطائرات ولهم الحراس وستائر على عرباتهم حتى لايراهم الناس ، أو حتى لا يروا الحقد والغل والحسد والعجز عن الانتقام فى عيون الطبقة العاملة !

فالمساواة المطلقة ضد الطبيعة . . ضد الفطرة . . فليس بين الناس اثنان متشابهان . . ولا بين أوراق الشجر ولا بين الطيور والزواحف . . إن الاختلاف والتباين والتمايز من صفات كل المخلوقات ، فاختلاف كل ما خلق الله أكبر دليل على عظمة الله التى لا حدود لها . .

وجاءت الشيوعية تشعل النار فى حقد الضعيف على القوى ، والفقير على الغنى ، والمريض على السليم ، والجاهل على المتعلم وابن الشوارع على أبناء الناس . وفشلت نظرية العدل العنيف والمساواة الظالمة ، والجنة المزيفة .

والدول الشيوعية كانت تساعد أصحاب المواهب سرا من العلماء والأدباء والمطربين والراقصات والرياضيين . . وتضعهم فى مكان رفيع فى

المجتمع ولكن فى نفس الـوقت تحشرهـم فى قوالب سياسيـة من حديد . . وكانت تعطيهـم سرا كل شىء . . والمهم أن يكون سرا . . حتى لا يقال إن الشيـوعيـة تبقشش أو تستعير أسـاليـب الـرأسمالية فى الاعتراف بـالموهبـة الفردية ، بالإبداع الشخصى !

أجمل صورة وأعمق صورة وأروع صورة لذلك : حيوان اللؤلؤ . .

أذكر أننى ذهبت إلى (ثوبا) فى اليابان بالقرب من جزيرة ميكو بوتو. . وهو الرجـل الذى اخترع اللؤلؤ المزروع . . هناك وجدت جـوا هادئا بعيدا عن الضوضاء . . وبعيدا عن أيدى وأرجل الناس . . وقد وضع اليابانيون عشرات الألوف مـن محار اللؤلـؤ . . وعلقوهـا فى أقفاص على ارتفـاعات واحـدة من القـاع . . قـد خلقوا لحيـوانـات اللؤلـؤ (جـواً) هادئاً دافئـاً ساكناً . . وتركوا هذه الحيوانات تبدع دون مقاطعة أوتدخل من أحد .

فالمعروف أن حيوان اللؤلؤ كائن قبيح الشكل ضعيف جدا . . ويعيش فى محارة . . ومن خلال هذه المحارة تدخـل ذرة من أى شىء . . من رمل من تـراب أو جرثومـة فإذا دخلت جسم هـذا الكائن الصغير توجَّـع وتألم وانطـوى وانزوى ودخـل يفـرز مادة اللـؤلـؤ حول هـذا الجزء الصغير . . وبذلك يعزله عن بقية الجسم . . يوما . . شهرا . . سنة . . سنين .

فكأن هـذا الكائن قـد انطوى وانكفأ يبكـى . . وكانـت دموعـه هذه الحبات البديعة . . فهو يبكى ويبدع . . أو يبدع ويبكى . . فالإبداع هو الـدموع والعـرق لهذا الكائن الصغير . . أروع نمـوذج للعمل الفنـى . . للإبداع القائم على الوحدة والانـزواء . . والانزواء ليس هروبا ، وإنما هو هروب إبداعى مؤقت . . تماما كما يغلق العالم مصنعه فى وجه العالم . . أو الشاعر كوخه بعيدا عن الناس ليعود إليهم بعد ذلك بما أبدعه !

أما ميكو بوتو فقد اخترع طريقة توفر على هذا الحيوان بعض الدموع . . فبدلا من أن يترك ذرات صغيرة تدخل عـالم الحيوان الصغير . . فإنه أدخل كرات صغيرة مصنـوعة من المحـار الموجود فى نهر المسيسبى الأمـريكى . . وراح حيوان اللؤلؤ يفـرز دموعه حول هذه الكرات . . وبـدلا من أن يبكى سنتين أو ثلاثا . . فإنه يجعل منها حبة كاملة الاستدارة فى سنة !

تماما كما تصنع أقراص الشمع وتضعها فى خلايا النحل ، وبذلك توفر على النحل شقاء وعذاب شهور طويلة .

فى سنة ١٩٥٧ رأيت فى المعرض الدولى فى بروكسل أروع ما عرضته دول العـالم . . الروس عـرضـوا نموذجـا صغيرا لأول قمـر صنـاعى . . وقمـرا صناعيـا وكلبة . . وقيل إن هـذه الكلبة هـى أخت الكلبة (لايكـا) التى أطلقها الروس . . ووقفت وسط الناس السذج الـذين راحوا يتساءلون عن كيف ماتت الكلبة لايكا فى الفضاء الخارجى . . دون أن تتنبه إلى أن مئات الألوف من الكلاب والقطط والأرانب والفئران والضفادع تموت فى المعامل من أجل سلامة الإنسان . . فـالعلماء يقومون بتجاربهم عليها ، وليس فى استطـاعتهـم أن يضحوا بمثـل هـذه الأعـداد من البشر . . ولكـن وقفنـا نتساءل والروس يندهشون لهذا العبط !

ولكن أهم ما عرضته النمسا هو نموذج لرياض الأطفال . وفى رأيها أن ميلاد طفل وتـربية طفل وخلق مـواطن صالح وتشجيعـه على الإبداع هو أعظـم ما تقـدمه دولـة . . وكل شـىء فى المعرض النمسـاوى يحدثنا عـن الطفل المعجزة موتسـارت . . الذى أبدع أول سمفونية له وهـو فى السابعة من عمره .

كأن النمسا أرادت أن تقول : إن أعظم ما تقوم به دولة هو أن يكون عندها موتسارت . . عشرة . . أو مائة عبقرى . ولا عبقرية بلا حرية . . فالقيود والأغلال تصنع رجلا صبورا ولكنها لا تخلق عبقريا . .

وانهيار الشيوعية التى صنعت سفن الفضاء ، ولم تصنع ثلاجة فى بيت واحد . . والتى صنعت صواريخ جبارة تدور حول الكواكب ، لم تصنع جهاز تليفزيون ولا سخانا ولا جهاز تكييف لعامة الناس . . بل إن اهتمامها كان بتكييف محطات المترو ، لا بيوت الناس .

فجاء سقوط الشيوعية فى روسيا وانفصال كل الجمهوريات التى ابتلعتها بالحديد والنار والإرهاب ، أكبر دليل على أنه ليس طبيعيا أن يكون الناس قوالب طوب . . وإنما الطبيعى أن تكون هناك قواعد عامة لكل الناس يتحرك فيها الناس بكل حرية . . وأن يحمى القانون الناس من الناس . ولكن المهم أن تكون فردا حرا كريما لتكون قادرا على الخلق .

من الذى يقول ذلك ؟

يقوله المفكر والأديب والمربى والمصلح . .

ومن الذى يسمع ذلك ؟

يسمعه كل الناس . لأنه فى صالح كل الناس .

الذين رفضوا الدنيا واقتحموا الجنة !

فى القرن السادس قبل الميلاد كان الفيلسوف الصينى لاوتسو يشكو من أن الدنيا تغيرت . . وأن الناس مستعجلون . . فإيقاع الحياة صار أسرع . . ولم يعد أحد يتأنى عند الطعام أو الكلام . . الناس قد ركبهم العفريت . .

وقال لاوتسو : لقد فسدت الدنيا . فالناس يستعجلون النهاية !

ومن عشرين قرنا شكا (بلينى الكبير) ذلك المفكر المقاتل أن أكبر خطيئة هى استخدام الإنسان لمادة الحديد . . فبدلا من أن يستخدمها فى حرث الأرض . . أصبح يستخدم الحديد فى القتل . وتمنى أن يرى اتفاقا بين الدول على أن تستخدم الحديد فى الزراعة فقط !

وأحد أباطرة الرومان أعدم رجلا اخترع زجاجا غير قابل للكسر . وقال إن هذا النوع من الزجاج سوف يؤدى إلى بطالة مئات العمال الذين يعملون فى صناعة زجاج قابل للكسر . .

كأنهم الثلاثة يعيشون معنا الآن . . ففى العالم المعاصر دعوة إلى عدم استخدام أسلحة الدمار . . والأسلحة النووية . . وأحزاب الخضر تطالب بوقف رصف الطرق التى تجىء على حساب الزراعة واللون الأخضر . .

والتى تفتح الطريق أمام السيارات التى تنفث السم فى كل مكان . . ويرفضون أيضا بناء المطارات حتى لا تستخدم الطائرات التى تشع السموم فى الهواء وعلى الأرض وفى الجو . .

والأطباء يطالبون الناس بأن يتمهلوا إذا أكلوا وإذا شربوا . . وإذا جلسوا وإذا قاموا وإذا ناموا . . وإنه لا شىء يفسد الصحة الجسمية والصحة النفسية إلا هذه السرعة . . هذا التوتر العصبى . .

وكانت للدكتور أحمد زكى الذى ترجم لنا قصة (الميكروب) و الكون الغامض وكان رئيس تحرير مجلة العربى الكويتية عبارة مشهورة تقول : اضحك ترقص معدتك !

وإنه لاشىء يساعد على الهضم وانتظام الدورتين الهضمية والدموية إلا راحة الأعصاب والمرح . . ولكن فى زماننا من الصعب أن يتوافق الإنسان وأن يتوازن . . فكل شىء حوله يجرى ويوجع ويلسع ، وهو يحاول أن ينسحب من كل ذلك . . يحاول أن يخرج من الدوامة ويتفرج عليها . . أحيانا يستطيع وأحيانا كثيرة لايستطيع . . أحيانا يقبل زمانه وأحيانا يرفضه رغم أنه فيه ، وأنه مطالب بأن يكون طرفا إيجابيا . . لا طرفا سلبيا متفرجا لا مباليا . .

ومن مظاهر الرفض أن يمل الناس الاستمرار فى هذه الحياة ، وأن يتجهوا إلى الماضى هاربين . .

والذين تمسكوا بالماضى وحرصوا عليه خوفا من هذا الحاضر ، قد ملوا . . قد سئموا . . ولذلك اتجهوا إلى الحاضر وإلى المستقبل . .

تماما كما حدث فى رواية (عالم جديد جرىء) للأديب ألدوس هكسلى . . ففى هذه الرواية نجد أن أحد أبطالها قد سئم الانضباط والحياة الآلية الميكانيكية . . وقد ركب طائرة هبطت اضطراريا فى إحدى الغابات وهناك قابل شابا ثائرا فأعجب به . . هذا الشاب ثائر على الحياة البدائية الهادئة المملة . . وتمنى لو عاش فى عالم متطور . .

وذهب إلى العالم الميكانيكى الآلى فقرر أن يعود إلى عالمه القديم . .

وفى رواية (تاييس) للكاتب الفرنسى أناتول فرانس . . وجدنا راهبا قد زهق من حياته . . ويريد أن يعيش حياة اللهو والفرفشة . . وكان يعرف راقصة فى الإسكندرية اسمها (تاييس) . . وفوجىء بأنها قد زهقت من حياة اللهو والليالى الحمراء . . وأنها تريد أن تعيش فى استقامة ونقاء . . راهبة كهذا الراهب . . وحاول إقناعها أن ترجع إلى ما كانت فيه . .

وكان انتصارها هزيمة له ، وكانت عزيمته انتصارا لها . .

وكلاهما قد سئم حياته . .

ومن الذين سئموا الحاضر ويحنون إلى الماضى ، والذين سئموا الماضى ويتطلعون إلى المستقبل يتكون هذا الجيل . . أو كل جيل . .

فكل الأجيال متشابهة المشاكل والآمال والأحلام . وإن كان كل جيل يتوهم أنه هو (الجيل) . . وأنه هو الموعود . . وأنه الذى على موعد مع القدر . .

ولكن الأجيال تتداخل كما تتداخل موجات البحر وهبات النسيم . . ويتداخل الظلام فى العشق ويتداخل النور فى الشفق . . ولا انفصال بين الدرجات اللونية والحركات الموجية . .

ونحن نقول : القرن العشرون والقرن الواحد والعشرون .

ولاعلاقة بهذه المسميات بحركات التاريخ وموجات الغضب والرضا . . فتساقط أوراق النتيجة التى على الحائط لايقدم ولا يؤخر فى أحداث الحياة . لأن العشرين والواحد والعشرين هما حساباتنا نحن . . هما خطوط نضعها على أوراقنا . . ولايوجد أى فارق بين يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٠ وبين أول يناير سنة ٢٠٠١ . . إنها حساباتنا وتقديراتنا واختراعاتنا . . وفى هذا اليوم الذى نراه فاصلا بين قرن وقرن ليس كذلك بالنسبة للتقويم الهجرى أو القبطى أو العبرى أو الصينى . . ولا قيمة له فى دوران الأقمار حول الكواكب الأخرى . . ولا دوران النجوم فى المجرة الواحدة ولا دوران المجرة بما فيها من ألوف ملايين النجوم حول نفسها . . ولا دوران ألوف ملايين المجرات فى الكون . . ولا دوران القوى والطاقة وجزيئات الخلية الحية حول بعضها البعض . .

ان الزمن نسبى . . إن هذه أرقامنا وحساباتنا ونحن ما نزال نتوهم أن الجديد عندنا هو الجديد فى الكون كله . . وأن نهاية قرن وبداية قرن . . بداية تيار أو اتجاه أو نمط جديد فى الحياة . . لاشىء من ذلك سوف يحدث . وإنما نحن الذين نتصور ذلك ! فلايزال الإنسان مغرورا ولايزال يتصور أنه مركز الكون . وأنه ما دام سيد الأرض ، فهو سيد الكون .

وهذا تفكير قديم جدا . وقد اندثر تماما عندما اكتشف علماء الفلك أن الأرض ليست مركز الكون . . وإنما هى كوكب من تسعة كواكب تدور حول نجم هو الشمس . . وإن الشمس ليست إلا نجمة من بين آلاف ملايين النجوم فى مجرة واحدة . . وإن فى الكون ألوف ملايين المجرات . . وإن هناك أكثر من كون غير الذى نعرفه . . ربما ألف مليون كون آخر ؟!

ولو كشف الله لنا كل عظمته ، لأحسسنا جميعا بأننا هاموش أو نمل يزحف على تل . . ولكن الله يكشف لنا عظمته بالتدريج . . وكلما اكتشفنا شيئا من عظمته أحسسنا نحن أيضا بقدرتنا على الفهم . . وإننا مختلفون عن بقية الحيوانات الأخرى . .

فالإنسان كان ذرة . . مثل كل الحيوانات . . وتطورت وتقدمت حتى عرفت الكون . . وعرفنا جانبا ضئيلا من عظمة الله . . فكأن الكون لكى يعرف نفسه ميزنا وطورنا . . وعن طريق تطويرنا أدركنا أصلنا وفصلنا ثم تطلعنا إلى مستقبلنا . . ومستقبل الكون أيضا . وهذه الاكتشافات المستمرة لقدراتنا وسيطرتنا على ما حولنا هى التى جعلتنا نشعر بالتفوق على النبات والجماد والحيوان . ونرى ـ ونحن على حق ـ أننا سادة هذه الكائنات !

ولكن من قال إننا الكائنات العاقلة الوحيدة فى هذا الكون ؟

من قال إننا أعقل الكائنات وأعظمها ؟ نحن لاندرى . ولكن ليس بعيدا أن نعرف بعد ألف سنة أو مليون أن هناك كائنات أعظم وأعقل . . فليس معقولا أن يخلق الله هذا الكون من أجل الإنسان وحده . . فالظروف التى جملت الإنسان وطورته ، لماذا لا تخلق كائنات أخرى وتطورها أيضا . . فقدرة الله لا حدود لها . فالعلم يدعو إلى الإيمان بالله . وإيمان الإنسان بنفسه أيضا . والإنسان يبالغ كثيرا فى قدرته . . مع أنه عاجز تماما عن مواجهة الميكروبات والجراثيم والأمراض . . وما صنعت يداه من السموم الجسمية . . وأخطر من ذلك . . السموم النفسية والعقلية التى هى أيضا من صنع الإنسان . وهو يحاول النجاة منها . . ولكن كيف ينجو الإنسان من الإنسان . . إن كل شىء يدل على أنه لا نجاة لنا . . فنحن محكوم علينا بالحياة على هذا الكوكب . . نبنيه ونهدمه

فوق دماغنـا . . ونبكى على ذلك . . ثم نبنيـه أروع وأجمل على الكواكب الأخرى . . أو فى المدن المدارية حول الأرض . .

وليس البحـث عن كـواكب أخرى ، الا ملـلا من كـوكب الأرض . . وليس البحث عن جـزر السعادة والمدينة الفاصلة إلا هربـا من حياتنا على هذا الكوكب . .

وهناك مـن يهربون من الـواقع بالمخـدرات والدروشة ــ وكلها مخدرات تجعل العقل يغيـب . . فإذا غاب راح يهلوس ويهذى . . وكـذلك يفعل الحشاشون والشمامون والمتعصبون والمتطرفون . .

هل هى المعجزة التى تنقذنا من أنفسنـا ؟ هل ما تزال معجزة بلا أنبياء من عند الله . .

إن كثيريــن فى العصر الحديـث قــد ادعـوا النبــوة . ووجـدوا مــن يصدقهم . . مـن يهجر البيت وينام فى الشارع ، ويهجـر الشارع وينام فى الاصطبلات ، ويهجر الاصطبلات ويمضـى ليله ونهاره فى مواخير الخمر والحشيش . . ومن يرفـض كل رأى وكل فكر ويعشق فكرة واحـدة يؤمن بأنها وحـدها الصحيحـة . وأن الناس جميعا مخطئـون . وأنه وحـده الذى يحاسب الناس ويحاكمهم وينفذ فيهم حكمه ـ وكذلك يفعل المتطرفون فى كل دين إسـلامى أو مسيحى أو يهودى أو بوذى . فهم جميعـا سواء فى يد كتاب مقدس وفى يد أخرى قنبلة !

وليس الدين ـ أى دين ـ هو السبب الوحيد للعنف والتطرف والدروشة الهروبية . . وإنما هناك أسباب اجتماعية واقتصادية ونفسية كلها معا تدفع الإنسان ــ الشاب غالبا ــ إلى أن يرفض المجتمع . وأن يسخـط عليه وأن يعيده . . بالقوة . .

ولكن المجتمع ما يزال هو الأقوى . . ولكن الشاب المتطرف ينطح المجتمع . . وينتهى الصراع بموته . . وهو يتوج قوته بأنه شهيد . . أى أنه ليس قاتلا ولا مجرما . ولكنه شهيد : فهو القاضى وهو الجلاد وهو الذى أقام لنفسه حفل تكريم على جثث الأبرياء وعاونه آخرون على أن يفتحوا له أبواب الجنة على مصاريعها مع أولياء الله والقديسين والأنبياء . . فهو إن لم يملك الدنيا ، فقد استولى على الجنة !!

وتتضاعف مشاكل الناس ، وأوهام الشباب . . وتختلط الأسباب الحقيقية بالوهمية ، والصدق والكذب ، والإصلاح والإفساد . . إنه طوفان من كل ما فى الدنيا من تناقضات عاجلة تطلب حلا !

نفرض إن هناك مباراة فى كرة القدم فى ستاد القاهرة . . ولكن الفريق الواحد ليس له زى موحد . . وإنما كل لاعب قد ارتدى ما يعجبه من الفانلات ـ الفالنات هى الأصح . . والشورتات . . وبعضهم يلعب حافى القدمين . . ثم إن هناك خمس كرات فى الملعب وعشرة من الحكام . . ومن حق أى متفرج أن ينزل إلى الملعب ويشوط فى المرمى . . ويصفر أحد الحكام معتبرا ذلك هدفا صحيحا . . ومن حق أى متفرج أن ينزل ويضرب أى لاعب لم يعجبه قلبا ويعتبر الحكم أن هذا قانونى . . ولا أحد ينظر إلى ساعته . . وتتكاثر الصفافير من شفاه الحكام واللاعبين والمتفرجين . . ولا أحد يعرف كيف تنتهى المباراة .

وكان أحد المتفرجين جالسا يتأمل هذا الذى يراه . . فإذا تساءل هذا اللاعب الصاحى : ما اسم هذه اللعبة ؟

فالحق مع هذا المتفرج ، لأن اللعبة التى أمامه ليست هى كرة القدم المعروفة القواعد والأصول . . ولكن الذى يراه ليس (لعبا) وإنما هو

عبث . . فوضى . . وإذا حاول هذا المتفرج أن يسأل جاره عن المعنى وراء هذا العبث فوجد جاره هو الآخر أكثر حيرة منه . . ولكنه لا يجد غير هذا العبث وهذا الملعب . . ولذلك فهو يتسلى . . يتفرج والسلام .

فكأنه من الممكن أن نتفرج ونتسلى ما دمنا لا نجد المعنى . . وإذا وجدنا المعنى لم نفهم الهدف . . ولكن من المؤكد أن نجعل المتفرج أكثر حيرة من الكرات في الملعب بين أيدى وأرجل الجميع تتطاير هنا وهناك وتلاحقها الصفافير بين شفاه الألوف !

شىء من مثل ذلك فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية وما تعرضه الصحف والتليفزيون .

كما أن الفراغ من الممكن أن يدفع الإنسان إلى أن يملأه بأى شىء . . كالذى يظل طوال النهار متسكعا بين الشوارع والنواصى والمقاهى . . فليس له هدف ! أو أن له هدفا ليس واضحا . . كما أن الطريق إليه ليس واضحا كذلك !

وقد صور لنا الأديب النمساوى استيفان تيسفان فى إحدى رواياته المسماه (المباراة الملكية) أن سجينا قد حبسوه انفراديا . . وليس معه كتاب أو ورقة . . فما كان منه إلا أن راح يتذكر كل ما حفظ من الشعر . . يلقيه بصوت مرتفع . . وبصوت هامس ثم يقلبه . . ثم يقرأ الشعر بالمقلوب . . وبعد أن فرغ من الشعر راح يتخيل المباريات الشهيرة فى الشطرنج . . ويكون مرة غالبا ومرة مغلوبا . . ولما فرغ من كل هذه المباريات المشهورة راح يتفنن فى نظم شعر من غير حروف الباء والفاء والقاف واللام . . تماما ككثير من القصائد التى تعمدها الحريرى فى (المقامات) . . مثلا يقول الحريرى :

مــودتــه تــدوم لكــل هــول   وهــل كــل مــودتــه تــدوم

ففى استطاعتك أن تقرأ هذا البيت من آخرة أيضا ! أو أن تقول : قلع مركب ببكر معلق ـ تستطيع أن تقرأها من آخرها أيضا !

وهذا الذى حاوله الحريرى هو نوع من اللعب . . يقصد إثبات القدرة اللغوية . . ولكنه فى نفس الوقت إضاعة للطاقة وفراغ شديد وافتعال . . ولكن عذر الحريرى أنه أراد ذلك . . وأن تظل (المقامات) رجلا يتكسب من الألعاب البهلوانية والردود الذكية . . فهذا اللعب له هدف . . أو إنه أحسن توظيف هذا اللهو . . تماما كالحاوى الذى يخرج الثعبان من جسمه والكتكوت من كم الجلباب . . ويخرج النار من فمه . . ولكن الحيرة والضياع عند الناس . . لعدم وضوح الطريق والهدف . . ولأن الناس يقعون وحدهم فريسة للناس الشطار من أصحاب النظريات السياسية البهلوانية والحكايات الاجتماعية الخرافية .

مثلا : إذا كان أب قد أنفق على ابنه دم قلبه لكى يجعل منه متعلما يتكسب بعد ذلك بعلمه . . والذى سوف يكسبه بالعلم شىء قليل . . وهذا الذى تعلم كان على خلق ودين . ويريد أن تكون له أسرة متينة . . وبذلك تشارك فى بناء مجتمع صحيح . ولكن ظروف الحياة أقسى وأصعب . . فهو غير قادر على أن يتزوج وأن يكون له بيت صغير وأن ينفق على طفل أو اثنين بعد ذلك . . ولكنه فى نفس الوقت مؤمن بأن هذا هو الطريق السليم . . وان هذا الطريق لأنه سليم فهو طويل شاق . ولكنه تعلم أيضا أن الصبر ضرورة حياة . وان الكفاح شرط كل نجاح . وفجأة وجد أن البنت التى اختارها فضلت عليه الميكانيكى والسباك . لماذا ؟ لأن

السباك كما تقـول أمها وأبوهـا ـ عنـده فلوس وهو وحـده القادر على شراء الشقة والسيارة والثـلاجة والفيديو ـ بينما زميلهـا ـ يا حبة عين أمهـا ـ يحلم بكـل ذلك ولا يقـدر عليه . فـلا بـد أن تختار البنـت شـابا غنيـا ـ ولابـد للشباب الذى يريد أن يكافح بزوجته ومن أجلها ، يجب أن يضرب دماغه ودماغ والده فى الحيط . . فى حيط بيت هذا الشاب الغنى !

فما المعنى ؟ المعنى أن على الشاب أن يبـل القيم والمبادىء والأخلاق فى كـوب الدمـوع والعـرق ويشرب نصفها . . أمـا النصف الثـانـى فيقدمـه لوالده !

وليس غريبا أن يتساءل الناس : ما هو الصح وما هو الغلط ؟

أذكر أننـى وقفت فى إشـارة المرور وتصادف وجـود راقصة معـروفة إلى جوارى قالت لى : إزيك .

قلت : الله يسلمك .

قالت : مش والنبى أحسن .

قلت : ماهو .

قالت : الرقص

قلت : والله أحسن . هز الوسط أفضـل كثيرا من هز القيم . . فالقيم اشترت هـذه السيارة المتـواضعة وأنـت هـذه السيارة الفـاخرة . . ولكنـى أصالح نفسى على نفسى وأقول وهل كنت أصلح راقصا .

قالت : طبعا ما تنفعش

قلت : ولكنك أنت أيضا

وانفتحت إشارة المرور وانطلقت سيارتها تسبق كل السيارات . . وأحسست أن سيارتها قد فعصت كل أفكارى بل إنها أجهضتها قبل أن تولد !

وكما يحدث فى أيام الخماسين فإن الجو ـ أى المسافة بين الأرض والسماء ـ قد امتلأ بالرمال الحمراء . . فلا أحد يعرف أين الأرض وأين السماء وأين الطريق . . إنها أيام بلا سماء ولا أرض . . ولا أحد يعرف إن كانت الأرض تنهد تحت أقدامنا . . أو أنها السقوف تنهار فوق رؤوسنا . . إنه ضياع أحمر . . رملى . . حارة . . ساخنة . . خانقة !

ولكن الإنسان مهما كانت الاضطرابات والفوضى والشوشرة الصوتية والضوئية والعقلية فإنه لابد أن يختار . . يختار الخطأ أو الصواب . . المهم أنه لا يسكت على الضياع . . ولذلك يضيق أى شىء ـ لأن الإنسان حيوان مؤمن .

بل ليس الإنسان وحده هو القادر على الاختيار ـ أى الذى لم أره . بل الحيوان أيضا . وفى الفلسفة القديمة حكاية اسمها حكاية (حمار بوريدان) يقال إن هذا الحمار وضعوه على كوبرى . . ووضعوا الماء فى ناحية والبرسيم فى ناحية . . والحمار جائع عطشان . . وظل الحمار يهتز فى وسط الكوبرى . . لا يعرف كيف يقرر . . هل يبدأ بالماء أو بالبرسيم . . وظل الحمار عاجزا عن الحسم . . حتى مات !

ولكن اهتزاز الحمار وتحركه خطوة ناحية البرسيم ـ وخطوة ناحية الماء يدلان على انه يريد . . ولكنه عاجز عن الحسم . . فله إرادة ولكن ليس لديه عزيمة . . ولكن الإنسان يفعل مثل حمار بوريدان أو يريح نفسه من دوخة الحيرة والتردد ويقع فريسة لأى شىء . . وبذلك كان تهور واندفاع

وانحراف بعـض الناس دليلا على أنهم هربـوا من التردد والتروى والتفكير والتأمل ـ وقرروا أن يحصلوا على أى شىء . . أية نظرية . . ومن أى طريق أية طريقة . ولكـن لم يختاروا الأصح والأسلم . فمن الذى يسـاعد الناس على القرار والحسم على الأصح والأفضل والأنفع والأرفع ؟

اتحاد الصناعات المصرية يقدم أروع صورة

هل هناك أمل فى حل هذه المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فى العالم كله ؟ هل من الممكن أن يعود الناس بالقوة إلى الطابور ؟ هل الطابور هو الشكل المثالى للحياة الحرة ؟ هل هى الفوضى فى عصر العلوم المنضبطة والحاسبات الألكترونية وسفن الفضاء و إطلاق المراصد تدور حول الأرض لنعرف أغوار الكون السحيق لعلنا نهتدى إلى بداية الحياة . . أو بداية الكون أو كيف خلق الله هذا الكون ؟

هل الكاتب والمفكر والمصلح قد . . تجاوز حدوده وراح يطالب ويحلم بما لايستطيع ؟

وهل هو يستطيع أن يحل كل هذه الأزمات فى قت قصير ؟ . أو هل من الضرورى حلها ؟ مثلا : هل هناك حل لمشكلة الموت ؟ وهل الموت يمكن أن يوصف بأنه مشكلة ؟ طبعا ليس مشكلة لأن المشكلة هى العقدة التى لها حل . والموت لا حل له . والإنسان ما دام قد ولد فلابد أن يموت . . وهو يحاول أن ينسى ذلك . . وسواء نسى أو لم ينس فهو ميت لا محالة !

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف أنه سيموت . .

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له مستقبل . . والذى يخطط لمستقبله . . والقادر على أن يقاوم وأن يتحدى وأن يسخر . . وهو يعلم علم اليقين أنه رغم أنه يتحدى وأنه يقاوم فسوف يموت . . ولكن موته ليس موت البشرية . . فسوف يحيا آخرون يستأنفون المعركة . . والقتال ولكن بأسلحة أخرى . . فلا نهاية للمشاكل ولا نهاية لحلولها . .

والإنسان إذا ركب القطار من القاهرة إلى الإسكندرية فإنه بقدر ما يبعد عن القاهرة يدنو من الإسكندرية . . بقدر ما يبعد عن يوم ميلاده . يقترب من يوم وفاته . . وهو يعلم ذلك ، ولكنه يحاول ويقاوم ويسقط ليقوم غيره يستأنف كل الذى حدث . . ويجدد الأمل والحلم والمعنى والهدف واللذة والعذاب أيضا !

هل يحلم بالمعجزة ؟

إنه لا يستطيع إلا أن يحلم . ويكون الحلم نوعا من الترضية المؤقتة . . . نوعا من (التصبيرة) . . نوعا من الحل العقلى لمشاكل واقعية . . والإنسان يتأرجح بين أحلامه وواقعه . . بين الذى يريد والذى يستطيع . .

والمثل يقول : الإنسان ملك عندما يحلم ، شحاذ عندما يصحو من النوم . .

فالإنسان هو الشحاذ الملك . .

وقديما قال الفيلسوف الإغريقى ديوجن : لن ينصلح هذا الكون إلا إذا تملك الفلاسفة ، وتفلسف الملوك . .

والمفكر هو الاثنان معا ـ أو هكذا يتوهم . .

وفى الستينات فى بريطانيا ظهر شبان مبدعون أطلقوا على أنفسهم اسم (الأدباء الساخطون) . وهم ساخطون على الماضى الذى ضيع على الحاضر صورته وإرادته . . فكأن ماضيهم ما يزال حاضرهم . . أو كأن ماضيهم قد ابتلع حاضرهم . . أو كأن حاضرهم قرر أن يتوقف عند ماضيهم . . وبذلك يوقف مسار الزمن . . فيكون هكذا : الماضى والماضى الذى ابتلع الحاضر . . والحاضر الذى لا مستقبل له !

ولكن هؤلاء الشبان الساخطين لم يقفوا عند الماضى والسخرية من الحاضر ، وإنما أبدعوا . . كتبوا الرواية والمسرحية والدراسة الفلسفية . . إنهم جون اوسبورن وكولن ويلسون وشيلا ديلاتى ؟

وفى أمريكا أطلقوا على أنفسهم اسم (الأدباء الصاخبون) الذين يدقون الطبول ويزعجون النائمين ويفزعون الحالمين . . وأهمهم : جاك كيرواك وجينزبرج . .

فهم بدلا من لعن الماضى ، خلقوا حاضرهم ومستقبلهم أيضا . وتزعموا الهجوم على بريطانيا التى اشتركت فى العدوان الثلاثى على مصر. ورأوا دولتهم متوحشة منافقة تطالب بالحرية وتأباها على الآخرين . تطالب بالسلام وتعتدى ، تطالب بالرأسمالية ولا تريدها لمصر . .

إن هؤلاء الشبان رفضوا المعجزة حلا لمشاكل الشباب فى بلادهم والعالم . .

فهل نحن ـ فى مصر ـ مانزال ننتظر المعجزة لنتحرر من قيودنا السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية . .

أليس طلب المعجزة يتضمن رفض الحل . لأننا نعلم أنه لا معجزة فى زماننا . . إذن نحن ننتظر ما لا يجىء . . ويصبح الكاتب مثل تلك الدابة

التى ربطها الدروز على الجبل فى انتظار المهدى المنتظر . . وكلما مات حمار جاءوا بغيره . . ولم يأت المهدى المنتظر . . لم تأت المعجزة . .

إن حكاية قديمة من الممكن أن تتذكرها . ويكون ذلك حلا أو أملا فى الحل . فقد حدث فى القرن الثالث عشر فى إحدى المدن الألمانية أن ظهر شاب ينفخ فى الناى . . وخرجت وراء هذا الشاب كل الفيران التى فى البيوت . ونزل بها إلى النهر ولم يخرج حتى ماتت !

ويقال أيضا إن هذا الشاب من مدينة هاملان الألمانية قد راح ينفخ فى الناى فخرج وراءه كل الأطفال الصغار عندما كان الطاعون يجتاح هذه المدينة ، فجاء خروج الأطفال نجاة لهم من الموت . . ولكننا لم نعرف حتى الآن أين ذهب هؤلاء الأطفال !

هل حدث ؟ هل هو حلم ؟ هل انتظار لمعجزة قديمة أن تظهر من جديد . . وأن يكون المفكر هو صاحب المعجزة والقادر على إخراج الشرور من النفوس والخلل من الإدارة ، والمرض من الأجسام والفقر من البيوت بمجرد أن ينفخ فى مزماره ؟ ياليت !

وفى مصر رفع توفيق الحكيم شعار : انظر وراءك فى سخط ، وأمامك فى يأس !

إذن هو يائس من أى حل . . هو . . وجيله غير قادرين على الحل . وليس جيله فقط وجيلنا نحن أيضا .

وكانت كل هذه المعانى والمخاوف تدور بيننا وحولنا وتخنقنا ونتحلل منها . . ولكنها هناك . . كما أننا نحن أيضا كنا هناك وما نزال . .

ولم نكن نعرف اسما لهذا الذى نعانيه ، حتى ظهر كتاب فى العراق من ترجمة الأديب انيس زكى حسن . الكتاب اسمه (اللامنتمى) من تأليف

الأديب الساخط كولين ويلسون . وقد اختار أنيس زكى حسن كلمة اللامنتمى ترجمة لكلمة الغريب . . أو الخارج عن وضع . . أو الذى لا يدخل فى إطار . . فنحن أمام أية قضية وأية نظرية :

إما داخلون فيها . .

أو خارجون عنها وعليها

أو متسللون إليها . .

والداخلون هم المؤمنون ، والخارجون هم المعارضون أو المتشككون . . والمتسللون هم الانتهازيون . .

لقد وجدناها . . وجدنا الكلمة التى تنطبق على حالنا . . ومازلنا حتى الآن نبحث عن إجابة لها .

وقد قرأت أخيراً مشروعا تقدم به اتحاد الصناعات المصرية عنوانه : رؤية عن تصور اتحاد الصناعات المصرية . وهذا التقرير مكتوب بعبارة علمية قوية قاطعة . . والتساؤلات كلها عن معنى الهوية المصرية العربية . . أو معنى الانتماء . .

وأنا أنقل بعض هذا الكلام البديع والتساؤلات العميقة . . ورغم أنها قديمة ، فلا تزال حية تسعى بيننا لأنها لم تجد حلا حتى الآن .

يقول تقرير اتحاد الصناعات المصرية فى أجمل نص ظهر حتى الآن :

وتدور الإجابة على هذا السؤال حول ما يسمى « قضية الهوية السياسية» (أو الذاتية الحضارية) .

وتتمثل مشكلة تحديد الهوية الحضارية فى تحديد أو تعريف الذات . وتكمن أهمية هذه المشكلة فى أنها تضع (الأنا) فى مواجهة الآخر وحتى

يمكـن تحديـد الهوية لا بـدمـن تحديـد عـلاقات الأشخـاص تشـابهاتهم واختلافاتهم مع الآخرين ، ومدى انتمائهم إليهم أو بعدهم عنهم .

وتتلخـص هـذه الأزمة فى التخطيـط الشـديـد عند اختيـار النمـوذج الحضارى الـذى تنشده الجماعة السيـاسية فى الإحيـاء القومى والتحـديث الحضارى والتنميـة الشاملة . وهناك على السـاحة نماذج وأفكار مطـروحة ومتناقضة ، ابتداء من النموذج الكمالى التركـى فى اختيار التغريب الكامل وانتهاء بإدانـة مجتمعنا الحالى باعتباره مجتمعا جاهليـا ينبغى تكفيره وهجره ونبذ أساليبه فى الحياة .

غير أن طرح قضية الأصالة والمعاصرة على شكل بدائل ثلاث هى :

التمسك بالأصالة ، أو السير فى طريـق المعاصرة ، أو القيام بمحاولة توفيقيـة بالجمـع بين الاثنتين ، يثير إشكالات تزيـد من تعقيـد القضية . وتجعل الوصول إلى رأى حاسم فيهـا أمرا يكاد يكون مستحيلا ، لذا اقترح بعـض المفكريـن صيغـة أخـرى تقضى على هـذا التـداخـل وهى صيغـة (الاتباع أو الإبداع) بمعنى أن الإشكال الحضارى الذى نواجهه هو : هل نظل إلى الأبـد مقلديـن محاكين (سواء لأجـدادنا أو لـلأجانـب) نسايـر الآخرين ونمسك بـذيل تطور لم نصنعه ، أم نصبح مبدعين نبتكـر حلولنا الخاصة ونقف ندا للآخرين بأفكـارنا الخلاقة وهو نفس السلوك السياسى لبعض الأقطار الـذى يتراوح بين الانغلاق الداخلى والتطرف العـدوانى . وهذا فضـلا عن الإحسـاس بالقصـور والعجز والضعـف وعدم التكـافؤ وتزايد الإحساس بعدم الثقة فى العالم المحيط .

وتكمن جذوز أزمة الذاتية فى عدة عوامل من أبرزها السيطرة وما تلاها مـن تبعية ومـا يترتب عليهـا من تشـويه اقتصـادى وحضارى ونفسـى .

وكذلك تعميق التبعية بمعنى كثافة الاعتماد على القوى الخارجية لتحقيق الأهداف الوطنية .

وأيضا شدة الاعتماد من جانب الشعوب على حكوماتها لتحقيق الآمال الجماهيرية فضلا عن النظرة الأحادية للأمور ، بمعنى أن كافة الأشياء والظواهر والمواقف هى فى أنظارنا إما أبيض وإما أسود ولا وسط مما يضيع نسبية الحقائق والأحكام ويدفع إلى التعصب والتطرف وعدم القبول بالحلول الوسط .

ويمكن أن نميز بين أربع هويات يتأرجح بينها الشباب المصرى وهى الهوية القطرية المصرية ، والهوية القومية العربية ، والهوية الدينية الإسلامية ، والهوية الإنسانية العالمية .

وأزمة الهوية السياسية الثقافية لدى شباب مصر ينبغى أن تثير القلق والانزعاج لدينا ، ولكن لاينبغى أن تثير الذعر ، لأننا نشترك فيها مع معظم دول المعمورة .

أما وجه القلق فيها فيكمن فى الخطوة التى تترتب على عدم حسمها والتى تتلخص فى تأخيرنا عن اللحاق بقطار العالمية السريع الذى يجب أن نأخذ فيه مكانا مناسبا .

والحل المنشود قد يكون غير تقليدى ومبتكراً ، فلا يجوز أن نظل واقفين نتعارك على الرصيف وندع القطار يفوتنا ، وإنما الحل هو أن نركب القطار ولا بأس من الجدل داخله ــ إذا كان لابد ـ حتى نتمكن من توجيه مساره ومواجهة التحديات القادمة .

ثم ماذا نريد ؟

عن السؤال . . من نحن ومن نكون ؟ أجبنا ما خلاصته أننا مصريون (بالوطن) ثقافتنا عربية وننتمى إلى الحضارة الإسلامية . فالشخصية المصرية واضحة الخصائص شاركت فى نسجها روافد تاريخية فرعونية وقبطية بل وحتى بحر متوسطية فى وعاء افريقى ، الأمر الذى أكد فى النهاية الوجه العالمى بقسماته الإنسانية للهوية الوطنية المصرية .

نجىء إلى إجابة السؤال الثانى ، الذى هو بدوره مركب من العديد من التساؤلات والاستفسارات وعلامات الاستفهام .

أبرزها مثلا ، ماهى أهداف الدولة ؟ وماهى غايات المجتمع ؟ باعتبار أن الدولة تعبر عن المجتمع من حيث تصميم الأهداف العليا والغايات النهائية للجماعة القومية .

إذ يحق لنا أن نتساءل عن أهم الغايات والأهداف المطروحة على ساحة الاختيار تمهيدا لترتيبها حسب الأولوية من خلال الحوار الوطنى .

ولنحصر اهتمامنا فى دائرة أضيق حتى لا تتشعب البدائل بين الاختيارات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والثقافية . . الخ

فإننا سنعتمد فى هذا المقام على حصر هذه الغايات من الزاوية الاقتصادية حيث إن المعيار الاقتصادى هو المعيار الحاسم فى اختيار عالمنا المعاصر على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية .

خلاصة القول إنه من المفيد رصد عدة أهداف عليا ترنو الدول ـ بصفة عامة ـ إلى تحقيق أحدها أو بعضها . علما بأن هذه الأهداف بطبيعتها قد تكون متكاملة فى المدى الطويل ، ولكنها فى المدى القصير ـ تحت ضغط الوقت وبفعل التزاحم على جذب وتخصيص الموارد ، تصبح متنافسة فيما

بينها الأمر الـذى يملى على المناقشة العامـة وعملية صنع القرار أن تـركز فى اختيارها على اثنين أو واحد من هذه الأهداف ليحظى بأولوية مطلقة . .

انتهى التقرير . ولم ينشر . فلا تزال الأسئلة فى أقوى صورها . ولا تزال هذه التسـاؤلات مشكلات قـوية . . يجب أن تجيـب عنها الـدولة ونحـن أيضا . فبغيرها سـوف يبقى كل شىء معلقـا بلا حل . . وكأننـا قد رسمنا لأنفسنا المشكلة والطريق والهدف . ولم نفعل أكثر من ذلك . فالذى يضع السـؤال ليـس هـو دائما الأقدر على الحل ، وليـس الأقـدر على الحل هـو الأقدر على الفهم . أو الذى يتعجل الحل !

إن ما قدمه اتحاد الصناعات المصرية هو أروع صورة لأبشع أزمة مصرية

سؤال هام جدا : ولكـن أين تذهب الروشتات التـى يكتبها الأطباء أو هواة الطب ؟

إننا دائما أمام : مريض وطبيب ودواء ؟

أى أنه فى كل مرة يمرض إنسان نجد الطبيب الذى يشخص الداء . . ونجد الدواء أيضـا . . ووجود الدواء ليس معناه الشفاء . فـالشفاء يحتاج إلى وقت ، ويحتاج قبـل ذلك إلى تشخيص دقيق . . ويحتـاج إلى أن يتقبل المريض مرارة الداء والدواء حتى يتحقق له الشفاء . .

فكما أن هنـاك إرادة العلاج فهنـاك أيضا إرادة الشفـاء عند المريـض . والأطباء يقـولون إن إرادة الشفـاء عند المريـض هى منتصـف الطريـق إلى العلاج .

وكثيرا ما فشل الدواء فى العلاج لأن المريـض لا يريد الدواء ، ولا يهمه الشفـاء . . أو أنـه يريـد أن يبقـى مـريضا . وهـذه مـرحلـة من مـراحـل الانتحار . . وهى منتشرة عند أناس كثيرين . .

سـؤال : هل الـذيـن يكتبون الـروشتات يكـونـون من الأطبـاء دائما ؟
الجواب : لا . .

فهنـاك أنـاس يتطـوعـون لعلاج النـاس . وليسـوا أطبـاء . وإنما هـم أصحاب تجربة وجرأة .

وكـان الزعيـم السيـاسى تشرشـل مـن هواة تشخيـص الـداء وكتابـة الروشتات . وكاد يـروح أيزنهاور ضحية له . . ففى الحرب العالميـة الثانية كان ايزنهاور يشكـو من الإسهال الشديـد . . والتاريخ يحكى لنـا حكاية تشرشل الـذى كان يجلـس على (القصرية) عنـدما جـاء خبر أن الطيران اليـابانـى قد أغـرق الأسطول الأمـريكـى فى ميناء (بيرل هـاربور) فكـان تشرشل يقوم ويقعـد فوق (القصرية) سعيدا يقـول : الآن سوف أنام . . الآن سـوف أنام طـويلا وعميقـا . . أمـريكا دخلـت الحرب . . أمريكـا دخلت الحرب ! !

ودخلـت أمريكـا الحرب ونام تشرشـل كما أراد . . واتصـل بايـزنهاور ينصحه بأن يتعاطى دواء معينا . . فهذا الدواء هو الحل الوحيد . .

وتنـاول ايزنهاور الـدواء . . وكـان الـدواء لمعالجة الإمسـاك . . وكـان ايـزنهاور يشكو مـن الإسهـال الشديـد . . فساءت حـالـة ايزنهاور وكـاد يموت !

وفى مذكـرات لورد مـوران طبيب تشرشـل الخاص كتب يقـول : إننى أواجه نـوعين من الأمراض : أحـدهما أستطيع علاجـه . . أما الثانـى فلا علاج لـه عندى : المرض الأول هـو ما يشكـو منه تشرشـل . . أما المرض الثانى فهو تشرشل نفسه الذى يصر على أن يكون طبيبا !

ولما مات الأستاذ العقاد كتبت أقول : إن العقاد الطبيب هو الذى قتل العقاد الأديب !

فكان العقاد يصف الدواء لنفسه . . ولما ذهبت إليه مع صديقى الجراح الكبير د . جمال بحيرى . . كان العقاد يستعرض الأدوية التى تناولها . وكان د . بحيرى لا يرد ولا يعلق بشىء . ولما خرج من بيت العقاد سألت الدكتور : ما رأيك فيما قال العقاد .

قال د . بحيرى : إنه أحسن من أى طبيب متخصص . . ولكنه يجب أن يحترم تخصص الأطباء .

ولكن العقاد لم يحترم الطب والأطباء . . فكان موته عقوبة يستحقها هواة الطب حتى لو كانوا من طراز تشرشل أو العقاد ؟

ولا يوجد تخصص اسمه (الإصلاح) ولا يوجد تخصص اسمه رؤية المستقبل . . فكل إنسان يريد أن يصلح نفسه وأن يرسم مستقبله . .

كلنا ذلك الرجل فى أى وقت وفى أى مكان .

ولذلك تعددت برامج الإصلاح الاجتماعى والسياسى والأخلاقى . .

والذين هم أكبر سنا يرون أن هذا حق لهم . . أليسوا أكبر ؟ أليسوا أسبق ؟ فلا يوجد أب أو أم الا ارتدى ولو خمس مرات فى كل يوم مسوح رجال الدين والسياسة والاقتصاد وراح ينصح أبناءه الصغار وأولاده وكل الناس . هل هم مخلصون فى ذلك ؟ الجواب : نعم . . إنهم مخلصون .

سؤال : هل يكفى أن يكون الإنسان مخلصا ليصبح من حقه الدعوة إلى الإصلاح بكل معانيه ؟ الجواب : لا . . فليس أصدق من الأم ولا أرق من مشاعرها . . ولكن هذا الصدق وهذه الرقة وهذا الحب هو الذى يجعلها

تعطى لابنها المريض كل الذى حرَّمه الطبيب . . وقد يموت الابن . ولكن الأم حسنة النية شديدة الحب لابنها . . ويصدق عليه قول الشاعر : ومن الحب ما قتل ! . .

اجلس إلى مجموعة من الناس وأعطهم أذنيك دقيقة أو اثنتين فسوف تسمع إلى عشرين شكوى وإلى مائة طريقة للعلاج . . وكل هذه روشتات مكتوبة باللسان على الهواء . . فكلهم أطباء وكلهم صيادلة وكلهم أنبياء . . ولكنهم أنبياء لا تؤيدهم السماء ، ولم ترشحهم الأرض . . وكلامهم كما أصبح صوتا صار صدى !

وفى نفس الوقت عندنا هيئات كبرى ترسم وتخطط بأقلام العلماء . وكأنهم لا قالوا ولا كتبوا ولا درسوا ، وإنما يصيبهم مرض عجيب . . هذا المرض هو أن كل ورقة يلمسونها تتحول من ورقة مطبوعة إلى ورقة بيضاء خالية تماما . .

عندك المجالس القومية المتخصصة . . بها مئات البحوث العلمية الجادة . . هذه البحوث حصيلة تجارب ودراسات وعلوم وفنون . . وهذه الأبحاث تتكدس وتتكوم وتتآكل ويأكل بعضها البعض . . فبقدرة قادر تتحول النقط فوق الحروف إلى نوع من السوس يأكل الحروف . . ولا من شاف ولا من درى !

أعظم إهدار للقوى البشرية وللعقول العالمة وللنيات الطيبة لإصلاح كل خلل وتقويم كل اعوجاج فى الفكر فى مصر !

ومقررا ت (لجنة الخدمات) فى مجلس الشورى التى يرأسها د . محمود محفوظ قدمت تقارير رائعة . التقارير مطبوعة . وكنت قد اقترحت على

د . محفوظ أن نطبعها فى كتب بأسعار رخيصة ، وأن نطرحها فى السوق لعامة الناس . ولكن هذه التقارير البديعة تلقى مالا تستحقه من الإهمال .

وتقارير (لجنة الشئون العربية) والتى أتشرف بعضويتها ويرأسها العالم الجليل د . مفيد شهاب ، تضم أحسن ما يقال عرضا وتحليلا لكل مشاكل الأمن الوطنى والأمن القومى ، ترى حلولا لكثير من الأزمات والمعضلات السياسية فى زماننا . .

والشاعر القديم يقول : إننا نتحدث إلى الموتى فلا أحد يسمعنا . يقول :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى !

فنحن هو هذا الميت الذى لا يسمع النداء . . إنه أنت وأنا وهو وهى وهم وهن وكلنا . السؤال : لماذا نحن هكذا موتى أو كأننا كذلك ؟

لأننا لا نريد الشفاء مما نحن فيه .

سؤال : كيف لا نريد الشفاء ونحن لا نكف عن الشكوى من الداء ؟

الجواب : لأننا نجد اللذة فى الشكوى ولا نجد الراحة فى البكاء . . ونرى أن اليأس هو نوع من الموت . . والموت إحدى الراحتين !

سؤال : هل نحن متنا ؟ هل مصر تجاوزت عمرها الافتراضى ونحن نسبح فى زمنها الضائع ؟

الجواب : ليس صحيحا . وإنما الذى يقول ذلك هو الذى لا يريد أن يعترف بأنه مريض . وهو الذى لا يعترف بالطب . . وهو الذى يرى أنه لا أمل فى الشفاء . وإذا كان شفاء فهو مسئولية جيل آخر . . ليس جيلنا .

والسؤال : هل هذا صحيح ؟

الجواب : ليس صحيحا . فنحن لم نمت . وسوف تجىء أجيال من بعدنا تلعننا . . إن لم تكن تلعننا الآن . . لأننا نفرض على الأجيال القادمة يأسنا وقرفنا وزهقنا . . ونفرض على الحاضر ماضينا ، وعلى المستقبل ماضينا أيضا . . فكأننا نضحى بالحاضر والمستقبل حتى لا يكون لنا دور . . وحتى لا نبذل جهدا أكبر فى علاج ما خلقته أيدينا . . وأغرقنا فيه أولادنا وبناتنا .

سؤال : هل نحن لا نصلح لهذا الدور ، دور إصلاح الذى أفسدناه وتقويم الذى التوى بنا وفى أيدينا وفى أقدامنا ؟

الجواب : بل نصلح . قد أصلحنا غيرنا وبدلناه ، ولكن نحن لم نحسن الدعاية إلى الذى قمنا به . لقد أنشأنا مدنا جديدة وصناعات ضخمة . وأنشأنا جامعات . . وعندنا عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء والفنانين . . وكل الذى ينقصنا هو أن نحترم أنفسنا . . ومن لايحترم نفسه يحتقره الناس . فكل نقصنا هو (القدوة) . فإذا ظهر من هو قدوة سرنا وراءه باحترام . . وتحولنا جميعا إلى نماذج . . وأصبح السير وراءنا واجبا . . وأصبح الواجب قوة يحميها القانون . وموقف القانون أنه : حق تحميه قوة . . فالقانون هو الإصلاح ، وهو من حق كل الناس على كل الناس . ويجب أن نحمى الإصلاح بالسلاح . . بالعقاب والثواب ـ أرجو أن نكرر هاتين الكلمتين عشرين مرة يوميا . لأن القانون فى بلادنا قد مات وشبع موتا ، لأنه لا يخيف أحدا . فهو بلا قوة . . فهو كالبيوت بلا أبواب ولا نوافذ ولا مفاتيح ولا أقفال ولا فرامل !

كان استاذنا العظيم الفيلسوف ابن سينا طبيبا أيضا . . حكيما أى يجمع العلم والتجربة . قادرا على التشخيص والعلاج . كان ابن سينا إذا

جلس إلى مـريض طلـب أن يجيء أهله ويجلسوا إليـه أيضا . وكـان يسأل المريض عـن أوجاعـه . وكان المريض يقـول وأهله يصححـون أخطاءه أو يحاولـون أن يفشـوا أسراره . . وكـان المريض يتكلـم أمـام زوجتـه وأولاده وأبويه . . وكان ابن سينا يرى أن المريض يجب ألا يكذب على الطبيب . . وأن يتعهد أمـام أهله بأن ينفـذ تعليمات الطبيب . . وأن يشعـر أن شفاءه عـلاج لأوجاع الأسرة لأنـه أب وزوج وابن . . فهـو إذا مـرض : فالـزوج والأب والابن والأخ قد مرضوا . . وإذا شفى فكل هؤلاء قد عرفوا الشفاء !

وكان ابن سينـا سابقا لزمـانه وأوانه . وكان التشخيـص نفسيا جسميا اجتماعيا اقتصاديا فى وقت واحد . وهـو كذلك لأن الأمراض هى جسمية نفسية اجتماعية أخلاقية اقتصادية . . أى سياسية . لأن السياسة هى علم وفن تنظيم العلاقات الإنسانية !

فما الذى تفعله دولة مثل أمريكا ؟ أو مثل ألمانيا أو اليابان ؟

أكـرر مـرة أخرى : إن الـدولـة ، أيـة دولـة ، غير قادرة وحـدهـا على النهوض بأعباء الحكم . . وتطبيق القـانون ونشر الأمن الغذائى والصحى والتوازن الاجتماعـى وحشد الشعـوب فى كبسولة المستقبـل . ولذلـك فإن الدولة تلجـأ إلى المؤسسات العلمية الكبرى . وتقدم لها مبلغـا من المال . وتطلب إليهـا حل مشكلـة من المشـاكل . وتعكـف المؤسسة الكبرى على البحث . . وبعد سنة أو سنتين تتقدم لها بالحل والعلاج .

فكل مصـائب الشرق الأوسط السياسية والعسكـرية والاقتصاديـة قد تفرغـت لها هيئات علمية . وقـدمت نتائج أبحـاثها إلى الحكومـة . . وقد ذكـرت قبل اليـوم مشروع حـل أزمـة الشرق الأوسط . . وقلـت إن معهـد بروكنجز العظيم الاحترام هو الذى قدم الحل . وكانت مجلة (أكتوبر) أول

من نشر التقـرير مـن ترجمة الزميـل عبد العظيـم حماد . وذكرت أن المشير الجمسى نادانى على سلم طائرة الرئيس السادات وطلب منى أن ألفت نظر الرئيس إلى ذلك . وكانت مفاجـأة . فقد كان الرئيس السادات يتصور أن التقرير سرى بين أمريكا ومصر وإسرائيـل . . وقال لى الرئيس السادات : إنه نفس التقرير الذى تلقاه !

إذن فهذا المعهد العلمى الخطير عندمـا بحث وحلل وقدم العلاج ، لم يكن ذلك تقريرا سريا ، وإنما تقرير يجب أن يعرفه العالم كله . . فمشكلة السـلام والحرب مشكلة تهم مئـات الملايين فى أمـريكا وفى أوربـا والشرق الأوسط .

وهذا التقرير الذى قدمه (اتحاد الصناعات) إلى لجنة (الحوار الوطنى) لم يشر إليه أحـد لا من قريب ولا مـن بعيد ، ولن يفعل . . ونحـن نعرف مقـر ومستقر هـذا التقريـر وعشرات غيره . إنـه قد استقـر على الأرض فى مكان ما . . فى انتظـار طبقات من التراب تردمـه وتدفنه . ومعه كـل أمل عاجل فى إصلاح داء قديم . . وكما أن الدود يتولد فى أجسام الموتى أى أن الحياة تـولد فى الأجسام الميتـة لتقضى عليها فـلا تكون شيئا . . وبعـدها تـأكل الـديدان بعضهـا حتى لا يبقـى منها شـىء ، فكذلـك مثل هـذه الروشتات الأنيقة الجميلة العبارة . . ولا فرق بين أكفان من الحرير وأكفان من الخيـش . . فهى تضم تنفيذ حكـم الإعدام فى حى ما كـان ينبغى أن يموت .

وموت التقارير بأفكارها السخيفة كموت التقارير بأفكارها الجميلة . وشاعرنا شوقى يقول :

إذا مـا نفقـت ومـات الحمار   أبينـك فـرق وبين الحمار ؟

لا والله يا أمير الشعراء

وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .. لأننا نرفض الداء ، ونرفض الدواء .. ونلعن الظروف التى هى سبب كل شىء ؟ !

يقول الشاعر القديم :

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

وندوس كل هذا الذى قلت وقاله غيرى وسوف يقوله آخرون بمظاهرة صوتية تقول :

المصريين اهمه .. الخ الكلام الذى لا معنى له إلا فى رءوس الحشاشين .. ونحن ـ مع الأسف الشديد ـ شىء من ذلك !

عندما عاشت الأبقار فوق الأشجار .. ولا تزال ؟!

سوف يدخل تقرير (اتحاد الصناعات المصرية) فى ملفات الفلسفة . . أو الأدب الهادف . . أو التشخيص العلمى لكل مشاكل الشباب فى المجتمع المصرى الحديث . . فلم نقرأ أحسن ولا أروع ـ من الروعة والترويع ـ من هذا التقرير . .

ولكن الأدباء كان لهم موقف آخر . . أسبق . . ولكنه موقف أدبى فلسفى نفسى . . ولم يكن لدى أى أحد وسيلة للعلاج . . ولا حتى رغبة . . فالأديب أو المفكر يكشف ويكتشف ولكنه لا يستطيع أن يداوى . . فليس طبيبا . . أو إذا كان طبيبا فهو يقدم التشخيص السابق على العلاج . . أو هو أقرب إلى الطب الوقائى منه إلى الطب العلاجى . .

وانتظرنا لكى نعرف من نحن وأين نحن . . وجاءنا الفرج . . أو جاءتنا العدسات والميكروسكوبات من فرنسا . . عندما ظهرت مسرحيات (العبث) على المسرح المصرى . . مسرحيات يونسكو وبيكيت وارابال وغيرهم . .

المسرحيات كلها تتحدث عن واقع المجتمع الفرنسى أو الأوروبى بعد الحرب العالمية الثانية . . عندما أحس الناس جميعا بخيبة الأمل . .

فقد انهارت الحضارة الأوروبية بسبب التعصب المذهبى للشيوعية والنازية والفاشية . . فهدمت كل شىء على دماغ الإنسان وعلى كل آماله فى الحياة الأفضل والسلام الأشمل . . وأحس الناس أنهم غرباء عن أوروبا . . عن تاريخهم عن حضارتهم عن مجدهم عن كبريائهم . .

وأحس الناس أيضا أنهم غير قادرين على الحوار معا . . فليست كل الكلمات التى يتداولونها ذات معنى واحد . . تماما كما يفاجأ الناس بأن العملات التى يتداولونها ليست لها قيمة واحدة معروفة . . وأن الموازين والمكاييل كلها تغيرت دون إخطار سابق . . وهكذا يتوقف البيع والشراء . ويتوقف الحوار بين الناس !

والناس يجلسون معا وليسوا معا . . فكل واحد فى حاله ولا يريد أن يشرك غيره أو يشاركه . . فلا جدوى من الحوار . والحوار لا جدوى له . لأننا لم نتفق على معانى المفردات المستخدمة . . وتحمس الناس فى مصر لمسرح (العبث) . . لأنه صورة صادقة لما يعانيه الناس . والمثقفون بصفة خاصة . . فهم يذهبون إلى المسرح قرفانين ويزدادون قرفا . . لأن المسرح يصور أعماقهم وفشلهم وعجزهم ويأسهم من أن يكون هناك حل . . خلاص من أى شىء !

وفجأة أصدر توفيق الحكيم مسرحية (يا طالع الشجرة) . . والعنوان مأخوذ من أغنية شعبية عبثية لا معقولة لا منطقية ككثير من قصص ألف ليلة وليلة وأساطير الإلياذة والأوديسة الإغريقية و (ملحمة قلقامش) البابلية . . الأغنية تقول :

يا طالع الشجرة ، هات لى معاك بقرة ، تحلب وتسقينى ، بالمعلقة الصينى . .

فالبقرة فوق الشجرة ، نحلبها ونسقى منها بالملعقة الصينية . . فنقول: ليس معقولا طبعا . ولكن اللامعقول هو المعقول فى ذلك الوقت . .

وظهرت مسرحيات عربية أخرى بعد مسرحية توفيق الحكيم ومسرحيات العبث الفرنسى والاسبانى والألمانى . .

ومثل كل موضة أدبية ، اختفى العبث عن مسارحنا ، واستمر العبث بين الناس والعبث معناه الفلسفى : انعدام المعنى . . إحساس الإنسان بأنه لا جدى من شىء . . لا أمل . . لا فائدة . . الدوران فى ساقية . . لا الساقية فيها ماء ، ولا الثور الدائر قد توقف . . ولا نحن مللنا هذه الصورة لأعماقنا النفسية والفكرية والسياسية أيضا .

وكان العبث على مسارحنا حزينا كئيباً . فليس مما يسعد الإنسان أن يرى خيبة أمله . . وعجزه عن النهوض . . وإذا نهض فليس هناك هدف . . ومادام لا هدف ، فكل الطرق والسبل والحلول سواء

أما لماذا البقرة فوق الشجرة ؟

فلا نعرف . ولكننا نحن الذين خلقنا هذا الوهم ، ثم جعلناه صعبا إذا صعدنا إليه . . فالصورة من وهمنا ، والصعوبة من صنعنا . ووقفنا نتفرج على ذلك !

ثم وجدنا حلا . .

الحل هو المسرح الكوميدى . . المسرح الهزلى . ففى المسارح الكوميدية ، سخرية سوداء من حياتنا ـ سخرية عنيفة . الناس يدفعون فيها غاليا ويضحكون . . ولما قال لنا أستاذنا العظيم ارسطو : إن المسرح صورة للمجتمع . . وعلاج له أيضا . . لأننا عندما نضحك على عيوب

الإنسان على المسرح ، فنحن نضحك على أنفسنا . . وعن طريق الضحك على أنفسنا يكون علاجنا من الخجل والجبن والعبط !

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا . نحن نضحك فعلا على أنفسنا . ويسعدنا أن نجد الفن المسرحى قد نجح فى ذلك .

ولكن بعد أن نخرج من المسرح ننسى كل ذلك . ننسى أن المسرح كان يعالجنا بالصدمات الفكاهية . ولكن نكتفى بأن المسرح قد هزنا ولم يوقظنا ، أو جعنا ولم يعالجنا ، فضحنا ولم يخجلنا !

ومعنى ذلك : أنه لا معنى للمسرح ولا معنى لما يقول . ولا معنى لأن نذهب غير أن نضحك والسلام .

فأكمل المسرح الهزلى صورة العبث ولكن بصورة ضاحكة .

وفى الحالتين : لا علاج وإنما استمرار فى اللامعنى واللاهدف واللاحل . . واللامبالاة واللامنتمى !

لقد عايشنا فى هذا العصر أعظم انتصار وأعظم هزيمة . . كانت الشيوعية أعظم انتصار حققته نظرية . . تماما كرسالات الأنبياء . . لولا أن الشيوعية لا نبى لها ولا رب !

وشهدنا أعظم هزيمة للشيوعية عندما تساقط الاتحاد السوفيتى . . وانهار على نفسه . . وهربت من قبضته كل الأقليات العرقية والدينية . . وتحررت أيضا . وأقامت لنفسها ماكانت تحلم به من دول مستقلة حرة - رغم الجوع ونقص التجربة والخوف . .تفككت روسيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا . .

ومن المؤكد أن الحرب العالمية الأولى أقامت الشيوعية ، وجاءت الحرب العالمية الثانية وهزمت النازية والفاشية ودعمت الشيوعية مرة أخرى . .

ولكن جاء جورباتشوف أراد أن يصلح الشيوعية من داخلها ففشل . وكان فشله أعظم انتصار للمنطق . . منطق العجز . . وقد أنهى

الشيوعية والنظم الحديدية التى أذابت الفوارق بين الناس بالظلم والقهر والسجن . .

وانتهت الحرب الباردة . .

وفى داخل روسيا محاولات عنيفة للثأر وإرجاع عجلات التاريخ إلى الوراء . . والعالم كله يقف مرة أخرى ضد المحاولات المتطرفة فى روسيا والدول الشيوعية سابقا . .

انهارت الدولة الكبرى . . وتكسرت وانهارت وتباعدت أطرافها . . ولفها الجوع والفوضى وأهدرت كبرياؤها فى كل أرض .

والأحلاف التى كانت ضد الاتحاد السوفيتى ، دخلها الاتحاد السوفيتى . . فكأن هذه الأحلاف لجنة تأديبية وكأنها (المطهر) الذى وصفه لنا الشاعر الإيطالى دانتى . . أى المطهر الذى يسبق دخول الجنة

ولا أحد يعرف الآن من هو العدو . . العدو القديم لم يصبح عدوا . . والصديق الجديد ليس صديقا ، وإنما هو عدو تحت التمرين . .

فهل ما زلنا نبحث عن المؤلف الذى تحدث عنه الرئيس عبد الناصر . لقد قال : إنه وزملاءه ضباط الثورة كانوا مثل ست شخصيات تبحث عن مؤلف ـ وهى المسرحية الهزلية العبثية التى ألفها الأديب الإيطالى العظيم بيراندللو . .

ولكن الرئيس عبد الناصر وجد مؤلفا ينظم أفكاره ويرتبها ويدفع الجميع إلى السير بمقتضاها . وكان المؤلف ركيكا . . والنظرية هزيلة . . ووقع فى تطبيقها الكثير ـ أقصد هل الشعب يدفع الكثير جدا ثمنا للركاكة الفكرية . . والهزال الفلسفى والعلاج الذى كان أقسى من المرض فعلى الرغم من نصر أكتوبر ، لم ننهض بعد من هزيمة يونيو . .

فهل بعد كل هذا مانزال نبحث عن المؤلف . .

بلاش المؤلف الواحد . . فلنقل إننا نبحث عن نظرية . . عن خطة عمل واضحة قوية ملزمة لكل الناس بلا استثناء . .

صورة محزنة جدا أن نرى مصر بلا نظرية . . لايوجد حزب واحد له نظرية . . وكل الأحزاب قد خرجت من جيب الحكومة . . وأكثرها لايزال يعيش على (جيب) الحكومة . ولايزال يقبع فى جيبها . . ولو قفز منها صار كالسمكة التى قفزت من ماء يغلى إلى الموقد الذى تحتها !

أى لابد من نوح . . إن لم يكن فواحد مثله . . بأفكاره العملية . . لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . .

فمن الضحية ؟ الشباب ؟

ومن القاتل ؟ كلنا

وما الحل ؟ تشخيص دقيق وهو نصف العلاج . . ثم العلاج . ولا علاج مؤكد لأى مرض . . ولكن بعض العلاج لبعض المرض . . والباقى يجىء مع الغد وما بعد الغد . .

هل هذا حال مصر وحدها ؟

حال الدنيا كلها .

ولكن المهم : أن نقرر وأن نعزم وأن نحسم . لا شخص واحد ولكن كل الأشخاص . . أصحاب الرأى وأصحاب القرار . .

ويجب ألا ننسى أن الإنسان الذى كان خاضعا لكل عوامل الطبيعة والضعف الإنسانى ، قد تمكن بالعلم الحديث أن يتحرر من كل ذلك . . ولكن تبدو عليه الآن كل صفات العبد الذى صار سيدا . أى حديث العهد بالحرية . . فهو (محدث) حرية وكبرياء . .

وسوف أعود إلى هذه القضايا كلها فى أضواء أخرى أملا فى حل ـ بعض الحلول لبعض المشاكل . .

أعود مرة أخرى إلى أبرز نشاط فكرى فى مصر : المسرح . . والمسرح الكوميدى . . وكل المسرحيات كوميدية .

وليست هذه ميزة فى المسرح وإنما هى عيب كبير . . فالمسرح الكوميدى يسخر من كل عيوبنا وسلبياتنا ونواقصنا . وهذه طبيعة المسرح الكوميدى . .

ولكن المسرح لا يعالج مرضا ، لانه لا يشخص داء . . وإنما هو فقط يلف حول العيوب ويتفنن المؤلفون فى تجسيدها وإضحاكنا على ذ لك . .

وهناك اتفاق بين المتفرج والممثل . هذا الاتفاق يقول : لا أنا جاد فى الذى أقول . . ولا أنت جاد فى اعترافك بعيوبك . .

ومعنى ذلك : أننا جميعا سلبيون لا نريد حلا . .

وفى بعض المسرحيات هجوم على الوزراء وبالاسم . والناس يضحكون لان الذى يقوله الممثل هو بالضبط ما يقوله المتفرج . . ويشعر المتفرج بسعادة مضاعفة . . فهو قد رأى ما أضحكه ، وهو قد سمع ما كان يقوله هو نفسه فى البيت وفى المكتب . . فأفكاره ـ إذن ـ مثل أفكار المؤلفين والممثلين ! وهو لذلك يجد نفسه على المسرح : أفكاره وغضبه ويأسه . وهو بذلك يطمئن على حالته العقلية . . فكأن المتفرج ذهب إلى المسرح ليتأكد من سلامة تفكيره . وقد أكد له المسرح ذلك !

ويقال إن أحد أبناء الصعيد قد فاز بلقب البكوية . . فالناس ينادونه ياسعادة البيك أو البيه . . وقرر أن يذهب إلى أقاربه فى القاهرة ليعرفهم بأنه قد منحه الملك لقب بك . . ولما نزل إلى محطة القاهرة التف حوله الشيالون يقولون : شيال يا بيه . . شيال يا سعادة البيه !

وهنا قرر الرجل أن يعود إلى الصعيد فقد تأكد من أن مصر كلها عرفت أنه أصبح « بيك » ألم يقل الشيال يا سعادة البيك .

وكذلك رواد المسارح الآن تأكدوا أن المسارح صورة من أفكارهم السلبية وغضبهم العقيم . واطمأنوا بعد أن دفعوا الثمن الغالى للتذاكر وعادوا إلى بيوتهم سعداء . . مع أنهم لا سمعوا تشخيصا ، ولا علاجا لاى داء سياسى أو اجتماعى فى مصر !

وطال عمر المسرح السلبى الفكاهى . . طال عمره لأننا أردناه كذلك . فهو سلبى مثلنا تماما .

وإذا حاول أحد أن يكون جادا فى التشخيص والعلاج ، فلا جمهور له . . فالناس لا يريدون وجع الدماغ ، ثم إنهم لايصدقون أحدا من الجادين من الأدباء أو الوزراء .

وهكذا حكمت الجماهير بالإعدام على روح الجد وروح النقد والرغبة فى الخلاص من السلبية . .

وظهرت بوادر الأمل . . ثم اختفت وتلاشت وهى فى طريقها إلى (مقابر العظماء) . . أى إلى النسيان . أقصد : الحوار الوطنى . . الذى معناه أن نفكر معا ونختلف ونتفق على (جدول أعمال) للغد وبعد الغد . . على (مسيرة) شعبية . . على (صيغة فكرية) . . على برمجة حياتنا لنهاية القرن . .

فنسأل أنفسنا ونجيب : ما هى أولويات الإصلاح ؟ أقول أنا : محو الأمية .

وماذا بعد ذلك ؟

تكثيف التعليم الفنى وتخفيف الحشود المتراصة على شبابيك الجامعات . . فليس من حق أى مواطن أن يدخل الجامعة إلا إذا حصل على مجموع ٩٠ ٪ فما بعدها . . لأن الدولة لا تستطيع أن تنفق على

عشرات الألوف من الطلبة الذين دللتهم حتى أفسدتهم فى جميع مراحل التعليم السابقة . . ولابد أن يتجه الطلبة غير المتفوقين إلى معاهد وكليات فنية بشروط أيضا .

وهكذا نناقش جميعا فى أخطر مشاكلنا وتشخيصها وتجسيمها وتحجيمها ثم معالجتها ـ وعندنا تجارب الشعوب التى تنورت شعبيا ثم سبقتنا كثيرا جدا ـ كاليابان مثلا . . لابد أن نواجه الهزل والمسخرة والتفاهة والهيافة فى كل وسائل الإعلام . . يجب أن نعيد للقراءة والكتاب مكانهما العظيم . .

يجب أن تكون الكتب أرخص حتى تصبح فى متناول كل الناس . فإذا كان الرغيف ضرورة حياة ، فالكتاب ضرورة حضارة . .

كيف تكون نهاية الحوار الذى يجب ألا يتوقف بين الساسة والمفكرين . . كيف نتفق على أن نختلف . . كيف نتفق على أن يكون الاختلاف جوهريا . . ثم أن نلتقى بعد ذلك ونتجه إلى الأمام بجماهيرنا وشبابنا ـ دون خوف من أحد !

مثلا : نحن تصورنا أو توهمنا أن حل مشاكل الشباب هو أن نعطيهم أرضا يزرعونها . لا بأس ولكن ماذا فعلنا ؟

أعطيناهم أرضا صغيرة . وأعطينا الأرض لمن لا يعرف شيئا عن زراعة الأرض . . فهناك فرق كبير بين الريفى والفلاح . . فالريفى هو الذى عاش فى الأقاليم خارج القاهرة . . وهو يملك أرضا ، ولكنه لم يمسك فأسا ولا بذر حبة ولا حصد ثمرة . . أما الفلاح فهو الذى أمسك الفأس وانحنى وانكسر على الأرض يزرع ويقلع ويسوق الأغنام ويحلب الأبقار ويبيع البيض والزبدة ليشترى المحراث والطلمبة .

هؤلاء الشباب ليست لهم خبرة بالزراعة والتجارة والصناعة . نقلناهم من المدينة إلى الصحراء . وفى الصحراء وقفوا حفاة عراة أمام القوى العاتية : البنوك والكهرباء والماء . . إن وجدوا الماء انقطعت الكهرباء وان وجدوا الكهرباء انسدت بنوك التسليف فى وجوههم . .

وإن أقاموا البيت والزريبة فإنهما يأكلان الأرض الضيقة التى حصلوا عليها . .

فكأننا بدلا من أن نخفف من غضب الشباب وسخطهم جعلناهم يتفرغون للغضب والسخط علينا . . أى أننا حولنا الساخطين الهواة إلى ساخطين محترفين !

فما الذى ينقصنا ؟

بصراحة ينقصنا (نوح) . . أو واحد مثل نوح . . أو طراز من الناس لهم نظرية . . لهم رسالة . . هذه النظرية هى (دليل العمل الوطنى) هى (برنامج التنوير الإصلاحى) .

يعنى عاوز ثورة ؟

بيضاء . . قلها ولا تخف . . ثورة كالتى قامت بها اليابان . . ثورة عرق . . بلا دموع ولا دماء . . وثورة اليابان كانت بسيطة جدا . هكذا : أحس الشعب اليابانى بوضوح أنه يجب أن يتعلم من غيره أى من أوروبا وأمريكا . وأنه لابد أن يبدأ الآن . . وأنه من المستحيل إرسال الشعب اليابانى كله إلى أوروبا وأمريكا . وأما العقل يقول : يجب أن يجىء بعض الخبراء من أوروبا وأمريكا وأن يتعلم منهم بعض اليابانيين . فإذا تعلم اليابانيون فى سنة أو سنتين . عاد الخبراء إلى بلادهم وانفرد الخبراء اليابانيون بالشعب اليابانى يعلمونه . . سنة وخمس سنوات وعشر سنوات . وبعد ذلك : الثورتان العلمية والعملية . . ولا تزال اليابان حتى اليوم تمضى فى ثورتها البيضاء التى هددت بها أمريكا وأوربا . .

ونحن ليس من آمالنا أن نهدد أحدا ، وإنما فقط أن نهدم قلاع الجهل والكسل واللامبالاة . .

كيف ؟ فقط أن تكون لدينا إرادة قوية . وقرار حاسم قاطع . ولا رجعة فى ذلك . والآن وليس غدا . . وغدا وليس بعد غد . . اليابان بدأت تعليمها وتنويرها معنا يوما بيوم وتقدمتنا قرونا !

المحتويات

رقم الإيداع ١٠١١٣/ ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0245 - 4

مطابع الشروق
القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

لو جاء نوح ؟!!

هـذا الطـوفان . . فى كل شـىء . . فى المشاكل . . وفى الحلـول . . وأنصـاف الحلول . . وفوضى النظـريات والإجتهادات فى السياسـة والأدب والفن . . ما هو الأمل ؟ وأين؟ وكيف ؟ وماهى أحلام المفكرين والمصلحين والساسة ؟

وهذه عينات من أحلامه وأحلام الحضارة الحديثة :

آخر أشكال الإضاءة هى التى اخترعها الـروس العام الماضى حين وضعوا مرايا فى سفن فضـاء تـدور حـول الأرض وعكست ضـوء الشمس على مـدن أوروبـا فأضاءتها وكان ذلك حدثا جليلا مضى دون حفاوة من أحد . .

ربما كـانت المسـافـة بين أول نـار ونور اخترعهما الإنسـان ، وبين هـذه المرايـا العاكسة من مدار حـول الأرض أربعين ألف سنة . . أو حتى مائة ألف . . ولكن هـذه المسافـة الزمنيـة ليست إلا لحظة صغيرة فى تـاريخ الإنسان على الأرض الـذى عمره أربعـة آلاف مليون سنة . . وفى الكـون الذى عمره ١٥ ألف مليـون سنة . . والإنسان الذى ظهر متأخرا جدا على سطح الأرض !

ولانهاية لما سوف يحلم به ويحققه الإنسان !

لو فـرضنا أن عمر الكون سنـة ، ٣٦٥ يوما . . وأن الله خلق الكون فى الثـانية الأولى من الـدقيقة الأولى فى السـاعة الأولى من اليـوم الأول من ينـاير ، فإن ظهـور الإنسان العاقـل كان فى الثانية الأخيرة من الدقيقـة الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . والإنسان فى هذا الفترة القصيرة جدا قد حقق الكثير .

إن البحث الآن عن سفينة نـوح فوق جبل أرارات لـدليل على أن الإنسان يحلم بالنجاة . . بسفينة . . برسول عنده نظرية تنقذنا من أنفسنا على هذه الأرض أو على الكواكب الأخرى !

إن كاتبنا الكبير أنيس منصور يدور ويلف ويتعمق ويطير بك إلى كل مكان وفى كل اتجاه . . إنه هـو الآخر حـائر بين مالانهايـة له من الآراء والنظـريات . . يـريد حلاً . . ينتظر(نـوح) العصر الحديث لعله . . ولعلنا . . ولعل الإنسـانية كلها أن تهتدى إلى سبيل . .

وكما اعتدت مع كـاتبنا الكبير أنيس منصـور سوف يكـون مشرق العبارة جميل الأداء . . يضيف جديداً إليك وإلى التراث الأدبى والفلسفى . .